المقال

نحو إسلام الرسول

المشكلة والمنهج

محمد السعيد مشتهري

المدخل

في أوائل الثمانينيات، وبعد رحلة علمية بين علماء الفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة، قمت بوضع أصول وقواعد توجهي الديني «نحو إسلام الرسول» يدعو المسلمين أتباع الفرق والمذاهب المختلفة إلى إعادة الدخول في «دين الإسلام» من الباب الذي دخل منه رسول الله محمد والذين آمنوا في عصر التنزيل، وذلك عن طريق الإقرار العلمي بصدق «الآية القرآنية العقلية» التي أيد الله بها رسوله محمدًا الدالة على صدق «نبوته».

وينطلق التوجه الديني «نحو إسلام الرسول» من منهجية علمية تحمل أدوات لفهم القرآن مستنبطة من ذات النص القرآني جعلته ينفرد عن سائر التوجهات الدينية الأخرى بهذه المنهجية التي لا تجعله مذهبًا عقديًا أو فقهيًا جديدًا يُضاف إلى مذاهب الفرق الإسلامية ذلك أن القواعد التي قامت عليها هذه المنهجية مختلفة.

إن التوجه الديني «نحو إسلام الرسول» يتعامل مع القرآن مباشرة بمعزل عن «التراث الديني» الذي ظهر بعد وفاة رسول الله محمد، عليه السلام، بقرن من الزمن على أقل تقدير، ويخاطب المسلمين جميعًا ولا يخاطب فرقة من الفرق الإسلامية.

ويرى التوجه الديني «نحو إسلام الرسول» وجوب أن يعيد المسلمون دخولهم في دين الإسلام من بابه الصحيح، باب الإقرار بصدق «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، استنادا إلى قول الله تعالى ردًا على الذين طلبوا «آيات حسية» دالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد «العنكبوت / ٥١»:

«أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ»

«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»

والحقيقة أني لم أجد في عالم «الفكر الإسلامي»
توجّهًا دينيًا يتعامل مع «القرآن» ومع واقع «تدين المسلمين»
وفق منهجية علمية تحمل أدوات لفهم آيات الذكر الحكيم واستنباط أحكامها
كـ المنهجية العلمية لـ التوجه «نحو إسلام الرسول» والأدوات التي تحملها لفهم القرآن

فماذا يُقال في هدم التراث الديني للفرق الإسلامية كلها غير ما قيل في هذا الكتاب؟!

المشكلة

لقد ورث المسلمون «الإسلام» أقوالا ومواعظ وكتبا بمعزل عن «العمل الصالح» فتخلفوا وأصبحوا عالة على الأمم المتقدمة غير المسلمة، فلماذا كان التخلف مصير خير أمة أخرجت للناس؟!

إن دخول الجنة لن يكون بالكتب والخطب المنبرية والمنشورات الدينية على وسائل التواصل الاجتماعي، فـ «كتاب الله» يحمله ملياران مسلم يعلمون أنه «كلام الله» وآيته الدالة على صدق «نبوة» رسولهم محمد، فلماذا أصبحوا في ذيل التقدم الحضاري؟!

لقد حمل كتاب الله الخاتم «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، عليه السلام، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور:

يقول الله تعالى «إبراهيم / ١»:

«الر – كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ – لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ – إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ»

فهل أخرج المسلمون الناس من الظلمات إلى النور أم هم الذين خرجوا، بتفرقهم وتخاصمهم وتقاتلهم، من النور إلى الظلمات؟!

أولًا:

إن المؤمن الذي أسلم وجهه لله تعالى، ودخل في «دين الإسلام» من بابه الصحيح باب الإقرار العلمي بصدق «الآية القرآنية العقلية»، وفعاليتها في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، يستحيل أن ينفصل إيمانه عن عمله الصالح، ولا عن آثار هذا العمل برؤية مستقبلية، استنادًا إلى قول الله تعالى «يس / ١٢»:

«إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى – وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ – وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ»

١– إن كلمة «وَآثَارَهُمْ» تعني أن الإنسان لا يحاسب على عمله فقط وإنما على آثار هذا العمل الممتدة المفعول، وحتى تكون هذه الآثار من «العمل الصالح» يجب أن يقوم العمل على منهجية علمية، وخطة تنموية برؤية مستقبلية شاملة تضمن عدم انحرافه عن الصلاح والإصلاح، وهو ما يُعرف اليوم بـ «التنمية المستدامة»، فلماذا لم يتحقق ذلك في حياة خير أمة أخرجت للناس؟!

٢– لقد كانت أحداث «الفتن كبرى» هي الأزمة الكبرى والعظمى التي فرقت المسلمين إلى فرق ومذاهب متخاصمة متقاتلة مع تحذير الله تعالى لـ «صحابة رسول الله» من الانقلاب على الأعقاب بعد موته:

يقول الله تعالى «آل عمران / ١٤٤»:

«وَمَا مُحَمَّدٌ – إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ – أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ – انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ – وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ – فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً – وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ»

ومع ذلك انقلب «صحابة رسول الله» على أعقابهم، وسفكوا الدماء بغير حق في أحداث «الفتن كبرى» مع سبق الإصرار والتعمد، فهل رجع التابعون ونبذوا التفرق والتخاصم والتقاتل؟!

٣– لم يتعلم التابعون الدرس، وخرجوا بـ «فتاوى» تُخرج «صحابة رسول الله» من أزمة سفك الدماء بغير حق، وبتأويل غير صحيح للآية «الحجرات / ٩»:

«وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا – فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا – فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى – فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ – فَإِن فَاءتْ – فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا – إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»

والسؤال:

ما علاقة هذه الآية بأحداث «الفتن الكبرى»؟!

إن الآية تتحدث عن «ثلاث أطراف» وليس عن «طرفين» فقط، والطرف الثالث هو «السلطة التنفيذية» المسؤولة عن فض هذا الاقتتال التابعة لـ «الخلافة الإسلامية»، فإذا كان جيش «خليفة المسلمين» هو الطرف الأول، والثاني هو جيش «السيدة عائشة»، فأين الطرف الثالث المشار إليه في قول الله تعالى «فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ»؟!

ثانيًا:

لقد أصبح «دين الإسلام» الذي حمله القرآن هو أن تقيم «الشعائر التعبدية» وبأي صورة ودون الالتزام بشروطها، ثم جاء الملحدون والمنافقون وأسقطوا عن المسلمين الجهال معظم هذه الشعائر، وأباحوا لهم ما حرمه الله تعالى باسم القراءة القرآنية الماركسية المعاصرة.

١– هل يمكن أن يخلف الله تعالى وعده؟!

يقول الله تعالى «النور / ٥٥»:

«وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ – لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ – كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ – وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ – وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً»

بشرط:

«يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا»

ثم قال الله تعالى:

«وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ – فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ»

والسؤال:

(أ): لماذا لم يوف الله تعالى بوعده؟!

والجواب:

لأن المسلمين لم يحققوا الشرط «يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً» فلم يحصلوا على «الموعود».

(ب): وهل يمكن أن يكفر «الَّذِينَ آمَنُوا – وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» ويشركوا بالله تعالى؟!

والجواب:

نعم، بدليل أن الله تعالى لم يوف بوعده لهم.

٢– فإذا نظرنا إلى الوعد بتمكين الدين:

«وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ»

وسألنا أنفسنا:

أين هذا «الدين» الذي ارتضاه الله تعالى لـ «الَّذِينَ آمَنُوا – وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»؟!

والجواب: إنه «الدين» الذي أشارت إليه الآيات «الروم / ٣٠–٣٢»:

«فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً – فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا – لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ – ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ – وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ»

«مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ – وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ – (وَلا تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ) – مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً – كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ»

إنه «الدِّينُ الْقَيِّمُ» الذي يستحيل أن يخترقه «الشرك بالله» وأصحابه ملتزمون بما أمرهم الله به:

«مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ – وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ»

وملتزمون بما نهاهم الله عنه:

«وَلا تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ – مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا»

٣– فهل يعلم أئمة وأتباع الفرق والمذاهب الإسلامية، أنهم لن يكونوا عند الله أفضل من رسوله والذين آمنوا معه، الذين حذرهم الله من «الشرك» إن هم تفرقوا في الدين واتخذوا مصادر تشريعية ما أنزل الله بها من سلطان؟!

لقد انشغلوا بجملة واحدة في الآية «النور / ٥٥» وهي «لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ» وأقاموا عليها حجية «الخلافة الإسلامية» التي أصبحت «غير إسلامية» نتيجة أحداث «الفتن الكبرى»، ومع ذلك ينتظرون إقامتها من جديد وهم أصلًا لم يدخلوا في «دين الإسلام» من بابه الصحيح.

فخرج من يقولون، إن تفرق المسلمين واختلافهم في الدين «رحمة» من الله تعالى، ولم يُفرقوا بين «الاختلاف المحمود» حول فهم آيات الذكر الحكيم التي يتسع عطاؤها مع اتساع حركة الحياة وتقدمها وتطورها، و«الاختلاف المذموم» الناتج عن وجود مصدر تشريعي بشري، يحمل «مرويات» رواة الفرق الإسلامية، جعله أئمة السلف حاكمًا على فهم آيات الذكر الحكيم.

(أ): فأين الرحمة في عقوبة «رجم» الزانية والزاني، وهي عقوبة مفتراة ما أنزل الله بها من سلطان، والقرآن ينص على أن العقوبة هي الجلد لـ «الزانية والزاني» ولم يفرق بين إحصان وغير إحصان كما فرقت روايات المصدر الثاني للتشريع؟!

(ب): فأين الرحمة في عقوبة «قتل» المرتد الذي لم يختر أصلًا الدخول في «دين الإسلام» بإرادته وإنما فُرض عليه فرضًا يوم ولد، فإذا بلغ النكاح واكتمل رشده وأراد أن يخلع ثوب هذا «الإسلام الوراثي» الذي نشأ فيه، ويدخل في «دين الإسلام» الذي أمر الله تعالى اتباعه، وجد سيف الردة ينتظره إذا لم يظل أسير الفرقة التي ولد فيها.

(ج): فلا مفر من إعادة دخول المسلمين في «دين الإسلام» من بابه الصحيح، ونبذ التفرق في الدين، والاعتصام بحبل الله جميعًا، إن أرادوا أن يحقق الله تعالى لهم وعده، ويستخلفهم في الأرض، ويُمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، ويبدل خوفهم أمنا، وتعود لهم الخيرية التي كانت لهم في كافة التخصصات العلمية.

ثالثًا:

وهناك أسئلة «منطقية» تفرض نفسها ونحن نتحدث عن «المشكلة»:

١- هل عرف صحابة رسول الله محمد، عليه السلام، الفرق والمذاهب والتيارات الدينية التي يتبعها المسلمون اليوم، فكان منهم السني والشيعي والمعتزلي والإباضي، وما تفرع عن هذه الفرق من مذاهب عقدية وفقهية متخاصمة متصارعة متقاتلة:

إذًا فمتى ظهرت هذه الفرق وعلى أي أساس شرعي قامت؟!

٢- وهل ترك رسول الله لصحابته صحفًا تحمل «أحاديثه النبوية» عرفوا عددها كما عرفوا عدد سور القرآن الكريم:

إذًا فأين الكتاب الحاوي لهذه «الأحاديث النبوية» الذي لو وُجد ما كان لعلوم الحديث، كعلم الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف ... أن تولد أصلا؟!

٣- وإذا كانت الخلافة الراشدة تعلم أن «الأحاديث النبوية» هي المصدر القولي الثاني للتشريع:

إذًا فلماذا لم تقم بتدوينها في كتاب باسم «الأحاديث النبوية» وتحت إشراف الخلافة الإسلامية لأنها إن فعلت هذا ما كان لـ «الروايات» التي نسبها الرواة والمحدثون إلى رسول الله ولا لعلوم الحديث أن تولد أصلا؟!

٤- إن أحكام الشريعة الإلهية يجب أن تؤخذ من مصدر «قطعي الثبوت عن الله» وليس عن رسوله محمد، وليس هناك مصدر صحة نسبته إلى الله تعالى غير الكتاب الذي حمل «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد القائمة بين الناس إلى يوم الدين:

إذًا فكيف تؤخذ أحكام الشريعة الإلهية من روايات «ظنية الثبوت عن رسوله محمد» تسفك الدماء بغير حق، فترجم الزانية والزاني وتقتل المرتد؟!

٥- وإذا كانت كل فرقة من الفرق الإسلامية تدعي أنها «الفرقة الناجية» وأن مذهبها العقدي والفقهي هو الذي يجب أن يحكم البلاد والعباد:

إذًا فأين «دين الإسلام» الذي أشارت إليه الآيات:

(أ): يقول الله تعالى «آل عمران / ١٩»:

«إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ - وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ - وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ - فَإِنَّ اللهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ»

(ب): يقول الله تعالى «آل عمران / ٨٥»:

«وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً - فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ - وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ»؟!

(ج): يقول الله تعالى «الأنبياء / ٨»:

«قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ - أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ - فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ»؟!

(د): ثم أين «الذين آمنوا» وسلّموا لأحكام القرآن تسليمًا «النساء / ٦٥»:

«فَلاَ وَرَبِّكَ - لاَ يُؤْمِنُونَ - حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ - ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ - وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا»؟!

٦- ألم يخاطب الله «الذين آمنوا» بقوله تعالى «آل عمران / ١٠٢-١٠٨»:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ - اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ - وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ»

«وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ - وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ - فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً - وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا»

«كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»

«وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ – يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ – وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ – وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ – وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»

ثم حذرهم الله من التفرق والاختلاف فقال تعالى:

«وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ – مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ – وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»

«يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ – فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ – أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ – فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ»

«وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ – فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ – هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»

ألم تنزل هذه الآيات بـ الحق:

«تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ – وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ»؟!

إذًا فلماذا لم يتبعها «الَّذِينَ آمَنُواْ» الذين حذرهم الله تعالى من الموت على غير دين الإسلام:

«وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ»

إن هم تفرقوا واختلفوا:

«وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ» فيكون مصيرهم جهنم «وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»؟!

٧– ألم يحذر الله «الذين آمنوا» من الشرك إن هم تفرقوا في الدين فقال تعالى مخاطبًا رسوله محمدًا «الروم / ٣١–٣٢»:

«فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً – فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا – لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ – ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ – وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ»

«مُنِيبِينَ إِلَيْهِ – وَاتَّقُوهُ – وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ – وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ»

«مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ»

فلماذا أعطى المسلمون ظهورهم لهذه الجمل القرآنية:

– «وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ»

– «مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً»

– «كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ»؟!

٨- لقد خرج المسلمون من بطون أمهاتهم ينتمون إلى المذهب العقدي والفقهي الذي وجدوا عليه آباءهم، وقاتلوا وقتلوا في سبيل نصرته، ولم يتربوا على أن المسلم عندما يبلغ النكاح ويكتمل رشده عليه أن يخلع ثوب «الآبائية المذهبية»، ويدرس الكتب التي نسبها أصحابها إلى الله تعالى، ليقف على الكتاب الحق الذي صحت نسبته إلى الله والذي يحمل في ذاته الآية الإلهية الدالة على صدق «نبوة» الرسول الذي بلغه للناس:

فهل هذا ما فعله المسلمون أم أنهم ظلوا متصلين بـ «الحبل السُرّي» لأمهات كتب تراثهم الديني، وبلغوا رشدهم وكبروا، ولم يخرجوا من أسر «الآبائية المذهبية»، وأتباع كل فرقة يدعون أنهم «الفرقة الناجية»؟!

٩- إن الذي دخل في «دين الإسلام» من بابه الصحيح، بعد الإقرار بصدق «الآية القرآنية العقلية»، ينتقل من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، ولم تعد له أي علاقة بـ «التراث الديني الجاهلي» الذي كان يتبعه قبل إسلامه، ولكن إبليس لم يرد ذلك، وجعل المسلمين يدخلون في «دين الإسلام» من باب الإقرار بصدق «تدينهم الوراثي المذهبي» الذي أجبروا عليه جبرًا يوم ولدوا ليظل المسلمون مُغيّبين في «شرك التفرق في الدين» إلي يوم الدين.

فأين ذهبت ذرية «الذين آمنوا»، الذين سَلّموا لـ «أحكام القرآن» تسليمًا في عصر التنزيل، فهل هم اليوم أهل السُنّة، أم الشيعة، أم المعتزلة، أم الإباضية؟!

١٠- إن تفرق المسلمين إلى مذاهب عقدية وفقهية متصارعة قائم إلى يوم الدين، إلا إذا أعلن «إبليس» عن انتحاره، ولو أن الإنس والجن اجتمعوا على هدم «التراث الديني» لهذه الفرق ما استطاعوا لأنه من صنع «إبليس»:

فكيف يتصور عاقل، من أي ملة كان، أن هذا «التراث الديني» يمكن أن يحكم في يوم من الأيام آيات الذكر الحكيم التي حملت «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، عليه السلام؟!

كيف تلتقي «الآية القرآنية العقلية» المعاصرة للناس جميعًا إلى يوم الدين، مع «الرواية البشرية المذهبية» التي توقفت فعاليتها عند عصر التدوين؟!

المنهج

إن المتدبر لآيات الذكر الحكيم يجد أن هناك آيات يحذر الله تعالى فيها الناس من الإعراض عن آيات ذكره الحكيم، ويتوعدهم بالعذاب الأليم:

يقول الله تعالى «طه / ١٢٣-١٢٧»:

«قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ»

«فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى – فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى»

«وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي – فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً – وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى»

«قَالَ رَبِّ – لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى – وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً»

«قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا – فَنَسِيتَهَا – وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى»

«وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ – وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ – وَلَعَذَابُ الأخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى»

أولًا:

والسؤال: من هم الناجون من عذاب الآخرة؟!

١- يقول الله تعالى «الأعراف / ٦٤»:

«فَكَذَّبُوهُ – فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ – وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا – نَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ»

٢- يقول الله تعالى «الأعراف / ١٦٥»:

«فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ – أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ – وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ – بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ»

٣- يقول الله تعالى «هود / ١١٦»:

«فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ – أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ – إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ – وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ – وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ»

٤- يقول الله تعالى «الزمر / ٥٥-٥٩»:

«وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم – مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً – وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ»

«أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى علَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ – وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ»

«أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ»

«أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ – لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ»

«بَلَى قَدْ جَاءتْكَ آيَاتِي – فَكَذَّبْتَ بِهَا – وَاسْتَكْبَرْتَ – وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ»

والناجون قله:

(أ): يقول الله تعالى «الأنعام / ١١٦»:

«وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ – يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ – إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ – وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ»

(ب): يقول الله تعالى «يونس / ٣٦»:

«وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً – إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً – إِنَّ اللهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ»

(ج): يقول الله تعالى «الأعرف / ١٠٢»:

«وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ – وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ»

(د): يقول الله تعالى «الإسراء / ٨٩»:

«وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ – فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً»

(هـ): يقول الله تعالى «يوسف / ١٠٦»:

«وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ – إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ»

(و): يقول الله تعالى «الشعراء / ٨»:

«إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً – وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ»

(ز): يقول الله تعالى «هود / ١٧»:

«فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ – إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ – وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ»

ثانيًا:

إن «الآية» في اللسان العربي لها أكثر من معنى حسب السياق، فهي تعني الجملة القرآنية وتعني البرهان والأَمَارة الدالة على الشيء، وهذا المعنى «البرهان» هو الذي أقصده عند حديثي عن «الآية القرآنية العقلية» فلا أعني «الجملة القرآنية».

ف «الآية القرآنية العقلية»، التي حملها كتاب الله الخاتم هي البرهان العقلي المعاصر للناس جميعًا على مر العصور الدال على صدق «نبوة» رسول الله محمد، وأن «القرآن» كلام الله يقينًا، وليس للدخول في «دين الإسلام» غير باب واحد هو باب الإقرار بصدق هذه «الآية القرآنية العقلية».

أن «القرآن»، الذي بين أيدي المسلمين اليوم، ليس كتابًا إلهيًا كسائر الكتب التي سبقته فهو الكتاب الوحيد الذي حمل في ذاته «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، والتي هي الباب الوحيد للدخول في «دين الإسلام» ومفتاحه لغة القرآن العربية وأساليبها

البيانية البلاغية، الأمر الذي استلزم أن يقوم التوجه الديني «نحو إسلام الرسول» على منهجية علمية تحمل أدوات لفهم القرآن مستنبطة من ذات النص القرآني، وبناء عليه:

١- لا يدعي صاحب هذا التوجه الديني أنه «نبي» أرسله الله للناس، فقد ختم الله تعالى «النبوات» ببعثة خاتم النبيين محمد، عليه السلام:

يقول الله تعالى بقوله «الأحزاب / ٤٠»:

* «مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ - وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ - وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ - وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً»

٢- ولا يدعي أنه «مهدي» من المهديّين الذين كان المسلمون ينتظرونهم ليجددوا لهم دينهم كل مئة عام، لأن مسألة «المهدي المنتظر» بدعة من بدع الفرق الباطنية ظهرت بعد تفرق المسلمون وتخلفوا عن ركب التقدم الحضاري وأصبحوا يبحثون عمن يتحمل مسؤولية إعادة الخيرية لهم نيابة عنهم.

٣- ولا يُصادر التوجه الديني «نحو إسلام الرسول» رأيا مخالفًا له من أي ملة كان، لقول الله تعالى «البقرة / ٢٥٦»:

«لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ - قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ - فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ - فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا - وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»

ذلك أن بوصلة التوجه الديني «نحو إسلام الرسول» تعمل في اتجاه واحد وهو دعوة المسلمين إلى «ما يجب أن يكون» وفق أحكام القرآن، والنهي عن منكرات «ما هو كائن» في حياتهم، ومن هذه المنكرات:

أن يتعدى مسلم حدود الله التي حملتها آيات الذكر الحكيم، أو يُلحد في حكم من أحكامها، فهنا يجب أن نتصدى له بكل قوة علمية.

٤- إن التوجه الديني «نحو إسلام الرسول» يؤمن بـ «حرية الكفر» لقول الله تعالى «الكهف / ٢٩»:

«وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ - فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن - وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ»

ولا يؤمن بـ «حرية الفكر»، لمن دخل في «دين الإسلام» من بابه الصحيح، لأن لهذا الدين حدودًا لا يجب الاقتراب منها، يقول الله تعالى «البقرة / ١٨٧»:

«تِلْكَ حُدُودُ اللهِ - فَلاَ تَقْرَبُوهَا»

وحدودًا لا يجب تعديها، يقول الله تعالى «البقرة / ٢٢٩»:

«تِلْكَ حُدُودُ اللهِ – فَلاَ تَعْتَدُوهَا»

٥– والسؤال:

ما الذي يعوق المسلمين من الالتزام بـ «أحكام القرآن» وهم يسيرون في طريق التقدم الحضاري والتقني لتحقيق شهادتهم على الناس، لقول الله تعالى «الحج / ٧٨»:

«لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ – وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ»

وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، تنفيذا لأمر الله تعالى «إبراهيم / ١»:

«الَر – كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ – لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ – بِإِذْنِ رَبِّهِمْ – إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ»؟!

إنه إبليس الذي قال لربه «الحجر / ٣٩–٤٠»:

«قَالَ رَبِّ – بِمَا أَغْوَيْتَنِي – لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ – وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ – إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ»

ثالثًا:

تنطلق منهجية التوجه الديني «نحو إسلام الرسول» من قاعدة بيان «ما يجب أن يكون» وفق أحكام القرآن، مع دعوة المسلمين إلى تغيير «ما هو كائن» في حياتهم إلى «ما يجب أن يكون» من منطلق:

١– البلاغ:

يقول الله تعالى «إبراهيم / ٥٢»:

«هَذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ – وَلِيُنذَرُواْ بِهِ – وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ – وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ»

ويقول الله تعالى «النور / ٥٤»:

«وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ»

٢– المسؤولية الفردية:

يقول الله تعالى «الإسراء / ١٣–١٤»:

«وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ – وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً – اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً»

٣– الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ولا يتدخل التوجه الديني «نحو إسلام الرسول» في «ما هو كائن» في حياة الناس إلا من باب فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي قدمها الله تعالى على الإيمان به عز وجل لبيان مدى أهميتها:

يقول الله تعالى «آل عمران / ١١٠»:

«كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ – تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ – وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ – وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ»

ويقول الله تعالى «المائدة / ٧٨-٧٩»:

«لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ – عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ – ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ – كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ – لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ»

مثال:

عندما تحضر مناسبة «حفل زفاف مثلًا» وتجد معظم النساء متبرجات متزينات غير ملتزمات بـ «الخمار والجلباب» اللذين أنزلهما الله تعالى، وقد يكون العريس أو العروسة من أقرب الناس إليك، فإن السؤال الذي يفرض نفسه في هذه الحالة:

هل ستغادر الحفل كما أمرك الله أم ستشارك وتعطي ظهرك لهذه المنكرات، والله تعالى يقول لك «النساء / ١٤٠»:

«وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ – أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ – يُكَفَرُ بِهَا – وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا – فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ – حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ – إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ – إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا»؟!

إن معظم المسلمين يقعون فيما يُغضب الله تعالى ولا يقتربون من دائرة «النهي عن المنكر»، خوفًا من غضب أصحاب المنكرات عند مواجهتهم بها، وإن التوجه الديني «نحو إسلام الرسول» يدعو المسلمين إلى عدم المشاركة أو التواجد في منكرات مهما كانت أهمية المشاركة عائليًا أو اجتماعيًا.

٤- ومن قول الله تعالى «النور / ٥٥»:

«وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ – لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ – كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ – وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ – وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا»

ولكن بشرط:

«يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا – وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ»

والسؤال:

لماذا لم يتحقق وعد الله تعالى؟!

والجواب:

لأن «الَّذِينَ آمَنُوا» لم يحققوا شرط «يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا»، وإلا نكون قد اتهمنا الله تعالى بأنه أخلف وعده.

رابعًا:

ومما سبق، يتضح أن التعامل مع القرآن، يجب أن يكون قائما على منهجية علمية، تحمل أدوات مستنبطة من ذات النص القرآني، وليس من خارجه، هذه المنهجية العلمية القائمة على التفاعل القائم بين كلمات «الآية القرآنية العقلية» المعاصرة للناس جميعا اليوم، و«مقابلها الكوني» في الآفاق والأنفس، والقادر على مواجهة شبهات الملحدين في آيات الذكر الحكيم المشككين في صدق «نبوة» رسول الله محمد، عليه السلام:

يقول الله تعالى «فصلت / ٤٠»:

«إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا – لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا – أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ – أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ – اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ – إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»

لقد تمكن الإلحاد من قلوب الملحدين إلى درجة يعبر عنها السياق بحرف «في» الوارد في جملة «يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا»، لبيان أن شبهاتهم وصلت إلى داخل هذا التفاعل القائم بين الآيات المقروءة والآيات المنظورة، وهذا ما أفاده قول الله تعالى «الأعراف ١٨٠»:

«وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا – وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ – سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ»

إن فعالية أسماء الله الحسنى ليست في كلمات الكتاب المقروء وإنما في تفاعلها مع الكتاب المنظور في الآفاق والأنفس، وإن مجيء فعل «يُلْحِدُونَ» في الآيتين يستلزم أن نبيّن الفرق بين «الإلحاد» و«الكفر» في اللسان العربي:

الإلحاد:

يعني الميل والعدول عن القصد والجور عنه والإعراض، يقول الله تعالى «الحج / ٢٥»:

«وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ»

أَي انحرافٍ بظلم، ويشمل كل معوج غير مستقيم.

الكفر:

يعني الستر والتغطية، وإذا أطلق في سياق الحديث عن «دين الإسلام» فيعني الجحود والعصيان.

وعندما أستخدم لفظ «الإلحاد» في كلامي أقصد به «الميل» عن الفهم الواعي لآيات التنزيل الحكيم وما حملته من أحكام، والذي قد يؤدي إلى الكفر بالله تعالى حسب السياق.

فماذا عن أدوات فهم القرآن المستنبطة من ذات النص القرآني وليس من خارجه؟!

لقد انطلقت منهجية التوجه «نحو إسلام الرسول» من قاعدة علمية تتعامل مع القرآن وفق هذه الأدوات:

١- منظومة التواصل المعرفي

٢- اللسان العربي

٣- السياق القرآني

٤- آليات عمل القلب

٥- آيات الآفاق والأنفس.

١- منظومة التواصل المعرفي:

هي المحور الأساس الذي تدور حوله الأدوات الأربع:

«اللسان العربي - السياق القرآني - آليات عمل القلب - آيات الآفاق والأنفس»

الذي انفرد به التوجه الديني «نحو إسلام الرسول» عن سائر التوجهات الدينية الأخرى، ولا علاقة لها بما يُعرف بين أئمة السلف والخلف بـ «التواتر العملي» كما سنبيّن بعد ذلك.

(أ): لقد خاطب الله الناس برسالات تفاعلت كلماتها وتواصلت مع ما ورثوه من معارف وثقافات وكيفيات أداء عملية لما أجملته هذه الرسالات من أحكام، وذلك من لدن آدم عليه السلام، فقال تعالى «البقرة / ٣١-٣٢»:

«وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاء إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ»

ولما كان «الاسم» لا يكون إلا لـ «مُسَمّى»، وقد قال الله تعالى عن «الأسماء» التي تعلمها آدم «ثُمَّ عَرَضَهُمْ»، وليس ثم «عَرَضَهَا»، نفهم من ذلك أن آدم، عليه السلام، لم يتعلم «الأسماء» بمعزل عن «مُسَمّياتها»، وإنما شاهد ذوات الأشياء «المسَمّيات»، وذلك بقرينة كلمة «هَؤُلاء» الواردة في قوله تعالى للملائكة:

«فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاء إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ»

ولقد نقل الناس أسماء ومسميات الكلمات بلغاتهم المختلفة، من لدن آدم عليه السلام، عن

طريق «منظومة التواصل المعرفي»، وهذه «المسمّيات»، حسب التوجه الديني «نحو إسلام الرسول»، هي «المقابل الكوني» لكلمات اللغات التي تنطق بها ألسن شعوب العالم.

(ب): وتنقسم المعارف التي حملتها «منظومة التواصل المعرفي» إلى معارف عالمية ومعارف أممية.

المعارف العالمية:

وهي التي تواصلت كلماتها ومُسَمّياتها «مقابلها الكوني» بين شعوب العالم مع اختلاف لغاتها ولهجاتها، كـ كلمة أبيض – ساخن – حزين – تفاحة – كرسي – سحاب – شجرة ...وكـ فعل يأكل – يمشي – يضرب – يذبح – يقوم – يركع – يسجد ... إلى آخره.

المعارف الأممية:

وهي التي تواصلت كلماتها ومُسَمّياتها «مقابلها الكوني» بين أفراد الأمة الواحدة، كـ لغة القوم – الشعائر التعبدية وكيفية أدائها – العادات والتقاليد – المهارات الفنية والصناعات التي تتميز بها أمة عن أخرى.

(ج): ولقد حملت «منظومة التواصل المعرفي» الحق والباطل، ونزلت الرسالات الإلهية لبيان الحق وإزهاق الباطل، ومن الحق الذي حملته هذه المنظومة المعرفية مُسَمّيات «المقابل الكوني» لـ كلمات لغات شعوب العالم، وعلى أساس هذا الحق قامت حجية الرسالات الإلهية.

ولقد قامت حجية الرسالة الإلهية الخاتمة «القرآن الكريم» على فعالية الحق الذي حملته وتفاعلت كلماته مع «مُسَمّياتها» العالمية والأممية الموجودة على أرض الواقع بآيات قرآنية قطعية الدلالة نزلت بـ «لسان عربي مبين»، أي باللغة التي كانت تنطق بها ألسن قوم رسول الله محمد، والتي يستحيل أن تُفهم كلماتها بمعزل عن مُسَمّياتها «مقابلها الكوني» الموجود خارج القرآن في الآفاق والأنفس.

(د): ومن الباطل الذي حملته «منظومة التواصل المعرفي»، وكان يشكل في عصر التنزيل «منظومة معرفية» متصلة الحلقات قرونًا من الزمن، مسألة صلب المسيح عيسى، عليه السلام، التي يؤمن بها النصارى إيمانًا راسخًا باعتبارها جزءًا من دين الله، والله تعالى يقول «النساء / ١٥٧»:

«وَقَوْلِهِمْ – إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ – وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ – وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ – وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ – مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ – إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ – وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً»

إن قوله تعالى «مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ» هو القاعدة التي يتم على أساسها التفريق بين الحق والباطل مما حملته «منظومة التواصل المعرفي»، فـ «الباطل» في مسألة قتل وصلب المسيح أنه لا يوجد وحي إلهي يثبتها، وإنما تداولتها ألسن أتباع المسيح حتى «تواتر» خبر القتل والصلب

واستفاض وأصبح يُشكل بين الناس «منظومة معرفية» نزل القرآن يثبت بطلانها.

(هـ): الفرق بين «التواصل» المعرفي العملي و«التواتر» المعرفي العملي:

التواصل المعرفي العملي:

هو تواصل حلقات المعارف وكيفيات الأداء العملي على مستوى «الأمة الإسلامية» دون انقطاع، مع تفرقها إلى فرق ومذاهب عقدية وفقهية متخاصمة، وتتعلق حجية هذا التواصل بـ الأصول العامة لكيفيات الأداء العملي لما أجمله القرآن من أحكام، قد أدّاها ويؤديها المسلمون جميعًا منذ عصر التنزيل وإلى اليوم دون أي خلاف بينهم في كيفية الأداء، مثال ذلك هيئة الصلاة، من قيام وركوع وسجود، وعدد الصلوات الخمس، وعدد ركعات كل صلاة، ومواقيت الصلاة.

التواتر المعرفي العملي:

هو تواصل حلقات المعارف وكيفيات الأداء العملي على مستوى فرقة أو طائفة أو جماعة ...، دون انقطاع، مثال ذلك الخلاف حول مسألة رفع اليدين في الصلاة، وحول صيغ التشهد ... إلى آخر ما هو مفصل في كتب الفقه المقارن.

إن كيفية الأداء العملي للشعائر التعبدية «كالصلاة» هي الصورة العملية للنص القرآني «المجمل» الذي أمر بها، كـ «أقيموا الصلاة»، والتي تعلمها المسلمون بـ «التقليد والمحاكاة» خارج القرآن، نقلًا عن صلاة رسول الله محمد والذين آمنوا معه في «المسجد الحرام».

ولقد حفظ الله تعالى «هيئة الصلاة» وعدد ركعاتها ومواقيتها في «المسجد الحرام» ليكون مرجعًا للمسلمين إلى يوم الدين، وهل يستطيع المسلم أن يقيم الصلاة دون أن يتوجه إلى «القبلة» التي لا يوجد في القرآن أي بيان أو تفصيل لمكانها؟!

يقول الله تعالى «البقرة / ١٤٤»:

«قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ – فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا – فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ – وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ»

(و): إن «الْبَيْتَ الْحَرَامَ» هو «الكعبة»، يقول الله تعالى «المائدة / ٩٧»:

«جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ»

وهذه «الكعبة» موجودة على مر العصور في بلد اسمها «مكة»، وهذه البلد موجودة في دولة اسمها «السعودية»، ويعلمها العالم أجمع، وهي موجودة داخل «المسجد الحرام»:

يقول الله «البقرة / ١٤٤»:

«فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ»

ولا شك أن المسلمين في «مكة» عندما كانوا يسمعون النداء لصلاة «الجمعة»:

يقول الله تعالى «الجمعة / ٩»:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا – إِذَا نُودِي لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ – فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ – وَذَرُوا الْبَيْعَ – ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ – إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ»

كانوا يسارعون إلى «صلاة الجمعة» مع رسول الله، ويستحيل أن يحفظ الله تعالى النص:

«إِذَا نُودِي لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ»

ولا يحفظ «المقابل الكوني» لـ «كلماته» وكيفية أداء هذه الصلاة «مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ» على أرض الواقع، ذلك أن «الأصول العامة» لكيفية أداء «الصلاة» التي نراها اليوم تقام «جماعة» داخل آلاف المساجد حول العالم، من هيئة القيام والركوع والسجود، وخمس صلوات في اليوم، وبمواقيت محددة، وبعدد كعات ثابتة، متصلة الحلقات بعصر التنزيل عن طريق «منظومة التواصل المعرفي».

(ز): وعلينا أن نفرق بين ما هو واجب الاتباع شرعا، ويشكل «منظومة معرفية عالمية أو أممية» ويستند إلى نص قرآني، وبين ما ليس بواجب الاتباع شرعا، وهو ما يشكل «تواترًا عمليًا مذهبيًا» تواصلت حلقاته بين أتباع مذهب من المذاهب، وكان محل خلاف بين أصحاب هذه المذاهب.

صحيح أن «التواتر العملي» جزء من «منظومة التواصل المعرفي» إلا أنه «تواتر مذهبي» لا تقوم حجيته إلّا على أتباع فرقة من الفرق أو مذهب من مذاهبها العقدية أو الفقهية، الأمر الذي يمكن أن يجعل فعله مباحًا إذا لم يخالف نصًا قرآنيًا أو مقصدًا من مقاصد القرآن.

لقد أنزل الله تعالى كتابه الخاتم يحمل «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسوله محمد، عليه السلام، وبـ «اللغة العربية» التي كان ينطق بها لسان قومه من قبل بعثته:

يقول الله تعالى «إبراهيم / ٤»:

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ – إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ – لِيُبَيِّنَ لَهُمْ – فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ – وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ – وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»

«لِيُبَيِّنَ لَهُمْ»: ويستحيل أن يتحقق هذا «البيان» وقوم رسول الله محمد لا يعلمون معنى كلمات القرآن، ولم يشاهدوا «مقابلها الكوني»، بل يجب أن يكونوا على علم كامل بها من قبل بعثة

الرسول، وما كان هذا العلم أن يتحقق لولا حفظ الله لهذه الكلمات ولـ «مقابلها الكوني» عن طريق «منظومة التواصل المعرفي» تفعيلا لقوله تعالى «الحجر /٩»:

«إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»

ولقول الله تعالى «فصلت / ٣»:

«كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ – قُرْآناً عَرَبِيّاً – لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»

«قُرْآناً عَرَبِيًّا»: ويستحيل أن يكون «عَرَبِيًّا» لولا حفظ الله تعالى لـ «كلماته» ولمسمّياتها أي لـ «مقابلها الكوني» الموجود في الواقع الخارجي المشاهد.

إننا عندما نتعامل مع «اللسان العربي» الذي حملته معاجم اللغة العربية فإننا نتعامل مع كلمة غير منفصلة عن «مُسَمّاها» الموجود في الواقع المشاهد، والذي حملته «منظومة التواصل المعرفي» من لدن آدم، عليه السلام، وإلى يوم الدين.

(ح): ولماذا، في سياق بيان تعهد الله بحفظ «كتابه الخاتم»، لم يستخدم السياق كلمة «الكتاب» أو «القرآن» فيقول الله تعالى:

* «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا – الكِتَابَ – وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»؟!

* «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا – القُرْآنَ – وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»؟!

فهل جاء استخدام لفظ «الذكر» لأن الآية تجيب على قول المكذبين «الحجر / ٦»:

«وَقَالُواْ – يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ – إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ»؟!

ولماذا كان يُسمي قوم النبي محمد التنزيل الحكيم بـ «الذكر»؟!

أقول:

إن كلمة «الذِّكْر» مصدر ذَكَرَ، وأصل مادته «التذكر» المقابل للغفلة والنسيان، سواء كان «ذِكْرًا» بالقلب أو باللسان، وأن الذي يجعل الإنسان يتذكر الكلمة ومعناها، هو «مُسُمّاها» الموجود خارجها في الوقع المشاهد الذي أسميه بـ «مقابلها الكوني»، ويجب أن تكون صورة هذا «المقابل الكوني» مطبوعة في ذهن الإنسان «الصورة الذهنية» من قبل تعامله مع الكلمة وإلّا ما عرف ولا فهم معناها.

ولما كانت «الكلمة»، في أي لغة في العالم، يستحيل فهم معناها و«تذكرها» بمعزل عن «مُسَمّاها»، استحال فهم معاني «كلمات» التنزيل الحكيم «وتذكرها» بمعزل عن «مُسَمّاها»، من أجل ذلك سُمّي التنزيل الحكيم بـ «الذكر» عل» أساس تفاعل كلماته المكتوبة «كتابًا» المقروءة «قرآنًا»، مع «مُسَمّياتها»، أي مع «مقابلها الكوني» في الآفاق والأنفس.

ولذلك علينا أن نعلم أن هذه المصطلحات «اللسان العربي – اللغة العربية – اللغة العامية» لا تعني «الكلمات» المقروءة أو المسموعة بمعزل عن مُسَمّاها و«مقابلها الكوني» في الآفاق والأنفس.

إن الأرض تنبت زرعا قبل أن يعرف الإنسان الزراعة، بل هي التي علمته كيف يزرع، وأصبحت علوم الزراعة تشكل منظومة معرفية عالمية، وتعلم الإنسان كيف يدفن الموتى بمواراة الجسد في باطن الأرض، ثم تواصلت هذه الكيفية عبر «منظومة التواصل المعرفي»:

يقول الله تعالى «المائدة / ٣١»:

«فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً – يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ – لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ»

إن «منظومة التواصل المعرفي» هي تلك المعارف والعلوم والثقافات، التي تواصلت حلقاتها حاملة معها، من لدن آدم عليه السلام، كلمات لغات شعوب العالم ومسمياتها ومقابلها الكوني» الذي يُذكر الناس بمعناها، وكيفيات أداء الأفعال، والخبرات والمهن...، ولولاها ما تطورت العلوم وتقدمت الحضارات، وما نشأت العلاقات الإنسانية والاجتماعية وتواصلت الشعوب:

«وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا – إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ – إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ»

٢– اللسان العربي:

لقد نزل القرآن على قوم هم أهل «اللسان العربي» الذي نزل به، ودخلوا في دين الله أفواجا بناء على معرفتهم بلغة القرآن العربية، وإقرارهم بصدق «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، والتي لم يستطع الإنس والجن أن يأتوا بسورة من سورها.

لقد تعَلّمَ آدم، عليه السلام، الأسماء ومُسَمّياتها ليقوم وذريته بمهمة الاستخلاف في الأرض على خير وجه «البقرة / ٣»:

«وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاء إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ»

فلا علم بلا تعلم، ولا تعلم دون أن تكون «مُسَمّيات» الأشياء وصورها الذهنية مطبوعة في قلوب الناس، ولقد تعلم الأبناء «مُسَمّيات» الأشياء من البيئة التي ولدوا فيها، وأنزل الله الرسالات والناس يعلمون «مُسَمّيات» كلماتها من قبل بعثة الرسل، فيقول الله تعالى «إبراهيم / ٤»:

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ – فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ – وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»

(أ): فماذا يعني قول الله تعالى «إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ»؟!

هل أرسل الله مع كل رسول «لسان قومه»، أي «قطعة اللحم» المعروفة، الذي يُميّز قومه عن الأقوام الأخرى؟!

وعندما قال موسى، عليه السلام، لربه «طه / ٢٧-٢٨»:

«وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي»

هل كان هناك من ربط لسان موسى بحبل وعقده حتى لا يستطيع حلّه، فطلب موسى من ربه فك هذه العقدة من لسانه؟!

فإذا نظرنا إلى «اللسان» من الناحية التشريحية نجد أن هناك ما يُسمى بـ «اللَّهاة» وهي اللُّحمة المشرِفة على الحَلْق والتي تسمى «لسان المزمار»، فإذا وضعنا حرف «الغين» مكان الـ «ها» كانت «اللغة»، فإذا علمنا أن الهاء في «لَهَاة» والغين في «لُغة» من حروف «الحلق» التي يحل بعضها مكان بعض، تصبح كلمة «اللغة» دالة على عضو من أعضاء النطق بها وهو «اللسان»، باعتباره «آية» من آيات الأنفس، وليس فقط «آلة للنطق».

يقول الله تعالى «الروم / ٢٢»:

«وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ - وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ - إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ»

والمقصود بـ «اخْتِلاَف أَلْسِنَتِكُمْ» اختلاف «اللغات» التى تنطق بها «ألسنتكم» وليس اختلاف خصائص «اللسان» المادية، فنجد مثلا لسان بمواصفات انجليزية، وآخر بمواصفات ألمانية أو روسية، وهنا تكون «الألسن» قد استخدمت استخدامًا «مجازيًا».

(ب): فإذا ذهبنا إلى «مقاييس اللغة» نجد أن «ابن فارس، ت ٣٩٥ هـ» يقول في مادة «ل غ و» عن القول الثاني:

«لَغِيَ بالأمر، إذا لَهِجَ به، ويقال إنَّ اشتقاق اللُّغة منه، أي يَلْهَجُ صاحبُها بها».

ويقول ابن جني «ت ٣٩٢ هـ» في «الخصائص، باب القول على اللغة وما هي»:

«أما حدّها: فإنها أصوات يُعبر بها كل قوم عن أغراضهم، هذا حدها»

واستخدم ابن جني كلمة «اللغة» عند حديثه عن أهم لغات العرب فقال:

«لغة أهل الحجاز، وهي اللغة الفصحى القدمى»

ويقول ابن منظور في «لسان العرب» مادة «لغو»:

«واللُّغة: اللِّسْنُ، وحَدُّها أَنها أَصوات يُعبِّر بها كل قوم عن أَغراضِهم ... ولَغا فلان عن الصواب وعن الطريق إِذا مالَ عنه؛ قاله ابن الأَعرابي، قال: واللُّغَةُ أُخِذَت من هذا لأَن هؤلاء تكلموا

بكلام مالُوا فيه عن لُغةِ هؤلاء الآخرين، واللَّغْو: النُّطق يقال: هذه لُغَتهم التى يَلْغُون بها أَي يَنْطِقُون»

ولذلك يجب أن نُفرّق بين:

«اللغة»:

التى هى أصوات تحمل كلمات «اسمًا، فعلًا، حرفًا» يُعبر كل قوم بها عن أفكارهم ومشاعرهم وأغراضهم.

«اللغو»:

الذي تحمله أي «لغة» من لغات الشعوب، يُعبر عن الكلام غير الصحيح، أو الذي لا معنى له، وفي هذا السياق يقول الله تعالى «الفرقان / ٧٢»:

«وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ – وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ – مَرُّوا كِرَاماً»

ويقول الله تعالى عن أهل الجنة «الواقعة / ٢٥-٢٦»:

«لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً * إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً»

ولذلك عندما أراد الكافرون التشويش على رسول الله وهو يقرأ القرآن «فصلت / ٢٦»:

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ – وَالْغَوْا فِيهِ – لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ»

فنجد أن معنى «اللغو» هنا ليس الكلام الذي لا معنى له ولا فائدة منه، لأن فعل «وَالْغَوْا» معناه إحداث أي نوع من أنواع التشويش والإزعاج الصوتي الذي يجعل الكافرين لا يسمعون القرآن، بقرينة كلمة «فِيهِ» الظرفية العائدة على القرآن، «وَالْغَوْا فِيهِ»، ولو كانت هذه الأصوات المرتفعة، بكلام فصيح مفهوم.

(ج): ولما كان كتاب الله، القرآن الكريم، قد حمل في ذاته «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، لم يكن مناسبًا لمقام هذه «الآية القرآنية» أن تستخدم كلمة اللغة، ذلك أن اللغة تحمل حقا وباطلا، وتحمل لغوًا، وكلام الله منزه عن «اللغو»، ولذلك لم يقل الله عن إنزال القرآن «نزل بلغة عربية مبينة» وإنما قال تعالى «الشعراء / ١٩٣-١٩٥»:

«نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ – عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ – بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ»

لقد جاء استخدام كلمة «اللسان» في موضعه المحكم باعتباره «آية من آيات الأنفس» التى حملتها «الآية القرآنية العقلية» والتي قال الله تعالى فيها «فصلت / ٥٣»:

«سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الأفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ – حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ – أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»

إن تبيّن «الحق» في الآفاق والأنفس لا يكون إلا بأدوات علمية وآليات معرفية، حسب لغة القوم وإمكانات عصرهم، ولذلك كانت مهمة الرسل «البيان»:

يقول الله تعالى «إبراهيم / ٤»:

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ»

أن مهمة اللغة «البيان»، والبيان ليس قاصرًا على قواعد النحو وعلى تركيب جملة مفيدة، وإنما يشمل الأساليب البلاغية المختلفة التي تعطي للجملة قيمة بيانية واتساعًا في المعنى، كالمجاز، والتعبير عن الشيء باسم «الآلة» التي يحصل بها، كما نعبر عن «اللغة» باسم الآلة التي تنطق بها وهي «اللسان».

(د): يقول الله تعالى «النور / ١٥»:

«إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ – وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ – مَّا لَّيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ»

فالتلقى يُطلق على الأخذ باليد، «تلقيت رسالة»، والألسن ليست آلة استماع الأخبار والإشاعات، فعندما تُشبه «الألسن» بالأيدي، يكون ذلك لبيان عِظم جريمة تداول الإشاعات بغير علم، وهو استخدام «مجازي» لآلة النطق «اللسان».

ولذلك لا فرق بين أن تقول «أنا أتحدث باللسان العربي» أو «أنا أتحدث باللغة العربية» لأن في الحالتين أنت تقصد «الكلام المنطوق»، وليس «الآلة الناطقة» التى تقوم بعملية «البيان» والتى تعتبر آية من آيات الأنفس.

وعندما نقول إن «البيان» آية من آيات الأنفس فذلك لأنه لا يعتمد على قدرات الإنسان اللسانية والبلاغية فقط، وإنما على ما وراء هذه القدرات من آيات وآليات عجز العلم عن الوقوف عليها.

إننا نرى الطفل، ما بين الثانية والثالثة من عمره، ينطق بكلمات وجمل يفهمها من حوله وهم في حالة ذهول، فكيف يقوم ابن الثالثة بتركيب الكلمات والجمل التى ينطق بها لسانه، فإذا علمنا أن هناك أطفال تتعلم أكثر من لغة، لغة الأب ولغة الأم، فكيف لا تختلط كلماتها أثناء حديثه وبيانه لما يريد أن يقول، وتخرج كل كلمة من مستودعها في القلب لحظة استدعائها؟!

والإجابة على هذا السؤال في قول الله تعالى «الرحمن / ١-٤»:

«الرَّحْمَنُ – عَلَّمَ الْقُرْآنَ – خَلَقَ الإِنسَانَ – عَلَّمَهُ الْبَيَانَ»

إن وراء جملة «عَلَّمَهُ الْبَيَانَ» آيات من آيات الأنفس، ومنها «آية النطق»، وعمدتها «اللسان» الذي ورد في سياق بيان نعم الله «المادية» على الإنسان، فقال تعالى «البلد / ٨-٩»:

«أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ – وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ»

إن اللسان «آية» وليس «آلة».

(هـ): إن الهدى والضلال مرتبطان بإنزال الرسالة الإلهية باللغة التي تنطق بها ألسن الناس، ومع إيماننا بأن «اللغة» ليست قاصرة على «لغة الكلام» فقط، وإنما هناك على سبيل المثال «لغة الإشارة» و«لغة الآلة» و«لغة الجسد»، وحسب القاعدة التي تقول:

«إن عدم الوجدان ليس دليلا على عدم الوجود»

فإن عدم وجدان «كلمة اللغة» صراحة في السياق القرآني، ليس دليلا على عدم وجودها كمنظومة صوتية قرآنية تتفاعل مع ما تعلمه الإنسان في طفولته من أحرف الهجاء وأصواتها.

إن الله تعالى بعد أن قال «إبراهيم / ٤»:

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ»

قال بعد ذلك:

«فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ – وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ – وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»

إن ارتباط الهدى والضلال:

«فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ – وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ»

بلغة البيان التي كانت تنطق بها ألسن العرب، من قبل بعثة رسول الله محمد عليه السلام، يفرض على كل المسلمين أن يكونوا على دراية بلغة القرآن العربية وعلومها البيانية، حتى لا تتمكن القراءات القرآنية الإلحادية والشاذة من اختراق قلوبهم.

(و): إن من أساليب القرآن البيانية ما يُسمى بـ «الترادف» في السياق القرآني، والذين يُنكرون «الترادف» في القرآن لا يفقهون شيئًا عن لغة القرآن وأساليبها البلاغية، لأننا إذا ذهبنا إلى معجم من أهم معاجم اللغة العربية وهو «مقاييس اللغة – لابن فارس» نجده يقول:

مادة «فرق»:

الفاء والراء والقاف أُصَيلٌ صحيحٌ يدلُّ على تمييز وتزييلٍ بين شيئين، من ذلك الفَرْق:

فرق الشعر، يقال: فرَقْتُه فَرَقاً، «الفُرْقانُ» كتاب الله تعالى، فَرَقَ به بين الحقِّ والباطل.

إذًا «ابن فارس» يقول ما حملته «منظومة التواصل المعرفي»:

إن «الفرقان» هو نفسه «كتاب الله».

مادة «أمّ»:

وأمّا الهمزة والميم فأصلٌ واحدٌ، يتفرّع منه أربع أبواب ...، و«أمُّ القُرآن»: فاتحة «الكتاب»، و«أمُّ الكتاب»: ما في «اللّوح المحفوظ».

وها هو «ابن فارس» يؤكد أن «القرآن» هو نفسه «الكتاب».

مادة «حزب»:

الحاء والزاء والباء أصلٌ واحد، وهو تجمُّع الشيء ....، والطائفة من كلِّ شيءٍ حِزْبٌ، يقال قرأَ حِزْبَهُ من «القرآن»، يحتوي «القرآن الكريم» على «٣٠ جزء» بـ «٦٠ حزب».

فعندما يقول «ابن فارس»:

«يقال قرأَ حِزْبَهُ من القرآن»، فإنه يقصد بالقرآن «التنزيل الحكيم كله»، وليس جزءًا أو حزبًا منه.

مادة «عضو»:

العين والضاد والحرف المعتل أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تجزئةِ الشَّيء ....، قال الخليل: وقوله تعالى:

«الَّذِينَ جَعَلُوا القُرْآنَ عِضِينَ»

أي عِضَة عِضة، ففرَّقوه، آمنوا ببعضه وكَفَرُوا ببعضه.

والسؤال:

هل كان الخليل يقصد أن «الهاء» التي في كلمة «بعضه» تعود على القرآن كله، من سورة الفاتحة وحتى سورة الناس، أم على جزء منه؟!

مادة «غسق»:

الغين والسين والقاف أصلٌ صحيح يدل على ظُلْمة، فالغَسَق: الظلمة، والغاسِق: الليل، ويقال: غَسَقت عينُه: أظلمت ...، وأمّا الغَسَّاق الذي جاء في «القرآن»، فقال المفسِّرون: ما تقطَّرَ من جلود أهل النار.

ثم يتحدث «ابن فارس» عن القرآن باعتباره «التنزيل الحكيم»، ويثبت وجود «الترادف» في آياته فيقول:

«فالغَسَق: الظلمة»، ثم يقول بعدها: «والغاسق: الليل»

إن قول «ابن فارس»: الغسق = الظلمة، والغاسق = الليل، معناه وجود ترادف في كلمات القرآن، لأنه يعلم «فلكيا» أن ظلمة الليل درجات، وأشدها «الغسق»، ولو كان من منكري الترادف لقال:

الغسق = شدة الظلمة، والغاسق = الليل المظلم، ويجعل سنده في ذلك قول الله تعالى «الإسراء / ٧٨»:

«أَقِمْ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ»

يقول «أبو علي الفارسي»، في كتابه «المسائل الحلبيات»، تحت عنوان «مسألة في تأويل أسماء كتاب الله تعالى»:

قد ثبت بقوله تعالى «يوسف / ٣»:

«بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ»

أن القرآن اسم لكتاب الله عز وجل.

ويقول تحت عنوان «القول في الفُرْقان»:

«قد ثبت أن الفُرْقَان اسم «القرآن»، بدلالة قوله تعالى «الفرقان / ١»:

«تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً»

أقول:

إن مراجع اللغة العربية تشهد بأن الكلمات «الكتاب – القرآن – الفرقان» أسماء وصفات لـ «التنزيل الحكيم» من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، فالله تعالى «الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ» هو سبحانه الذي أنزل القرآن «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» وهو سبحانه الذي أنزل الفرقان «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ».

٣– السياق القرآني:

يقوم «علم السياق القرآني» بالدور الأساس في اختيار «من مراجع اللغة العربية» المعنى المناسب للكلمة الذي يتناغم مع السياق الذي وردت فيه، لذلك كان على من يريد التعامل مع «كتاب الله» أن يكون على دراية بعلوم «اللغة العربية» وبعلم «السياق القرآني».

إن «سياق الكلام» هو الصورة التي يكون عليها نسق الكلام المترابط المعبّر عن المعنى المراد إيصاله للناس، والذي قد يحتاج استنباطه إلى النظر في أكثر من سياق للوصول إلى الوجه الصحيح.

و«السياق القرآني» هو الصورة التي يكون عليها نسق آيات التنزيل الحكيم التي تحمل خطاب الله تعالى للناس جميعًا، والتي قد يحتاج استنباط معاني كلماتها إلى النظر في أكثر من سياق مرتبط بهذه الكلمات، فالكلمة تفهم في سياق الآية، والآية تفهم في سياق ما قبلها وما بعدها من

آيات، والسورة تفهم في سياق سور القرآن وبنائها المحكم ...، وهكذا يكون الفهم الواعي لكيفية التعامل مع «التنزيل الحكيم».

مثال:

إن كلمة «أسْوَد» إذا أطلقت بمعزل عن أي سياق فإنها تعني اللون الأسود المعروف للناس جميعًا، فإذا ارتبط هذا اللون بسياق تحذيري، كأن توضع راية «سوداء» على شاطئ البحر، يصبح لهذا السياق تأثير على تغير دلالة الكلمة من مجرد أنها «لون» إلى «تحذير» من نزول البحر. ولذلك يجب على من يريد التعامل مع «التنزيل الحكيم» أن يكون على دراية بعلوم اللغة العربية التي حفظت «اللسان العربي» الذي نزل به القرآن، وعلى دراية بـ «علم السياق القرآني»، ذلك أن «دلالة اللفظ» في كل موضع بحسب سياقه.

ولما كان «علم السياق» تؤلف فيه المجلدات، سأكتفي بضرب بعض الأمثلة لإلقاء الضوء عليه.

(أ): يقول الله تعالى «الأعراف / ١٦٣»:

«وَاسْأَلْهُمْ عَنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ»

فالمعنى الظاهر من سياق هذه الجملة أن «الْقَرْيَةِ» كانت «حَاضِرَةَ الْبَحْرِ» وهذا أمر مستحيل تحققه، إذن فاستخدام كلمة «القرية» هنا استخدام «مجازي» نفهم حقيقته من الجملة التي بعدها وهي:

«إذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ»

والمراد بـ «يَعْدُونَ» هم أهل القرية، ليكون المعنى الحقيقي «وليس المجازي»:

«وَاسْأَلْهُمْ عَنْ أهل الْقَرْيَةِ»

(ب): يقول الله تعالى مخاطبا الأزواج «البقرة / ٢٣١»:

«وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء – فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ – فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ – أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ»

إن كلمة البلوغ لفظ مشترك يطلق في اللغة على المقاربة وعلى الانتهاء إلى الشيء، نفهم أن المقصود بـ «فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ» مشارفة بلوغ الأجل، أي قرب انتهاء العدة، بقرينة تخيير الزوج بين إطلاق سراح زوجه أو إمساكها، دون حاجة إلى عقد نكاح جديد.

فإذا ذهبنا إلى الآية التالية «البقرة / ٢٣٢» نجدها تخاطب الأولياء:

«وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء – فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ – فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ...»

ونفهم من السياق أن المقصود بـ «فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ» انتهاء العدة، بقرينة أمر الأولياء بعدم منع المرأة أن تنكح مطلقها بعقد جديد إذا رغب الطرفان العودة.

(ج): يقول الله تعالى «البقرة / ١٠٦»:

«مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»

إن هذه الآية لا علاقة لها مطلقا بعلم «الناسخ والمنسوخ» الذي حمله التراث الديني للفرق والمذاهب العقدية والفقهية المختلفة، ذلك أن كلمة «الآية» في هذا السياق تعني «البرهان» الدال على صدق «نبوة» الرسل.

فإذا تدبرنا سياق الآيات التي قبل وبعد هذه الآية، نجد أن قول الله تعالى «البقرة / ١٠٥»:

«مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ – أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ – وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ – وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ»

فالسياق يتحدث عن ملل الكفر التي كانت تحسد المسلمين على أي خير يأتيهم من ربهم في عصر التنزيل، وفي مقدمة ذلك «الآية القرآنية العقلية» التي حملها كتاب الله الخاتم «القرآن الكريم» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، والقائمة بين الناس إلى يوم الدين.

لقد كانت الآيات الدالة على صدق «نبوة» الرسل السابقين «آيات حسية» تنتهي فعاليتها بوفاة الرسول، فلما جاء الكتاب الخاتم يحمل «آية عقلية» فكان ذلك محل حسد وغضب واستنكار من أهل الكتاب، وخاصة اليهود، ثم عندما يكون الحديث في ختام آية النسخ «البقرة / ١٠٦» عن مقام العلم والقدرة الإلهية، فيقول الله تعالى:

«أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»

ثم يتبعها قوله تعالى «البقرة / ١٠٧»:

«أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ»

فإن ذلك يعني أن الحديث عن دلائل «النبوة» القائمة على فعالية أسماء الله الحسنى في هذا الوجود، ولذلك توجه السياق يخاطب ملل الكفر وليس المسلمين وأحكام شريعتهم.

(د): يقول الله تعالى «الأنفال / ٤١»:

«وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ – فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ – إِنْ كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ – وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»

تكشف سور الأنفال والتوبة والحشر عن خلاف حدث بين صحابة رسول الله حول توزيع الأنفال والفيء، فنزل القرآن يحسم هذا الخلاف، وقد كان للمنافقين موقف من توزيع رسول الله لهذه الأموال، فإذا رأوها توزع على غيرهم، طعنوا ولمزوا:

يقول الله تعالى «التوبة / ٥٨»:

«وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ – فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا – وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ»

ثم تدبر قول الله تعالى بعد ذلك «التوبة / ٥٩»:

«وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ – وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ – إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ»

لنقف على العلاقة بين قول الله تعالى:

«وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»

وبين قول الله تعالى «وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ» في الآية «الحشر / ٧»:

«مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى – فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ – كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ»

«وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ – وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا – وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ»

نلاحظ أنها نفس المصارف التي خصص الله لها خمس الغنائم في آية الأنفال، وأن الله تعالى يأمر صحابة رسول الله بالرضا بما قسمه الله لهم، والتسليم بما أعطاه الرسول، كي لا يتركز المال في أيدي فئة من أغنياء الأمة، دون الالتزام بحق ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وفي سبيل الله.

ثم تعالوا نتدبر سياق الآيات التالية لنعلم حقيقة معنى قول الله تعالى:

«وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»

يقول الله تعالى «الحشر / ٨»:

«لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ – يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَاناً – وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ – أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ»

ثم قوله تعالى «الحشر / ٩»:

«وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ – يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ – وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا – وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ – وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ»

لنقف على العلاقة بين قوله تعالى في «التوبة / ٥٩»:

«وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»

وقوله تعالى «الحشر / ٩»:

«وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا»

ولنعلم أن فعل «الإيتاء» الوارد في قوله تعالى «الحشر / ٧»:

«وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»

يتعلق بالغنائم وبأموال الفيء، التي قام الرسول بتوزيعها على صحابته الذين رضي الله عنهم، ولا علاقة له بـ «المرويات» التي نسبها الرواة إلى رسول الله محمد، عليه السلام، وجعلها المحدثون مصدرًا ثانيًا للتشريع.

فإذا نظرنا إلى قول الله تعالى:

«وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»

بالمنظار العام المتعلق بمهمة «الرسول» الحامل لـ «رسالة ربه»، نفهم أن فعل «آتَاكُمْ» وفعل «نَهَاكُمْ» يخصان كل أمر وكل نهي صدر عن رسول الله لمن عاصروه، هؤلاء الذين كان بإمكانهم الرجوع إليه للتأكد من صحة ما صدر عنه.

(هـ): يقول الله تعالى «البقرة / ١٨٣»:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ – كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ – لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»

عندما نتدبر الآيات التي جاءت تبين أحكام الصيام، والتي تبدأ بالآية السابقة، وتنتهي عند الآية «البقرة / ١٨٧»:

«أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ»

نلاحظ أن الآية «البقرة / ١٨٦»:

«وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي – فَإِنِّي قَرِيبٌ – أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ – فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي – وَلْيُؤْمِنُوا بِي – لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ»

قد دخلت ضمن أحكام الصيام، في الوقت الذي تتحدث عن «حكمة الدعاء»، أي لا علاقة لها بهذه الأحكام، فما الحكمة من وجودها في هذا السياق؟!

إن الحكمة تكمن في أسلوب «الالتفات والتنبيه» الذي يتميز به اللسان العربي الذي نزل به القرآن، والذي يجعلك تقف كما تقف أمام إشارة المرور الحمراء، لتفكر وتتدبر وتبحث عن سبب بيان حكمة الدعاء في سياق أحكام الصيام، لعلك تصل إلى فهم العلاقة الوثيقة بين الإقرار بالوحدانية، وتفعيل هذا الإقرار سلوكًا عمليًا بالإحساس بمعية الله وأنت تقيم أحكام القرآن في حياتك.

فعندما نتدبر سياق الآيات «البقرة / ١٨٣-١٨٧» نجد أن هناك إشارات بيانية يتناغم بعضها مع بعض، مثل الربط بين فعل الأمر وأسلوب التمني في قوله تعالى «البقرة / ١٨٥»:

«وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ - وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ - وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»

وفعل الأمر وأسلوب التمني في قوله تعالى بعدها «البقرة / ١٨٦»:

«فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ»

لنصل إلى أن قول الله تعالى:

«وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي»

منظومة من الأوامر والتوجيهات الإلهية التي يقوم المؤمن بتنفيذها:

«فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي»

على أساس أن «الله أكبر» من كل شيء في هذا الوجود:

«وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ»

(و): نعلم أن الكلمة «اسم وفعل وحرف»، فإذا أخذنا حرف واحد من حروف الهجاء وهو على سبيل المثال حرف «على»، والذي يعني بالمفهوم العام «وضع شيء فوق شيء»، نجد أن هذا المعنى العام يختلف تماما حسب السياق الذي ورد فيه، ومثال ذلك:

قول الله تعالى «مريم / ١١»:

«فَخَرَجَ - عَلَى - قَوْمِهِ مِنْ الْمِحْرَابِ»

قول الله تعالى «التوبة / ١٥»:

«وَيَتُوبُ اللَّهُ - عَلَى - مَنْ يَشَاءُ»

قول الله تعالى «يوسف / ٦٩»:

«وَلَمَّا دَخَلُوا – عَلَى – يُوسُفَ»

قول الله تعالى «الإنسان / ١٩»:

«وَيَطُوفُ – عَلَيْهِمْ – وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ»

قول الله تعالى «القصص / ١٥»:

«وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ – عَلَى – حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا»

قول الله تعالى «البقرة / ١٨٥»:

«وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ – عَلَى – مَا هَدَاكُمْ»

قول الله تعالى «البقرة / ١٧٧»:

«وَآتَى الْمَالَ – عَلَى – حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى»

قول الله تعالى «آل عمران / ١٢٢»:

«وَعَلَى – اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ»

قول الله تعالى «الكهف / ٦٦»:

«هَلْ أَتَّبِعُكَ – عَلَى – أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً»

قول الله تعالى «المائدة / ١٠٥»:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا – عَلَيْكُمْ – أَنفُسَكُمْ»

ويرجع إلى «علم البيان» للوقوف على معاني «حرف على» في السياق القرآني.

(ز): عندما يقول الله تعالى في وصف الكتاب «البقرة / ٢»:

«ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ»

ثم يُبيّن من هم المتقون «البقرة / ٣»:

«الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ – وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ – وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ»

ويستكمل صفات المتقين «البقرة / ٤»:

«وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ – وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ – وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ»

ثم يُبيّن جزاء المتقين «البقرة / ٥»:

«أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»

علينا أن نعلم أن اسم الإشارة «الذين» يشير إلى أنهم كانوا أصلا من «الناس» الذين نزل القرآن لهدايتهم، فقال تعالى «البقرة / ١٨٥»:

«شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ – هُدًى لِّلنَّاسِ – وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ»

وهؤلاء الناس اتقوا الله، وأقروا بأصول الإيمان، والتزموا بأحكام الشريعة، فقال الله تعالى عنهم «البقرة / ٥»:

«أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ – وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»

وفي إطار ما سبق بيانه نفهم قول الله تعالى «فصلت / ٣»:

«كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ – قُرْآناً عَرَبِيّاً»

بمعنى: أن «كتاب الله» هو «القرآن العربي» المفَصّل آياته، وهذا المعنى قد بيّنته الآيتان:

قول الله تعالى «الحجر / ١»:

«الَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ – وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ»

قول الله تعالى «النمل / ١»:

«طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ – وَكِتَابٍ مُّبِينٍ»

نلاحظ أن كلمة «الْكِتَاب» جاءت مرة مُعرّفة في «الحجر / ١»، ومرة نَكِرَة في «النمل / ١» فقال تعالى: «كِتَاب»، وأن كلمة «الْقُرْآن» جاءت مرة نَكِرَة في «الحجر / ١» فقال تعالى «قُرْآن»، ومرة مُعرّفة في «النمل / ١» فقال تعالى «الْقُرْآنِ».

وقد جاء هذا «التنكير» في الحالتين لـ «تفخيم» ما عطف عليه، ليكون المعنى:

«الَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ: آياتَ قُرْآنٍ مُّبِينٍ»

«طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ: آياتَ كِتَابٍ مُّبِينٍ»

ذلك أن العامل المشترك بين الآيتين هو اسم الإشارة المؤنث «تِلْكَ» الذي يُشير إلى «آيات التنزيل الحكيم» التي نزلت مكتوبةً «كتابًا» والمقروءة «قرآنًا».

(ح): تعالوا نتدبر بعض الآيات التي ورد فيها لفظ «القرآن» لنقف على فعالية هداية «القرآن»، وهل هي هداية جزء من «التنزيل الحكيم» أم هداية كل «التنزيل الحكيم»؟!

يقول الله تعالى «النساء / ٨٢»:

«أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ – وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ – لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً»

فهل المقصود تدبر «الآيات المتشابهات»، أي «آيات النبوة» فقط، لأن باقي الآيات ليست من عند الله؟!

يقول الله تعالى «يونس / ١٥»:

«وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ – قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا – ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ»

فهل «الآيات المتشابهات» التي مجالها الآفاق والأنفس، كما يدعي د. شحرور، هي «الآيَات البَيِّنَات» التي رفضها الكافرون وطلبوا غيرها، أم كان رفضهم لـ «الآيات المحكمات» التي تحمل أحكام كفرهم ومصيرهم في الآخرة؟!

يقول الله تعالى «يونس / ٣٧»:

«وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللهِ – وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ – وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ»

فهل معنى هذا أن غير «القرآن»، أي غير «الآيات المتشابهات»، آيات مفتراة على الله تعالى؟!

يقول الله تعالى «يوسف / ١-٢»:

«الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ – إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»

إن الضمير في «أَنزَلْنَاهُ» يعود على «الْكِتَاب الْمُبِين»، أي أن «الْكِتَاب الْمُبِين» نزل «قُرْآنًا عَرَبِيًّا»، فكيف يكون الكتاب «مُبينًا» وهو «آيات متشابهات» لا يتبعها إلا الذين في قلوبهم زيغ؟!

وغير ذلك من الآيات الكثير.

(ط): وتعالوا نتدبر فعالية لفظ «القرآن» في السياق القرآني ونأخذ «سورة الإسراء» كمثال:

«الآية ٩»:

«إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ – وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً»

فهل هداية القرآن في «الآيات المتشابهات» فقط، دون الالتزام بالأحكام التي حملتها «الآيات المحكمات»؟!

«الآية ٤١»:

«وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً»

فهل هذا التصريف كان يتعلق بـ «الآيات المتشابهات» فقط، ومعلوم أن «النفور» لا يكون إلا من أحكام الشريعة، وليس من آيات الآفاق والأنفس؟!

«الآية ٤٥»:

«وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً»

فهل كانت مشكلة «الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ» مع «الآيات المتشابهات» أم مع «الآيات المحكمات» التي نزلت تكفرهم وتدخلهم جهنم؟!

«الآية ٤٦»:

«وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً»

فهل الأمر بذكر الله لم يرد إلا في «الآيات المتشابهات» فقط؟!

«الآية ٦٠»:

«وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً»

فهل ذُكرت «الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ» في كتاب مستقل عن المصحف اسمه «القرآن»، أم ذكرت في سياق سوره؟!

«الآية ٧٨»:

«أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً»

فهل «قُرْآنَ الْفَجْرِ»، الذي «كَانَ مَشْهُوداً»، هو «الآيات المتشابهات» فقط؟!

«الآية ٨٢»:

«وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً»

فهل الذي كان «لاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً» هو «الآيات المتشابهات» التي لا علاقة لها بأحكام الشريعة؟!

«الآية ٨٨»:

«قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ – عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ – لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ – وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً»

وتأتي هذه الآية لتسقط ما ذهب إليه بعض الملحدين من التفريق بين الكتاب والقرآن ذلك أن المقصود بـ «القرآن» هو سور «التنزيل الحكيم» كلها، لقوله تعالى «البقرة / ٢٣»:

«وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا – فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ – وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ – إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»

«الآية ٨٩»:

«وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ – فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً»

فهل كان كفر الناس بأمثال القرآن يتعلق بـ «الآيات المتشابهات» فقط؟!

«الآيتان ١٠٥– ١٠٦»:

«وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ – وَبِالْحَقِّ نَزَلَ – وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً – وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ – وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً»

فهل «الحق» المنزل المشار إليه بـ «القرآن»، غير «الكتاب» الذي بدأت به سورة البقرة:

«ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ»؟!

(ي): والآن تعالوا إلى مثال نفهم منه كيفية التعامل مع السياق القرآني في وحدته الموضوعية، التي تنقل لنا صورًا مما يجب أن تكون عليه حياة المؤمنين الذين أسلموا وجوههم لله تعالى، من خلال الآيات «آل عمران / ١٩٠–٢٠٠»:

«الآية ١٩٠»:

«إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ»

إن من أدوات التعامل مع القرآن الخمس، منظومة آيات الآفاق والأنفس، باعتبارها «المقابل الكوني» الذي يستحيل فهم القرآن بمعزل عن صورته الذهنية «مسميات كلمات القرآن» المطبوعة في قلوب الناس، من قبل نزول القرآن.

هذا «المقابل الكوني» الذي يحمل دلائل الوحدانية، التي بدون الإقرار بها، لن يقبل الله من أحد إيمان ولا إسلام، ولكنها آيات ودلائل «لأُوْلِي الأَلْبَابِ»، لأنهم وحدهم الذين يملكون قلوبًا تعلم كيف تصل المقدمات بالنتائج، كقلب إبراهيم، عليه السلام، الذي بعد أن دَرَسَ ونَظَرَ وفَكّر قال:

«إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً – وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»

ولكن، هناك بيان من الله تعالى بتحديد من هم «أوْلوا الأَلْبَابِ» الذين ورد ذكرهم في السياق القرآني:

«الآية ١٩١»:

«الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ – وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ – رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ – فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»

إن الذي يقرأ القرآن بدون تدبر بلاغة لغته العربية، وبدون تعقل سياقات آياته المحكمة، وبدون التفكر في «المقابل الكوني» لآياته المفترض أن تكون الصور الذهنية لكلماتها مطبوعة في قلبه، لن يفهم العلاقة بين:

«خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»

وبين ذكر الله «قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ»

ليصل إلى قمة هرم الوحدانية والعبودية الخالصة:

«رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ»

وهو في هذا المقام «خائف» من عذاب النار:

«فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»

إنها من «الفرائض الغائبة» عن حياة المسلمين، فقد طغت دنياهم على دينهم، وحكمت شهواتهم قلوبهم، فقد تمر السنوات ولا يجلس أحد منهم جلسة تفكر في هذه المنظومة الكونية، جلسة تفكر يعيشه قلب المسلم، ويسمعه وهو ينطق ويقول:

«سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ»؟!

ويُصلي المسلمون الصلوات الخمس، وهم لا يعلمون أن النداء إلى كل صلاة يكون عند ظهور آية كونية يجب التفاعل معها، وإن أقل ما يجب على المسلم من هذا التفاعل، أن يردد كلمات النداء.

فكم عدد المسلمين الذين يشعرون بخشوع القلب عند النداء إلى كل الصلاة، وهم يخافون ألا يتقبل الله صلاتهم وشعائرهم التعبدية، فيقولون:

«الآية ١٩٢»:

«رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ – وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ»

إن قضية «أُوْلِي الأَلْبَاب» ليست الخوف من النار، وإنما الخوف من «الخزي» الذي يصيب أهلها، فتدبر!!

والسؤال:

هل «أوْلوا الألْبَاب»، في السياق القرآني، هم الكافرون والمشركون والمنافقون الذين كفروا بـ «نبوة» رسول الله محمد ولم يؤمنوا برسالته، ويدّعون أنهم سيدخلون الجنة رغم أنف «نبوة» محمد.

أم هم الذين وصفهم الله تعالى بما سبق، هؤلاء الذين يقولون:

«الآية ١٩٣»:

«رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا – رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا – وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا – وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ»؟!

إنهم مُقِرّوُن مُصَدّقُون، «أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا»، ولكن ما يشغل بالهم، هو الخوف من التقصير في طاعة الله، وتغلب شهوات النفس «وما أكثرها بين المسلمين»، واتخاذ الهوى إلهًا «وهو واقع تفرق المسلمين في الدين».

أما «أوْلوا الألْبَاب» فتراهم دومًا في حالة توبة وطلب للمغفرة، يدعون ربهم أن يتوفاهم مع الأبرار، ولا يخزهم يوم القيامة:

«الآية ١٩٤»:

«رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ – وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ – إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ»

ولقد وعد الله تعالى «الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»:

«لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأرْضِ ... وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ – وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً»

و«أوْلوا الألْبَاب» يقولون لله تعالى:

«رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ»

فلماذا إذن لم يوف الله تعالى بوعده السابق؟!

لأن «الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» لم يحققوا هذا الشرط:

«يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً – وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ – فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ»

ولذلك، بيّن الله بعدها أسباب قبول دعاء «أوْلِي الألْبَاب»، وشروط قبول «عملهم الصالح»:

«الآية ١٩٥»:

«فَاسْتَجَابَ لَهُمْ – أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم:

– مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى

– بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ

«العمل الصالح» الذي ينطلق من قاعدة ما سبق بيانه.

«العمل الصالح» الذي لا ينفصل عن «أحكام القرآن»، ومنها:

- فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ
- وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ
- لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
- وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ
- ثَوَاباً مِّن عِندِ اللهِ - وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ»

والسؤال:

هل «الَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ ... وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ ...» حدث ذلك من أجل زينة الدنيا وشهواتها، أم من أجل «دين الإسلام»؟!

والجواب:

حدث ذلك من أجل «دين الإسلام»، ولذلك كان جزاؤهم «الجنة»:

«وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ»

إن هناك شروطًا لدخول «الجنة»، يستحيل أن تنطبق على الذين كفروا بـ «نبوة» رسول الله محمد ولم يتبعوا رسالته ... يستحيل ... يستحيل ... ولذلك قال الله مخاطبا «الذين آمنوا»، وفي مقدمتهم رسول الله محمد:

«الآية ١٩٦»:

«لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ»

«الآية ١٩٧»:

«مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ»

والسؤال:

من هم «الَّذِينَ كَفَرُواْ»، هؤلاء الذين تركهم الله تعالى يستمتعون بدنياهم، ثم مصيرهم في جهنم؟!

فإذا ذهبنا إلى مصير «الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ» نجد الله تعالى يقول:

«الآية ١٩٨»:

«لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ – لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ – خَالِدِينَ فِيهَا – نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللهِ – وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ»

ويعلم الله تعالى، بعلمه الأزلي، أن «مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» من سيخرجون من دائرة «الكفر» إلى دائرة «الإيمان»، ويُقِرّون بصدق ما أنزله الله على رسول الله محمد، لا يُفرّقون «بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ»، و«لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً».

فأشار الله إليهم في هذا السياق، ليعلم «أَهْلِ الْكِتَابِ» أن منهم من آمن وأسلم واتبع رسول الله محمد:

«الآية ١٩٩»:

«وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ:

– لَمَن يُؤْمِنُ بِاللهِ

– وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ

– وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ

– خَاشِعِينَ لِلّهِ – لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً

– أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ – إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ»

هؤلاء الذين أشار الله إليهم في أكثر من موضع، فيقول تعالى:

«لَيْسُواْ سَوَاء – مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ – يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاء اللَّيْلِ – وَهُمْ يَسْجُدُونَ»

ويقول الله تعالى:

«وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ – وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ – لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم:

– مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ

– وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ»

ثم يختم الله تعالى سورة آل عمران بقوله تعالى:

«الآية ٢٠٠»:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»

– و«الصبر»: أن تمنع النفس من أن يتحكم فيها الهوى والشهوة، أن تتعود على طاعة الله وتحمل ما يُصيبها من مصائب.

- و«المصابرة»: مفاعلة من الصبر، فلا ينفد صبر المؤمن خلال رحلة الصبر.

- و«المرابطة»: هي الثبات والتمسك بالمكان الذي يحارب منه المؤمن المعتدي.

- و«تقوى الله»: هي التي تضبط فعاليات كل ما سبق على أرض الواقع، فهي كالحارس اليقظ الذي يُنبه عند وجود خطر.

وتذكر: أني أتحدث عن «ما يجب أن يكون»، أما «ما هو كائن» فإن الله تعالى يقول «الإسراء / ١٣-١٤»:

«وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ - وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً - اقْرَأْ كِتَابَكَ - كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً»

(ك): يقول الله تعالى «الأعراف / ٣١»:

«يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ»

يقولون إن هذه الآية دليل على أن «المسجد» ليس هو مكان العبادة الذي عرفه المسلمون، لأن الخطاب لـ «بني آدم» جميعًا وليس للمسلمين فقط.

أقول:

وهنا تظهر أهمية، بل وجوب، أن يكون دارس القرآن على دراية بعلم «السياق القرآني» وبعلم «البيان»، فهناك ما يُسمى بالتعبير عن الكل بالجزء، وبالجزء عن الكل:

يقول الله تعالى «البقرة / ١٩»:

«يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ - فِي آذَانِهِمْ - مِنْ الصَّوَاعِقِ - حَذَرَ الْمَوْتِ»

ومعلوم أن المقصود جزء من الأصابع «الأنامل» وليس كل الأصابع.

فعندما يقول الله تعالى:

«يَا بَنِي آدَمَ - خُذُوا زِينَتَكُمْ - عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ»

فهنا يخاطب «الذين آمنوا» باعتبارهم من «بنى آدم» يُذكرهم بأصلهم، فإذا تدبرنا سياق الآية من أوله نجد أن الله تعالى يخاطب «بني آدم»:

«يَا بَنى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً ... يَا بَنى آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ ... وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا ...»، ثم تحول الخطاب لـ «الذين آمنوا» فقال الله تعالى:

«قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ - وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ... فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمْ الضَّلالَةُ ... يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ»

ويقول الله تعالى «طه / ١٤»:

«فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي»

يقولون إن هذه الآية جاءت بـ «معنى الصلاة» وتعنى أن يذكر العبد ربّه بما يُفتح الله به عليه، فأين نجد معنى كلمة «الصلاة» في هذه الجملة القرآنية؟!

إن «اللاّم» التى وردت في «لِذِكْرِي» لام التّعليل، أي أقم «الصلاة»، التى «تعلم أصلًا معناها» من خارج القرآن، لـ «أجل أن تذْكُرني».

فهؤلاء الذين يقولون إن التنزيل الحكيم جاء «ببيان وتفصيل كل شيء» ويستدلون بهذه الآيات:

«النحل / ٨٩»:

«تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ»

«الإسراء / ١٢»:

«وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً»

«الأنعام / ٣٨»:

«مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ»

نقول لهم:

وأين في القرآن بيان وتفصيل معنى كل كلمة من كلمات هذه الآيات التي تستدلون بها؟!

«فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ – وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»

٤– آليات عمل القلب:

لقد لفت نظري، أثناء دراستي لآيات الذكر الحكيم، عدم وجود عضو مادي من أعضاء جسم الإنسان اسمه «العقل»، وعندما قمت بالبحث عن هذا «العقل» في كتب المفسرين والفلاسفة، لم أجد أحدًا ذكر أين يوجد هذا «العقل» الذي يستخدمونه في كلامهم، ومن الذي اكتشف وجوده، في الوقت الذي أشار القرآن إلى أشياء موجودة في جسم الإنسان وبيّن أنها هي المسؤولة عن تفكيره وتعقله للأمور وعن حسابه في الآخرة، ومنها النفس والقلب والفؤاد:

فعن النفس يقول الله تعالى «الشمس / ٧–١٠»:

«وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا – فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا – قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا – وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا»

فأين توجد هذه «النفس» في جسم الإنسان؟!

وعن القلب يقول الله تعالى «الشعراء / ٨٨-٨٩»:

«يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ - إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»

فأين يوجد هذا «القلب» في جسم الإنسان؟!

وعن الفؤاد يقول الله تعالى «المؤمنون / ٧٨»:

«وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ - قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ»

فأين يوجد هذا «الفؤاد» في جسم الإنسان؟!

وبصرف النظر عن التعريفات المختلفة التي خرج بها أهل اللغة والمفسرون والفلاسفة حول هذه المصطلحات الثلاثة، فإنهم إلى يومنا هذا لم يجيبوا على هذا السؤال:

أين نجد هذه الأشياء الثلاثة في جسم الإنسان؟!

(أ): من الآيات التي بيّنت بالدلالة القطعية أن «القلب المعنوي» هو المسؤول عن «آلية التعقل» و«آلية التفقه» التي تساعد الإنسان على اتخاذ قراره، قول الله تعالى «الحج / ٤٦»:

«أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ - فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا - أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا - فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ - وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ»

وقول الله تعالى «الأعراف / ١٧٩»:

«وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ - لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا - وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا - وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا - أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ - بَلْ هُمْ أَضَلُّ - أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ»

وبين آلية التعقل «قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا» وآلية التفقه «قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا» آليات كثيرة منها:

«أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ - أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ - أَفَلاَ يَنظُرُونَ - لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»

وبناء على تدبر هذه الآليات في سياقاتها نعلم وجود علاقة بينها وبين وسائل الإدراك «ومنها الفؤاد» عن طريق منظومة «الجهاز العصبي» المتصل بجميع خلايا الجسم.

يقول الله تعالى «النحل / ٧٨»:

«وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ - لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا - وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ - وَالْأَبْصَارَ - وَالْأَفْئِدَةَ - لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»

ويقول الله تعالى «القصص / ١٠»:

«وَأَصْبَحَ - فُؤَادُ - أُمِّ مُوسَى فَارِغاً - إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ - لَوْلاَ أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا - لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»

وسيحاسب الإنسان يوم القيامة عن كيفية تفعيل لـ «آليات عمل القلب» وتفاعلها مع «وسائل الإدراك»، يقول الله تعالى «الإسراء / ٣٦»:

«وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ – إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ – كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً»

و«القفو»: الاتباع: أي لا تتبع ما لا علم لك به، من قول أو فعل، لأنك مسؤول عن هذا الاتباع يوم القيامة.

(ب): إن الذين ابتدعوا بدعة «العقل» كجوهر مادي مثله مثل العالم المادي، هؤلاء ضَلّوا وأَضَلّوا، ذلك أن القرار الذي يتخذه الإنسان لا يحدث نتيجة عمل آلية واحدة من «آليات عمل القلب» وإنما يحدث، كما يُفهم من السياق القرآني، نتيجة تفاعل أكثر من آلية في وقت واحد.

إن القلب الذي يعقل، هو ذات القلب الذي يُفكر، والذي يتدبر، والذي يفقه، والذي يقسو، والذي يرتاب، وكل هذا ينطلق من مستودع العلوم والمعارف والثقافات الذي يحمله القلب، وإلا كيف يعقل أو يفقه القلب شيئًا لا يعلمه؟!

ولذلك فإن ميزان الحساب في الآخرة يقوم على مدى تفعيل الإنسان لآليات عمل قلبه، فالقلب الذي نشأ في بيئة إيمانية تعمل الصالحات تثمر آليات عمله ثمارًا صالحة في مجتمعه، وهذا هو القلب السليم الذي قال الله تعالى عنه «الشعراء / ٨٨–٨٩»:

«يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ – إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»

وتدبر عمل «آلية التعقل» في القلب السليم، فيقول الله تعالى «البقرة / ٤٤»:

«أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ – وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ – أَفَلا تَعْقِلُونَ»

وأن «آلية التعقل» تفرض على القلب السليم تعلم لغة القرآن العربية:

يقول الله تعالى «الزخرف / ١–٣»:

«حم – وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ – إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً – لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»

(ج): ولم تنفصل «آلية التعقل» في عملها عن «آلية التفكر» للتوصل إلى حقائق الأشياء والرد على الشبهات التي كانت مثارة في عصر التنزيل:

يقول الله تعالى «النحل / ٤٣–٤٤»:

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ – فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ – بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ – وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ – لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ – وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»

إن القضية التي كانت محل خلاف، واحتاجت إلى تفعيل آليتي التفكر والتعقل، تتعلق بالرد على السؤال: هل كان الله تعالى يرسل الرسل على هيئة ملائكة أم على هيئة بشر؟!

وهذا ما جاءت «الآية ٣٩» من نفس السورة تبينه، فقال الله تعالى:

«لِيُبَيِّنَ لَهُمْ – الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ – وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا – أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ»

وهذا ما جاءت «الآية ٦٤» من نفس السورة تبينه، وقوله تعالى:

«وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ – إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمْ – الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ – وَهُدًى وَرَحْمَةً – لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»

وهنا يجب أن نقف وقفة تدبر للجملة القرآنية التي وردت في الآية «النحل / ٤٤» وهي قوله تعالى:

«وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ – لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ – مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ – وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»

فنلاحظ أن هذه الجملة لا علاقة لها مطلقا بمصدر تشريعي أنزله الله ليبين للمسلمين ويُفسر لهم آيات الذكر الحكيم، وذلك لأن:

الخطاب في الآيات «٣٩، ٤٤، ٦٤» للكافرين بنبوة رسول الله محمد، ليس للمؤمنين، بقرينة جملة «مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ»، أي ما نُزّل إلى أهل الكتب السابقة لإثبات بطلان ادعاءاتهم.

اسم الموصول «مَا»، وصلته «نُزِّلَ»، غير «الذكر» المنزل، المتقدم في قول الله تعالى:

«وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ»

إذ لو كانا شيئا واحدا لاقتضى ظاهر السياق أن يكون «لتبينه للناس»، وليس «لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ»، الذين هم أهل الكتب السابقة، «مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ».

(د): ولم تنفصل «آلية التعقل» عن «آلية التفكر» عن «آلية التدبر» للكشف عن حقائق الأمور والنظر إلى عواقبها، فيقول الله تعالى «النساء / ٨٢»:

«أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ – وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ – لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً»

ويقول الله تعالى مخاطبًا المنافقين «محمد / ٢٤»:

«أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ – أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا»

ونلاحظ أن ذكر أقفال القلوب في سياق دعوة المنافقين إلى تدبر القرآن، يُبيّن أن فتح هذه الأقفال يستحيل أن يحدث بمعزل عن تفعيل «آليات عمل القلب» مجتمعة، الأمر الذي لا يقدر عليه إلا «أولوا الألباب» كما أفاد قول الله تعالى «ص / ٢٩»:

«كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ – لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ – وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ»

إن «أولي الألباب» ليسوا هم الذين تدبروا آيات الكتاب وإنما الذين قاموا أيضا بالانتفاع بكل ما درسوه وفهموه من الكتاب، ولم يغفلوا عن تذكره وهم يتحركون في مجالات الحياة المختلفة، وكان تذكرهم له عونًا لهم على تغيير ما بأنفسهم إلى الأفضل، تفعيلا لسُنّة الله في التغيير:

يقول الله تعالى «الأنفال / ٥٣»:

«ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ – حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ – وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»

ويقول الله تعالى «الرعد / ١١»:

«لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ – يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ – إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ – حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ – وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً – فَلاَ مَرَدَّ لَهُ – وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ»

وهل أرسل الله تعالى الرسل إلى الناس إلا لتغيير واقع حياتهم إلى الأفضل عن طريق تفعيل «آليات عمل القلب»؟!

وهل يمكن أن يخرج المسلمون الناس من الظلمات إلى النور من غير تفعيل «آليات عمل القلب»، لقول الله تعالى «إبراهيم / ١»:

«الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ – لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ – بِإِذْنِ رَبِّهِمْ – إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ»؟!

لقد خلق الله القلب «المعنوي» بآليات تعمل من أجل سعادة الناس في الدنيا والآخرة، وأمر المسلمين أن يكونوا مبدعين لا مبتدعين، متقدمين لا متخلفين، فاختاروا أن يكونوا مقلدين منقادين، تخلت قلوبهم عن مهمتها في الشهادة على الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

٥- آيات الآفاق والأنفس:

إن تفعيل «آليات عمل القلب»، للوقوف على دلائل الوحدانية التي حملتها «آيات الآفاق والأنفس» مسألة أقر بها بنو آدم، ويقرون بها إلى يوم الدين:

يقول الله تعالى «الأعراف / ١٧٢-١٧٤»:

«وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ – وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ – أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ – قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا – أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ»

«أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ – وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ – أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ»

«وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»

وعليه، فإن الإنسان «يولد» وهو يشهد أنه لا إله إلا الله «قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا»، شهادة الفطرة الإيمانية التي لا تفارق قلبه حتى الوفاة، ثم إما أن تنمي «البيئة» هذه الفطرة وتقوم بتفعيلها في حياته، أو تغض الطرف عنها وتحجبها عن حياته وهؤلاء لن يقبل الله تعالى منهم:

العذر بالغفلة:

«أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ – إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ»

عذر الآبائية:

«أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ – وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ»

ويكون مصيرهم جهنم:

«أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ»؟!

ثم يفتح الله تعالى باب التوبة للناس جميعًا ويقول لهم:

«وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ – وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»

إن تفاعل «آليات عمل القلب» مع دلائل الوحدانية في الآفاق والأنفس «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» مع إقرار بني آدم بالربوبية «قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا» هو «حجة الله» على الناس جميعًا إلى يوم الدين.

(أ): إن تفعيل «آليات عمل القلب»، للوقوف على دلائل الوحدانية التي حملتها «آيات الآفاق والأنفس» هو الطريق الوحيد الذي يصل بالإنسان إلى الإقرار بـ «الوحدانية» وبصدق «النبوات»، وإلى الوقوف على حكمة إرسال الرسل.

وجعل الله تعالى الكون كله آيات دالة على الوحدانية، فإن حَجَبَت البيئة الفطرة الإيمانية ولم تقم بتفعيلها فإن على «آليات عمل القلب» أن تقوم بعملها وتتفاعل مع آيات الآفاق والأنفس، حتى لا يكون للإنسان عذر يوم القيامة بـ «الغفلة» أو بـ «الآبائية»، وهذا ما أفاده قوله تعالى «فصلت / ٥٣»:

«سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا – فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ – حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ – أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»

(ب): إن تفاعل «آليات عمل القلب» مع «آيات الآفاق والأنفس» هو خير برهان على أن «القرآن الكريم» هو «الآية الإلهية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، والقائمة بين الناس إلى يوم الدين، وهذا ما أفاده ضمير «أَنَّهُ» العائد إلى القرآن، في قول الله تعالى:

«حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ».

ثم تعالوا نتدبر موقع هذا الضمير، عند الحديث أيضا عن «آيات الآفاق والأنفس»، في قول الله تعالى «الذاريات / ٢٠-٢٣»:

«وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ - وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ - وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ - فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالأَرْضِ - إِنَّهُ لَحَقٌّ - مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ»

إن قول الله تعالى:

«حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ»

وقوله تعالى بعد القسم:

«إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ»

يشيران إلى العلاقة الوثيقة بين تفعيل «آليات عمل القلب» للوقوف على دلائل الوحدانية في الآفاق والأنفس، وبين بيان أن «التنزيل الحكيم» الذي نطق به رسول الله محمد، عليه السلام، هو الحق المطلق بقرينة قول الله تعالى:

«أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ - أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ - شَهِيدٌ»

(ج): إن كل كلمة من كلمات القرآن التي تحدثت عن «آيات الآفاق والأنفس» يستحيل فهم معناها، بأي لغة من لغات العالم بما في ذلك اللغة العربية، بمعزل عن «مقابلها الكوني» الموجود خارج القرآن في الآفاق والأنفس، أي بمعزل عن «صورتها الذهنية» المطبوعة في قلب الإنسان.

ولذلك فإن كلمات «التنزيل - الكتاب - القرآن - الفرقان - الذكر - النور ...» وإن كانت تعبر عن آيات الذكر الحكيم، من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، إلا أنها لا تنفصل مطلقًا عن تفاعلها مع «مقابلها الكوني» الموجود خارج القرآن في «الآفاق والأنفس» الذي كان موجودًا قبل أن ينزل القرآن على قلب رسول الله محمد، عليه السلام.

يقول الله تعالى «الأعراف / ١٨٥»:

«أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ - وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ - وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ - فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ»

تدبر العلاقة بين قول الله تعالى:

«أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ»

وقوله تعالى:

«فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ»

وقول الله تعالى «الزمر / ٢٣»:

«اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ – كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ – تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ – ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ – ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ – وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ»

فهل المقصود بـ «حديث الله» وبـ «أَحْسَنَ الْحَدِيثِ»، تفاعل كلمات القرآن مع «مقابلها الكوني» في الآفاق والأنفس، أم من غير هذا التفاعل؟!

إذا كانت حجية «الآية القرآنية العقلية» قد ثبتت لأهل اللسان العربي لأنها نزلت بلسانهم، فكيف تكون حجة عل الناس جميعا؟!

أقول:

إن حجية «الآية القرآنية العقلية» ليست في كلماتها العربية وإنما في تفاعل هذه الكلمات مع «مقابلها الكوني» في الآفاق والأنفس، وهذا التفاعل يعلمه الناس جميعًا، فيكفي أن يبيّن أهل اللسان العربي للإنسان غير العربي «المقابل الكوني» لكل كلمة عربية من كلمات التنزيل الحكيم المتعلقة بـ «دلائل الوحدانية» في الآفاق والأنفس.

ولذلك لم يكن عجز الإنس والجن، أن يأتوا بسورة من مثل سور القرآن، بسبب عدم استطاعتهم صياغة جمل عربية مثل الجمل القرآنية، وإنما بسبب عدم استطاعتهم الإتيان بـ «المقابل الكوني» لكل كلمة من كلمات هذه الجمل القرآنية:

يقول الله تعالى «البقرة / ٢٣»:

«وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا – فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ – وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ»

فإذا تدبرنا السياق الذي وردت فيه هذه الآية نجد أنه يخاطب الناس جميعًا:

يقول الله تعالى «البقرة / ٢١»:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ – اعْبُدُوا رَبَّكُمُ – الَّذِي خَلَقَكُمْ – وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ – لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»

ثم بيّن الله للناس جميعًا جانبًا من دلائل الوحدانية في «الآفاق والأنفس» فقال تعالى «البقرة / ٢٢»:

«الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا – وَالسَّمَاءَ بِنَاءً – وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً – فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ – فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا – وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ»

ثم طلب الله من الشاكين في صدق «نبوة» رسول الله محمد، أن يأتوا بسورة من مثل سور القرآن فقال تعالى «البقرة / ٢٣»:

«وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ – مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا – فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ – وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ – إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ»

ولم يكن المطلوب منهم الإتيان بـ «آيات مقروءة» فقط، وإنما أيضا بـ «المقابل الكوني» لهذه الآيات المقروءة والتي هي «الآيات المنظورة» التي يستحيل أن يأتوا بمثلها لذلك قال الله تعالى لهم «وَلَن تَفْعَلُوا» من قبل أن يبدؤوا أصلًا «البقرة / ٢٤»:

«فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا – وَلَن تَفْعَلُوا – فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ – أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ»

إن قول الله تعالى مخاطبا المكذبين «وَلَن تَفْعَلُوا»، كان يجب أن يدفعهم إلى تكثيف الجهود والاستعانة بـ «الإنس والجن» لـ «يفعلوا» فلماذا «لم يفعلوا»؟!

لأنهم يعلمون أن المطلوب ليس الإتيان بمثل «الجمل القرآنية»، وإنما بمثل «الآيات الكونية» المقابلة لـ «الجمل القرآنية»، فما فائدة أن تحاكي أو تستنسخ نصوصا عربية بلاغية أنزلها الله تعالي، وتعطي ظهرك لـ «مقابلها الكوني» الذي يحمل معنى كلمات هذه «الجمل القرآنية»؟!

(د): إن أقصر سورة من سور القرآن هي سورة الكوثر:

يقول الله تعالى «الكوثر / ١-٣»:

«إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ – فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ – إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ»

فهل استطاع أحد من أهل اللسان العربي، المرتابين المشككين في حفظ الله لكتابه، المتخصصين في فنون البلاغة والمعاني والألفاظ، أن يحاكي هذه الجمل القرآنية الثلاث، ويأتي بمثلها وبمثل «مقابلها الكوني» في الآفاق والأنفس؟!

كيف، والمحاور الرئيسة التي تدور حولها هذه الجمل القرآنية الثلاث هي:

إثبات «الوحدانية»:

في ضمير «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ»، ويقابلها «فاطر / ٣»:

«هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»؟!

إثبات «النبوة»:

في «أَعْطَيْنَاكَ»، ويقابلها «العنكبوت / ٥١»:

«أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ»؟!

إثبات «أحكام القرآن» وربطها بالوحدانية:

في «فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ»، ويقابلها «الأعراف / ٣»:

«اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ»

موقف النبي من أعدائه:

«إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ».

إن «الآيات» هي «البراهين» الدالة على «الوحدانية» وعلى «صدق النبوة» وعلى «حكمة التشريع»، ولقد عجز «الإنس والجن» أن يأتوا بمثل سورها ومقابلها الكوني، والسبب؟!

أن الله تعالى لم يتعهد بحفظ الكتاب، ولا بحفظ القرآن، وإنما تعهد بحفظ «الذكر»، فقال تعالى «الحجر / ٩»:

«إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ – وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»

أي أن الله لم يتعهد بحفظ «المكتوب المقروء»، وإنما تعهد أيضا بحفظ «مقابله الكوني» الذي حملته آيات الآفاق والأنفس، وهذا ما أفاده قول الله تعالى «الكهف / ١٠٩»:

«قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي – لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي – وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا».

إن كلمات الله «المنظورة» التي لا تنفد هي دلائل الوحدانية في «الآفاق والأنفس» والتي يستحيل فصلها عن كلمات الله «المقروءة» التي أنزلها الله على رسوله محمد، عليه السلام، لذلك قال الله تعالى «الكهف / ١١٠»:

«قُلْ – إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ – يُوحَى إِلَيَّ – أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ – فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ – فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا – وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا»

المقال نحو إسلام الرسول

أين «الفقه القرآني» الذي يتفاعل مع «الواقع المعاصر»؟!

سؤال يخطر ببال كل مسلم، يريد أن يُبرر سعادته بـ «ما هو كائن» في حياته، بدعوى أن «ما يجب أن يكون» وفق «أحكام القرآن» يصعب تحققه في الواقع المعاصر اليوم، فعلى سبيل المثال:

كيف يعقد المسلمون عقود النكاح، و٩٩٪ من نسائهم لا يلتزمن بـ «الخمار» و«الجلباب» وهما من أحكام القرآن التي من أصر على مخالفتها دخل جهنم خالدا فيها لقول الله تعالى «آل عمران / ١٣٥»:

«وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»؟!

وإن ٩٩٪ من المقتنعين «نظريا» بـ التوجه «نحو إسلام الرسول» لم يدخلوا في «دين الإسلام» من بابه الصحيح لعلمهم أن هذا الدخول سيفرض عليهم تغيير «ما هو كائن» في حياتهم إلى «ما يجب أن يكون» وفق أحكام القرآن وقول الله تعالى «الرعد / ١١»:

«إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ»

نعم إن الله تعالى لاَ يُغَيِّرُ «ما هو كائن» وفق أهواء الناس، إلى «ما يجب أن يكون» وفق أحكام القرآن، حتى يُغير الناس ما بأنفسهم، وهنا مربط الفرس، فلماذا لم يُغيّر المسلمون ما بأنفسهم ولم يعتصموا بحبل الله جميعًا، وتفرقوا واختلفوا، وأعطوا ظهورهم لقول الله تعالى «آل عمران / ١٠٢-١٠٨» بعد أن حذرهم من العذاب العظيم:

«وَلاَ تَكُونُواْ - كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ - مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ - وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»؟!

والجواب:

لأن المسلمين أطاعوا إبليس، بعد أن أغواهم، وزيّن لهم الباطل، ووعدهم بـ «المهدي المنتظر» وبـ «المسيح الموعود» الذي سينقذهم من نار جهنم، وهو أصلًا يعلم أنهم قد دخلوها معه لقول الله تعالى «الأنعام / ١٥٨»:

«هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ - أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ - أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ»

ثم يقول الله تعالى بعد ذلك بما يثبت أن بدعة «علامات الساعة» بدعة إبليسية، فما قيمة «علامات الساعة» الصغرى أو الكبرى والله تعالى يقول إنها إن ظهرت فلن تُقبل يومها توبة أحد:

«يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ - لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا - لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ - أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً - قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ»

إن أول ما يجب أن يعلمه المسلمون اليوم:

١- أن الله تعالى لن يقبل «إسلامهم الوراثي المذهبي».

٢- أن عليهم إعادة الدخول في «دين الإسلام» من بابه الصحيح باب الإقرار العلمي بصدق «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، عليه السلام.

٣- أن الإقرار بـ «أصول الإيمان» لا قيمة له عند الله تعالى، إذا لم يعمل المؤمن الذي أسلم وجهه لله بـ «مقتضياتها» وعمل بـ «أحكام القرآن» سلوكًا عمليًا في حياته.

إن ما سبق بيانه في الصفحات السابقة، هو القواعد والأصول والفروع التي قام عليها التوجه الديني «نحو إسلام الرسول»، والتي لا يحتاج المؤمن الذي أسلم وجهه لله تعالى إلى غيرها لينجوا في الآخرة إذا قام بتفعيلها سلوكًا عمليًا في حياته.

ولذلك فإن آلاف المقالات التي نشرها التوجه الديني «نحو إسلام الرسول» والتي ستحملها كتب «المقال نحو إسلام الرسول»:

(أ): لن تخرج عما سبق بيانه.

(ب): وإن اختلفت وتنوعت صياغة موضوعاتها.

(ج): وتكررت أفكارها.

(د): لأن لكل مقال موضوعه الخاص به.

الآبائية السلفية

يولد المولود بقلب يحمل آليات التدبر والتفكر والتعقل..، آليات عمل القلب، والتي بها يستطيع الوقوف على دلائل الوحدانية وفعالية أسماء الله الحسنى في هذا الكون، فيؤمن بـ «الوحدانية»، وبصدق «النبوة»، ويخلص العبودية لله تعالى، ويقيم أحكام القرآن سلوكًا عمليًا في حياته.

ولكن الذي نراه على أرض الواقع، أن المولود يولد أسير مذهب الوالدين الديني، يعيش به، ويبلغ النكاح ويكتمل رشده وهو عليه، ويقاتل في سبيل الدفاع عنه، ويموت وهو لم يدخل في «دين الإسلام» من بابه الصحيح.

أولًا:

إن أهل الأرض يعيشون أسرى التدين الوراثي ويموتون عليه، ونادراً ما يقف الإنسان وقفة تأمل يتعرف فيها على حقيقة هذا التدين الذي وجد عليه آباءه، فمع انتهاء فترة طفولته يجد نفسه فاقد الحرية الدينية، يعيش أسير فتنة الآبائية والتقليد الأعمى.

١- فإذا ذهبنا إلى تدين المسلمين الوراثي المذهبي، نجد أمرًا غريبًا وعجيبًا، فمع أنهم لم يدخلوا في «دين الإسلام» من بابه الصحيح، نجد أن من يُفكر منهم أن يخلع ثوب مذهب آبائه يجد «سيف الردة» مسلطًا على رقبته فإذا لم يتب ويرجع عن خروجه قُتل بسيف الردة.

إن هذا «المتهم بالردة» كان يعيش منذ طفولته أسير مذهب آبائهم، مسلوب الإرادة، ليس له من أمر تدينه شيء، فهل يُعقل عندما يبلغ النكاح ويكتمل رشده، ويبدأ في تفعيل آليات عمل

قلبه، آليات التفكر والتعقل والتدبر ...، ويجد أن آباءه قد ضلوا الطريق إلى صراط ربهم المستقيم، ويريد أن يخلع ثوب هذه «الآبائية»، يجد «سيف الردة» في انتظاره.

٢- وإذا كان تدين الآباء سيشفع للأبناء في الآخرة، فما أهمية إرسال الرسل إذا كان الناس جميعا سيدخلون الجنة بغير حساب نتيجة تدينهم الوراثي حيث لا حول لهم ولا قوة؟!

إن إدارة أزمة «التدين الوراثي» تكتب فيها المجلدات، ومحورها الأساس هو:

(أ): «البقرة / ١٧٠»:

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ - قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا - أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ - لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً - وَلاَ يَهْتَدُونَ»

(ب): «المائدة / ١٠٤»:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ - قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا - أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ - لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً - وَلا يَهْتَدُونَ»

(ج): «لقمان / ٢١»:

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ - قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا - أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ»

إنها حقًا «فتنة الآبائية»، وأنها العقبة الكؤود أمام هداية الناس إلى صراط ربهم المستقيم ووقوفهم على حقيقة «تدينهم الوراثي» وموقعه في «دين الإسلام» الذي أمر الله اتباعه، فالآباء قد:

«لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً - لاَ يَهْتَدُونَ - لا يَعْلَمُونَ - الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ»

فهل يعذر الله تعالى الأبناء بغفلة آبائهم واتباعهم دينا لم يأذن به؟!

يقول الله تعالى «الأعراف / ١٧٢-١٧٤»:

«أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ»

«أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ - وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ - أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ»

«وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ - وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»

٣- ومن مصائب «فتنة الآبائية» تقديس الأبناء تراث الآباء الديني بغير علم، هذا التراث الديني الذي ما أنزل الله به من سلطان، وقام على ما حمله الآباء من «سلطة دينية» استقرت في قلوب الأبناء وأصبحت عقبة أمام دعوة الرسل.

(أ): صحيح أن الناس يولدون مُكرهين على اتباع مذاهب آبائهم الدينية، وأن الله تعالى خلق الإنسان مُخيّرًا يأخذ قراره بإرادته وعلى مسئوليته، وأنه لا توجد قوة تستطيع أن تفرض على الإنسان دينًا لا يريد اتباعه، ولكن:

(ب): إن الحد الفاصل بين «الإيمان الوراثي» الذي يتحمل الآباء مسئوليته، و«الإيمان العلمي» القائم على الحجة والبرهان الذي يتحمل الإنسان مسئوليته، هو بلوغ الإنسان النكاح واكتمال رشده، كما أشار إلى ذلك قول الله تعالى في سياق الحديث عن أحكام اليتامى «النساء / ٦»:

«وَابْتَلُوا الْيَتَامَى – حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ – فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً – فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ»

فإذا كانت هذه هي مسئولية المسلم تجاه «اليتيم» فكيف تكون مسئوليته تجاه «الدين» الذي أمر الله باتباعه؟!

ثانيًا:

لقد وقف التغييب العقلي، الذي فرضته «فتنة الآبائية» على الأبناء، عقبة أمام حريتهم في اختيار «الدين الحق»، والله تعالى يقول «البقرة / ٢٥٦»:

«لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ – قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ – فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ – فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ – لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»

١– فهل يُعقل، أن يقول الله تعالى:

«قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ»

ثم يجعل مسئولية «التبيّن» في أيدي «أئمة السلف» دون أن يكون لـ «الناس» دور في تحمل هذه المسئولية؟!

ثم كيف يفرق الناس بين دين الطاغوت «فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ»، ودين الله تعالى «وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ» إذا لم يكن قرار تدينهم في أيديهم لا في أيدي «أئمة السلف»؟!

إن التدين «السلفي المذهبي» فتنة لأنه يقوم على تقديس «أئمة السلف» بغير علم، ويجعلهم مصدرًا دينيًا تشريعيًا حاكمًا على الرسالات الإلهية التي أنزلها الله تعالى على رسله، ثم جاء رسول الله محمد، عليه السلام، برسالة الله الخاتمة «القرآن الكريم» التي حملت في ذاتها «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق نبوته والقائمة بين الناس إلى يوم الدين.

٢– ثم ولد المسلمون في بيئات مذهبية بعد أن تفرقوا إلى فرق ومذاهب متخاصمة متقاتلة، وأصبح أبناء كل فرقة يؤمنون أنهم هم «الفرقة الناجية»، وأن آباءهم هم «السلف الصالح»، فاتسعت دائرة التقليد والتعصب المذهبي، وساد الجمود الفكري، ولم يعد للتحقيق العلمي ولا

للحوار الجاد مكان وسط هذه البيئة المذهبية التي تحرصها أزمة التفرق والتخاصم والتكفير بين المسلمين.

وتوقفت مرجعية المسلمين الدينية عند «عصر التدوين» بعد أن دوّن أئمة السلف أمهات كتب العلوم الإسلامية، ومن أخطرها ما يُسمى بـ «علم الحديث» القائم على مدارس علماء الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف المذهبية، والأخطر أن تُسمى «مرويات» رواة الفرق والمذاهب العقدية والفقهية بـ «مرويات السُنّة النبوية» التي دوّنها المحدثون كلٌ حسب مذهبه العقدي والفقهي.

٣- فماذا لو قال الله تعالى لأتباع الفرق والمذاهب الإسلامية يوم القيامة، لقد أنزلت على رسولكم محمد «آية قرآنية عقلية» دالة على صدق نبوته، وتعهدت بحفظ نصوصها إلى يوم الدين، وأمرتكم باتباعها، فلماذا لم تتبعوها؟!

(أ): لماذا افتريتم على الله ورسوله الكذب، وقلتم: إن الله أرسل رسوله بـ «كتاب» و«سُنّة»، ثم هجرتم «الكتاب» واتبعتم «السُنّة»، وجعلتم «الرواية» حاكمة على «الآية» بدعوى أن «الرواية» هي التي حملت «السُنّة النبوية» التي أمرتكم اتباعها؟!

(ب): كيف تؤمنون بأن «مرويات» الرواة التي نسبوها إلى رسولكم محمد، والتي منها ما هو صحيح، وحسن، ومشهور، وضعيف، وموضوع، كلٌ حسب مدرسته في الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف، والتي لم يشهد رسولكم تدوينها في حياته ...، كيف تؤمنون بأنها «السُنّة النبوية» التي أمرتكم اتباعها؟!

إن مما لا شك فيه، أن الله تعالى سيحاسب أتباع الفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة على افترائهم الكذب على الله ورسوله، بعد أن يضع أمامهم قول رسوله محمد لقومه «الفرقان / ٣٠-٣١»:

«وَقَالَ الرَّسُولُ - يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي - اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ - مَهْجُوراً»

«وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنْ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً»

الإسلام إسلام «الآية» لا إسلام «الرواية»

لقد خُتمت «النبوة»، وبدأ عصر تتحمل فيه البشرية مسؤوليتها في التعامل المباشر مع رسالة الله و«آيته القرآنية العقلية» التي حملها كتاب الله الخاتم والدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، والقائمة بين الناس إلى يوم الدين.

ولقد أصبح هناك سبيلان للدخول في «دين الإسلام»:

إما الدخول من الباب الذي دخل منه الناس في عصر التنزيل، وهو باب الإقرار بصدق «الآية القرآنية العقلية»، وهو الباب الحق.

أو الدخول من باب «فتنة الآبائية»، والتدين الوراثي المذهبي، واتباع ما وجد المسلمون عليه آباءهم، وهو الباب الباطل الذي دخل منه أتباع الفرق والمذاهب المختلفة.

باب الدخول الأول:

إن الدخول في «دين الإسلام» من الباب الأول يستلزم أن يكون المرء على دراية بـ «لغة القرآن العربية» التي نزل بها القرآن، يقول الله تعالى «فصلت / ٣»:

«كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»

ولقد سمى الله المسلمين الداخلين من باب «الآية القرآنية العقلية» بـ «الربَّانيِّين»، فقال تعالى «آل عمران / ٧٩»:

«مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ – ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ – وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ – بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ – وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ»

و«الربّانيّون» هم الذين درسوا آيات الكتاب ووقفوا على تفاعلها مع آيات الآفاق والأنفس بالاستعانة بـ كافة العلوم المعاصرة، وذلك وفق منهجية علمية تحمل أدوات لفهم القرآن مستنبطة من ذات النص القرآني.

فهل يعلم المسلمون قبل غيرهم أن القرآن الذي بين أيديهم اليوم «آية إلهية عقلية» هي البرهان الوحيد على صدق «نبوة» رسول الله محمد، عليه السلام، وأنها لا تقل في حجيتها عن «الآيات الحسية» التي أيد الله بها الرسل السابقين، كعصى موسى، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله...، ولولا أن القرآن حفظ خبر هذه «الآيات الحسية» ما كان أتباع الرسل السابقين سيعلمون عن حقيقتها شيئًا؟!

ألم يكن الله تعالى قادرًا أن يجعل آيات هذا القرآن تخرج من المصحف بمجرد تلاوتها، فتكون «آية حسية» يشاهدها الناس؟!

ألم يكن الله تعالى قادرًا أن يجعل آيات هذا القرآن تسبح في الهواء أو تمشي على الماء؟!

أليست «الآيات الحسية» التي يراها الناس بأعينهم تكون أكثر تأثيرًا على قلوبهم وتصديقهم بـ «نبوة» رسول الله محمد، عليه السلام، والإقرار بأن هذا القرآن حقا من عند الله؟!

والسؤال:

فهل يعلم أتباع الفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة لماذا لم تكن الآية الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد «آية حسية» تراها الأعين؟!

والجواب:

لأن مفعول «الآية الحسية» ينتهي بوفاة النبي الحامل لها، ورسول الله محمد سيموت، وقد شاء الله تعالى أن تكون رسالته قائمة بين الناس إلى يوم الدين، فكان لابد أن تحمل هذه الرسالة في ذاتها البرهان على صدق «نبوة» رسول الله محمد، فكان «آية قرآنية عقلية» تراها القلوب بآليات التفكر والتعقل والتدبر والنظر ...، إلى يوم الدين.

ولكن التدين الوراثي جعل المسلمين يتعاملون مع رسالة الله الخاتمة باعتبارها كتابًا إلهيا كـ كتب الرسل السابقين بمعزل عن «الآية القرآنية العقلية» التي يحملها، فانشغلوا بدراسة آياته والبحث في إعجازه العددي ... يقدمون الأبحاث العلمية عن موضوعاته، ويقرؤونه في صلواتهم وفي المناسبات، ويقيمون به التهجد في رمضان ...، دون تفعيل الآية التي يحملها سلوكًا عمليًا في حياتهم.

لقد غاب عن المسلمين أتباع الفرق والمذاهب الإسلامية أن أهل الكتب السابقة ما كانوا ليؤمنوا برسولهم دون برهان يثبت صدق «نبوته» وأنه رسول الله حقًا، فلولا عصا موسى ما آمن أحد بالتوراة، ولولا الآيات الحسية التي أيد الله بها عيسى ما كانوا ليؤمنوا بالإنجيل، ولولا «الآية القرآنية العقلية» ما آمن أحد بالنبي الخاتم محمد في عصر التنزيل.

ومع إيماننا بأن العلوم والمعارف والتقنيات الحديثة ... سلسلة متصلة الحلقات، ومع اعترافنا بأنه لولا «منظومة التواصل المعرفي» ما وصل كل ذلك إلى الناس على مر العصور، فإننا إيماننا الأساس هو أن مجيء كتاب الله الخاتم يحمل «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، هو خير برهان على أن هذا الكتاب حجة الله على الناس جميعًا إلى يوم الدين، وأن هذه الحجة لا تقوم بالدراسات والأبحاث النظرية وإنما بتفعيل آيات الكتاب وأحكامها سلوكًا عمليًا في واقع الحياة.

إن علماء كل عصر، بتخصصاتهم العلمية المختلفة، مصابيح هداية للناس، ينقلون لهم الخبرات والتقنيات العلمية، ولكنهم والناس جميعًا طلاب علم أمام «الآية القرآنية العقلية» فليس في «دين الإسلام» رجال تفسير وحديث وفقه، فكل هذه التخصصات الدينية ظهرت بعد عصر «الخلافة الراشدة» وبعد أن تفرق المسلمون إلى مذاهب عقدية وفقهية متخاصمة متقاتلة.

باب الدخول الثاني:

وهو باب «التدين الوراثي» الذي دخل منه ٩٩٪ من المسلمين أتباع الفرق الإسلامية، ومفتاح هذا الباب مصدران للتشريع: الكتاب والسُنّة:

الكتاب: هو «كتاب الله» الذي حمل آيات الذكر الحكيم، و«الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، عليه السلام.

السُنّة: وهي «كتب المحدثين» التي حملت «المرويات» التي نسبها الرواة إلى رسول الله محمد، بعد قرن من وفاته على أقل تقدير.

ولقد حذر الله تعالى الناس جميعًا في كثير من الآيات من «التدين الوراثي»:

يقول الله تعالى «البقرة / ١٧٠»:

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ – قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا – أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ»

تدبر: «أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ»

ويقول الله تعالى «المائدة / ١٠٤»:

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ – قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا – أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ»

تدبر: «أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ»

ويقول الله تعالى «لقمان / ٢١»:

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ – قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا – أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ»

تدبر: «أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ»

والسؤال:

عندما يخرج المسلمون من بطون أمهاتهم فيجدون هويتهم الدينية المذهبية في انتظارهم وموثقة في شهادة ميلادهم، ويظلون أسرى تدينهم الوراثي المذهبي يقاتلون في سبيله حتى يتوفاهم الله تعالى، فهل درس هؤلاء القرآن وعلموا أن الله تعالى لن يقبل تدينهم الوراثي هذا؟!

والجواب:

يستحيل أن يكون الـ ٩٩٪ من المسلمين أتباع الفرق الإسلامية قد درسوا القرآن وعرفوا أحكامه ووجوب أن يعتصموا بحبل الله جميعًا أمة واحدة، وتحذير الله لهم من التفرق في الدين الذي إن أصروا عليه سيكون مصيرهم مع المنافقين في الدرك الأسفل من النار.

لقد تخلف المسلمون عن ركب التقدم الحضاري بسبب غضب الله تعالى عليهم، فقد أمرهم أن يقيموا الشهادة على الناس وأن يخرجوهم من الظلمات إلى النور فإذا بهم يخرجون من النور إلى الظلمات بعد أن اتخذوا القرآن مهجورا.

لقد سقط الـ ٩٩٪ من المسلمين في دوامة «فتنة الآبائية» ولم يخرجوا منها إلى يومنا هذا، ولم يفكروا يومًا في قول الله تعالى لهم «آل عمران / ١٠٢-١٠٥»:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ»

«وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ ... كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»

«وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ - يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ - وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»

«وَلاَ تَكُونُواْ - كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ - وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»

إن الذي يريد أن يعرف حقيقة الإسلام عليه أن يدخل من الباب الذي دخل منه رسول الله وصحبه الذين رضى الله عنهم، باب الإقرار العلمي بصدق «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد.

إننا لا يمكن أن نحمل للناس الحق والعدل، الهدى والنور، الصلاح والفلاح، التقدم والرقى، ونحن نقدم لهم الإسلام من خلال المرجعيات السلفية، والروايات البشرية، والفهم العشوائي المذهبي لنصوص «الآية القرآنية العقلية».

يقول الله تعالى «الحج / ٤٦»:

«أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ - فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا - أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا - فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ - وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ»

إن طوق نجاة ٩٩٪ من المسلمين من نار جهنم أن يخلعوا ثوب التدين الوراثي وأن يدخلوا في «دين الإسلام» من الباب الصحيح باب الإقرار العلمي بصدق «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، عليه السلام.

لقد جاءت «آية» رسول الله محمد «القرآنية العقلية» غير مرتبطة بشخصه لأنها ستظل قائمة بين الناس إلى يوم الدين، ولذلك عندما طلب الكافرون من رسول الله «الآيات الحسية» كالتي أيد الله بها الرسل السابقين **«العنكبوت / ٥٠»**:

«وَقَالُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ»

أمر الله رسوله محمدًا أن يقول لهم:

«قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ»

ثم قال الله تعالى بعدها مبيّنًا أن «الآية القرآنية العقلية» التي حملها كتابه الخاتم، تكفيهم لأنها احتوت على آيات الرسل «الحسية» وعلى آية رسول الله محمد «العقلية» فقال تعالى «العنكبوت / ٥١»:

«أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ - أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ - إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً - وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»

والسؤال:

أين «القوم» الذين آمنوا وأقروا بصدق «الآية القرآنية العقلية» والتي على أساسها دخلوا في «دين الإسلام» من بابه الصحيح، بعد أن خلعوا ثوب «التراث الديني الجاهلي» لجميع الفرق الإسلامية؟!

حجية القرآن في المقابل الكوني لكلماته

لقد نزل «القرآن» على قلب رسول الله محمد، عليه السلام، وسمّاه الله تعالى «كتابًا» قبل استكمال نزوله، وذلك لبيان أن هذا القرآن سيجمع في كتاب في حياة الرسول ويتوفى الرسول والناس تعلم أول هذا الكتاب وآخره، وعدد سوره وآياته.

يقول الله تعالى «البقرة / ١-٢»:

«الم - ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ - هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ».

ولقد جاء اسم الإشارة «ذلك» في سياقه المحكم، فقد أشار إلى القريب وهو مقدار ما نزل من آيات قبل هذه الآية، وأشار إلى البعيد وهو ما ينزل من الآيات بعد ذلك، بالإضافة إلى بيان علو شأن هذا الكتاب الذي «لَا رَيْبَ فِيهِ» لتعهد الله تعالى بحفظه.

يقول الله تعالى «الحجر / ٩»:

«إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ - وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ».

ولقد جاءت كلمة «الذِّكْرَ» في سياقها المحكم، فلم يقل الله «نَزَّلْنَا الكتاب» ولم يقل «نَزَّلْنَا القرآن» وإنما قال تعالى «نَزَّلْنَا الذِّكْرَ» لبيان أن الحفظ لا يتعلق بـ المصحف الذي يمكن حرقه، كما حدث على أرض الواقع على مر العصور، ولا بحفظ آياته من الخطأ أثناء طباعته، فقد حدث ذلك كثيرا واكتشفت الأخطاء وحرقت المصاحف التي كانت تحمل هذه الأخطاء.

إن تعهد الله تعالى بحفظ الذكر يعني حفظ تفاعل الكلمة القرآنية مع «مقابلها الكوني» الموجود خارجها الذي يُذكر الناس بمعناها، والذي يُطلق عليه «مُسَمَّى الكلمة» ولذلك سمّى الله تعالى

الجملة التي تحمل كلمات القرآن بـ «الآية» لتفاعلها مع آيات الآفاق والأنفس، فكان كتاب الله الخاتم قرآنًا وذكرًا.

يقول الله تعالى «ص / ١»:

«ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ»

ويقول الله تعالى «آل عمران / ٥٨»:

«ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ»

إن الإنسان لا يستطيع الوقوف على حقيقة شيء لم يشاهد مُسمَّاه «مقابله الكوني» من قبل، ولا يمكن أن يتذكر شيئًا لم توجد له صورة ذهنية في قلبه:

ولذلك عندما تقرأ قوله الله تعالى «النمل / ١»:

«طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ – وَكِتَابٍ مُّبِينٍ»

وقول الله تعالى «الحجر / ١»:

«الَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ – وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ»

لا تنسى أن آيات «القرآن المبين» التي هي نفسها آيات «الكتاب المبين» يستحيل فهم كلماتها إلا بـ «الذكر الحكيم»، أي بـ «المقابل الكوني» الموجود خارج الكتاب وخارج القرآن:

يقول الله تعالى «يس / ٦٩»:

«وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ – وَمَا يَنبَغِي لَهُ – إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ – وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ»

و«الآيات» هي العلامات والدلائل و«البراهين» على الوحدانية وصدق النبوة وحكمة التشريع التي يعجز الإنس والجن أن يأتوا بمثلها:

يقول الله تعالى «الإسراء / ٨٨»:

«قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ – عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ – لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ – وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً»

فقد يستطيع من تخصص في دراسة لغة القرآن وأساليبها البيانية أن يكتب كتابًا يحمل جملًا عربية بلاغية تشبه الجمل القرآنية ويقول لقد أتيت بِمِثْلِ «هَـذَا الْقُرْآنِ»، فلماذا لا نصدقه؟!

أولًا:

لأن الله تعالى يقول:

«لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ – وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً»

ثانيًا:

لأن الله هو الذي خلق كل شيء، فيقول تعالى «الفرقان / ٢»:

«وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ – فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً»

ويقول الله تعالى «الإسراء / ٤٤»:

«وَإِن مِّن شَيْءٍ – إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ – وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ»

ثالثًا:

والله تعالى هو الذي أنزل القرآن وتعهد بحفظ تفاعل كلماته مع «مقابلها الكوني»، فالذي يريد أن يأتي «بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ» عليه أن يخلق «المقابل الكوني» قبل أن يؤلف كلماته، ولذلك قال الله تعالى للناس جميعًا «البقرة / ٢٣-٢٤»:

«وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا – فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ – وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ – إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»

«فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ – (وَلَن تَفْعَلُواْ) – فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ – أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ»

فالذي يؤمن بأن هذا القرآن يحمل كلام الله تعالى، يستحيل أن يكذب الله تعالى في قوله:

(أ): «لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ – وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً»

(ب): «فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ – وَلَن تَفْعَلُواْ»

إن قوله تعالى مخاطبًا المكذبين «وَلَن تَفْعَلُوا» كان يجب أن يدفعهم إلى تكثيف الجهود والاستعانة بالإنس والجن «ليفعلوا»، ولكنهم وقفوا عاجزين عن أن يفعلوا بعد أن عرفوا وفهموا أن «المثلية» ليست في الإتيان بمثل «الجمل القرآنية» وإنما بمثل «الآيات القرآنية» والآيات ليست كلمات فقط وإنما تفاعل هذه الكلمات مع «مقابلها الكوني».

فما فائدة أن تحاكي أو تستنسخ نصوصًا قرآنية بلاغية وتعطي ظهرك للمحور الأساس في هذه القضية وهو أن تأتي بـ «المقابل الكوني» للكلمات التي حملتها هذه النصوص، خاصة وأن قوله تعالى: «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ» جاء في سياق بيان دلائل الوحدانية: «فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ» والدلائل ليست كلماتٍ وجملًا وإنما آيات.

وهذا خير برهان على أن تعهد الله تعالى بـ «حفظ الذكر» لا يعني حفظ الآيات المكتوبة «كتابًا» والمقروءة «قرآنا» وإنما حفظ تفاعل كلمات هذه الآيات مع «مقابلها الكوني» في الآفاق والأنفس، وهذا ما نفهمه من قول الله تعالى «الكهف / ١٠٩»:

«قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا»

إن كلمات الله في الآفاق والأنفس هي دلائل الوحدانية القائمة بين ذرات هذا الكون، والتي يستحيل فصل أجزائها عن بعضها، ومنها كلمات الذكر الحكيم التي بعث الله تعالى رسوله محمدا ليبلغها للناس:

يقول الله تعالى «الطلاق / ١٠-١١»:

«... فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا - قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً - رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ - لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ...»

ولذلك فإن قضية إقامة البراهين الدالة على صدق نسبة هذا القرآن إلى الله تعالى ليست خاصة بعصر الرسالة ولا بالعرب، وإنما هي للناس جميعًا إلى يوم الدين.

إذًا فلم يكن المقصود بقوله تعالى: «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ»، أن يأتوا بمثل الجمل القرآنية التي تكونت منها السور، من حيث نظمها وبلاغتها، وإنما أن يأتوا أيضا بالمقابل الكوني لها، ولذلك عقب بقوله تعالى:

«فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ»؟!

إن قوله تعالى مخاطبا المكذبين: «وَلَن تَفْعَلُوا»، كان يجب أن يدفعهم إلى تكثيف الجهود والاستعانة بالإنس والجن «ليفعلوا»، ولكنهم وقفوا عاجزين عن أن يفعلوا شيئا، بعد أن أدركوا أن «المثلية» ليست في الإتيان فقط بمثل «الجمل القرآنية»، وإنما بمثل «الآيات القرآنية»!!

فما فائدة أن تحاكي أو تستنسخ نصوصا بلاغية قرآنية، ثم تعطي ظهرك للمحور الأساس في هذه القضية، وهو المقابل الكوني لها، خاصة وأن قوله تعالى: «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ» جاء في سياق بيان دلائل الوحدانية «فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ» والدلائل آيات وليست كلمات فقط.

فهل يُعقل أن يقول الله تعالى للإنس والجن، على مر العصور وإلى يوم الدين، «وَلَن تَفْعَلُوا»، «لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ»، وهو يعلم سبحانه أن هناك من يستطيع أن يأتي بسورة من مثله ولو كانت «سورة الكوثر» أقصر سور القرآن:

«إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ - فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ - إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ»

إن المحاور الرئيسة التي تدور حولها هذه الجمل القرآنية الثلاث هي:

- إثبات الوحدانية في الضمير «إِنَّا»:

«هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ - يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»؟!

- إثبات صدق النبوة في «أَعْطَيْنَاكَ»:

«أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ»؟!

- إثبات حجية أحكام القرآن وعلاقتها بـ «الوحدانية»:

«فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ»

- بيان التحديات التي كان يواجهها النبي:

«إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ».

وهذه الآيات ليست جملًا قرآنية فقط، وإنما آيات تحمل كلمات لها «مقابلها الكوني» الذي يُذكر الناس بمعناها على مستوى شعوب العالم، والذي هو من خلق الله تعالى وليس من خلق الناس:

يقول الله تعالى للمكذبين «فصلت / ٥٣»:

«سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ - حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ - أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»

إن الضمير في قول الله تعالى:

«حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ»

يعود إلى القرآن، ثم يؤكد الله تعالى على «أَنَّهُ الْحَقُّ» بقوله:

«أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»

وهذا معناه أن هذا القرآن يستحيل أن يأتيه الباطل إلى يوم الدين:

يقول الله تعالى «فصلت / ٤٢»:

«لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ»

لماذا؟! لأنه:

«تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»

إن فتفاعل كلمات القرآن مع «مقابلها الكوني» في الآفاق والأنفس يستحيل أن يخترقه إنس ولا جان، ولذلك عندما طلب المكذبون من رسول الله محمد «آيات حسية» دالة على صدق نبوته «العنكبوت / ٥٠»:

«وَقَالُوا – لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ – قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ – وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ»

نزل القرآن يُبيّن لهم أن «الآيات الحسية» تنتهي فعاليتها بوفاة الرسل، أما «الآية القرآنية العقلية» فحجيتها قائمة بين الناس إلى يوم الدين، فقال تعالى «العنكبوت / ٥١»:

«أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ، أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى، لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»

والسؤال الذي يفرض نفسه في هذا السياق:

كيف تكون «الآية القرآنية العقلية» التي حملها كتاب الله القرآن الكريم، حجة على الناس جميعًا إلى يوم الدين وقد نزلت بـ «لسان عربي مبين»؟!

والجواب:

إن حجية «الآية القرآنية العقلية» في تفاعل كلماتها مع «مقابلها الكوني»، ويستحيل أن يقف أي إنسان على حقيقة هذا التفاعل وهو يجهل لغة القرآن العربية وأساليبها البيانية التي حملتها كلمات هذه «الآية القرآنية العقلية».

إن شعوب العالم تعلم دلائل الوحدانية الموجودة في الآفاق والأنفس، وإن لم تقر بـ «الوحدانية»، ولكنها لا تعلم لغة كلمات القرآن التي تتفاعل معها، فكيف تثبت «أَنَّهُ الْحَقُّ» وهي تجهل لغة كلماته؟!

إن الذي يسافر إلى بلد غير بلده، وإلى شعب لا يتحدث لغته، ليدرس في جامعات هذه البلد أو ليحصل منها على الماجستير أو الدكتوراه، يستحيل أن يحقق ذلك وهو يجهل لغة هذه البلد، أو اللغة المشتركة التي يتعامل الناس بها، كـ «اللغة الإنجليزية» مثلا، فلماذا لا يعتبر الناس «لغة القرآن العربية» هي لغة دخولهم الجنة؟!

يقول الله تعالى «الزمر/ ٢٧-٢٨»:

«وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ – لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»

«قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ – لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ»

والـ «التقوى» مفتاح دخول الجنة:

يقول الله تعالى «الحجر/ ٤٥-٤٦»:

«إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ – ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ»

ويقول الله تعالى «الدخان/ ٥١»:

«إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ – فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ»

القرآن آية إلهية عقلية رغم اختلاف مصاحفه

إن «الإسناد» علم من علوم «الحديث»، يحمل سلسلة الرواة الذين رووا «الأحاديث» المنسوبة إلى رسول الله محمد، عليه السلام، المتصلة السند بالراوي الأول الذي نقل الحديث عن الرسول، وعن طريق هذا السند يستطيع علماء الجرح والتعديل الوقوف على صحة «الحديث» أو ضعفه.

وإن أقصى ما يمكن أن يتوصل إليه «علم الإسناد» هو إثبات صحة نسبة هذه «الأحاديث» إلى رسول الله محمد، وليس إلى الله تعالى، ذلك أن إثبات صحة النسبة إلى الله يقوم على «الآية الإلهية»، فكما حمل كتاب الله «الآية الإلهية» الدالة على أنه من عند الله، يجب أن يحمل كتاب الحديث أيضًا «الآية الإلهية» الدالة على أنها من عند الله تعالى.

إن حجية «دين الإسلام» الذي حمله القرآن لا تثبت بصحة النسبة إلى رسول الله وإنما بصحة النسبة إلى الله تعالى، وهذا ما غاب عن أئمة السلف والخلف، وعن أصحاب القراءات القرآنية التنويرية المعاصرة، الملحدين في آيات الذكر الحكيم.

وعليه، فإن ما نسبه الرواة إلى رسول الله من «قراءات قرآنية» ليس هو الحجة في «دين الإسلام»، ذلك أن الحجة لا تقوم بـ «السنة الروائي» وإنما بـ «الآية الإلهية»، فعندما نسند الكلام إلى الله تعالى نقول: قال الله تعالى ونقرأ الآية مباشرة من المصحف دون إسنادها إلى الرسول الذي بلغ القرآن، فلا نقول قال رسول الله قال الله تعالى.

أولًا:

إن الذي يحتاج إلى «سند» هو الشيء المائل الذي لا يقوم إلا به وإلا وقع، وإذا كان هذا هو حال «الأحاديث» التي نسبها الرواة إلى رسول الله محمد، والتي يستحيل أن يكون لها وجود أصلا إلا بـ «السند الروائي»، فإن كلام الله الذي حمله القرآن يستحيل أن تثبت حجيته بهذا «السند الروائي».

ثانيًا:

فتعالوا نلقي نظرة سريعة على «السند الروائي» الذي قال أئمة السلف أنه هو الذي حمل القرآن وهو الذي حفظ القرآن من التحريف والتبديل، وها هي أمهات كتب «علوم القرآن» أمامكم،

أروني كيف أثبتت، بمذاهبها ومدارسها العقدية المختلفة، أن الجمل المدونة في المصحف اليوم هي كلام الله تعالى:

١- قراءة حفص «ت١٨٠هـ» عن عاصم «ت١٢٧هـ».

٢- قراءة ورش «ت١٩٧هـ» عن نافع بن عبد الرحمن «ت١٦٩هـ».

٣- قراءة قالون «ت٢٢٠هـ» عن نافع بن عبد الرحمن «ت١٦٩هـ».

فإذا درسنا المصاحف التي حملت هذه القراءات، وجدناها كلها تبدأ بسورة الفاتحة وتنتهي بسورة الناس، وأن الاختلاف بين القراءات في كلمات بعض الآيات له توجهه البياني البلاغي كما أثبت ذلك أئمة وفقهاء اللغة العربية.

إن الله تعالى عندما أراد أن يقيم الحجة على المكذبين بـ «نبوة» رسول الله محمد لم يطلب منهم أن يأتوا بآية من آيات القرآن، أو بكلمة من كلماته، أو برسم مختلف للكلمات، أو بإعراب مختلف ... وإنما طلب منهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا أن يأتوا بمثل أصغر سورة من سور القرآن وهي «سورة الكوثر»، فهل اختلفت كلمات «سورة الكوثر» في القراءات كلها؟!

أليس وجود هذه الجملة القرآنية «البقرة / ٢٣»:

«وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ»

بكلماتها، في المصاحف كلها، بقراءاتها المختلفة، دليلًا على أن عجز أهل «اللسان العربي» أن يأتوا بسورة من مثله، قد شمل هذه القراءات كلها، لأنها لم تخرج عن «الذكر» الذي تعهد الله تعالى بحفظه، مع اختلاف بعض كلماته لحكم بلاغية، وفي نفس الوقت لتكون هذه القراءات «فتنة» للذين في قلوبهم مرض الذين يجهلون معنى «الذكر»؟!

لقد أحصى الدكتور محمد الحبشي، في كتابه «الشامل في القراءات المتواترة»، وهي رسالة دكتوراة، الاختلاف بين المصاحف، فقال في المبحث الثالث تحت عنوان: «حصر تفاوت مصاحف الأمصار»:

«ولنأخذ الآن في إحصاء ما ورد من خلاف في الرسم بين المصاحف العثمانية على سبيل الإحاطة المستوعبة»، ثم قال: «سائر الاختلاف في الرسم محصور في ٤٩ كلمة...»، ثم ذكر الآيات التي وردت فيها هذه الكلمات بصورها المختلفة، ويمكن للقارئ الكريم أن يطلع على هذا المبحث، وغيره من عشرات الدراسات، ليقف على ما حملته هذه الاختلافات من توجهات بلاغية.

ثالثًا:

إن «الآية الإلهية» هي البرهان الدال على صدق الله فيما أنزل، وصدق الرسل فيما بلغوا عن الله من رسالات، ولقد كانت الآيات الدالة على صدق الرسل «آيات حسية» لا تقوم حجيتها إلا على من شاهدها، فإذا توفى الرسول انتهت فعالية آيته بوفاته، ثم بعث الله رسوله محمدًا بـ «آية قرآنية عقلية» لا تنتهي فعاليتها بوفاته، وتظل حجيتها قائمة بين الناس إلى يوم الدين، بتفاعل كلماتها مع «مقابل الكوني».

ولذلك أقول:

إن كل المصاحف المتداولة بين أيدي المسلمين اليوم هي «الذكر»، الذي يبدأ بسورة الفاتحة وينتهي بسورة الناس، الذي تعهد الله تعالى بحفظه إلى يوم الدين، والذي يشهد بدلائل الوحدانية وبصدق «نبوة» رسول الله محمد.

رابعًا:

إن الذين يبحثون عن الحكمة من اختلاف المصاحف في بعض كلماتها، نقول لهم:

قد نعلم الحكمة وقد لا نعلمها ويأتي من يعلمها، ثم يأتي من هو أعلم منه، وهذا وجه من الوجوه الدالة على أن هذا القرآن من عند الله يقينا، ذلك أن القضية ليست في اختلاف الكلمات وإنما في تفاعل كل كلمة من هذه الكلمات المختلفة مع «مقابلها الكوني»، وسأضرب بعض الأمثلة:

١- يقول الله تعالى في سورة آل عمران «آل عمران / ١٨٤»:

«فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ - جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ - وَالزُّبُرِ - وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ»

لقد أضيف حرف «الباء» إلى كلمة «البينات» فقط، ولم يضف إلى كلمتي «الزبر» و«الكتاب»، وهكذا كُتبت هذه الآية في جميع المصاحف المتداولة اليوم: بقراءة حفص عن عاصم، وبقراءة ورش وقالون عن نافع.

ولكننا نجد أن قراءة هشام عن ابن عمر قد أضافت حرف «الباء» إلى كلمتي «الزبر» و«الكتاب»، فجاءت الآية هكذا:

«فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ - جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ - وَبالزُّبُرِ - وَبالْكِتَابِ الْمُنِيرِ»

كما نجد أن ابن زكوان قرأها عن ابن عمر بإضافة حرف الباء إلى كلمة «الزبر» فقط، فجاءت الآية هكذا:

«فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ - جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ - وَبالزُّبُرِ - وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ»

فإذا نظرنا إلى جميع المصاحف المتداولة بين المسلمين اليوم، لا نجد فيها إضافة حرف «الباء» إلى كلمتي «الزبر»، و«الكتاب»، إذن فما الحكمة من زيادة حرف «الباء» في القراءات الأخرى؟!

إن الحكمة نجدها في علم «الحذف والإضافة»:

فإذا قلت: مررت «بزيد وعمرو»، يفهم من كلامك أنك مررت بهما في مرور واحد.

أما إذا قلت: مررت «بزيد» و«بعمرو»، بإضافة حرف «الباء» إلى عمرو، يفهم من كلامك أنك قد مررت بهما في مرورين.

إذن، فإضافة حرف «الباء» إلى الكلمة قد أفاد معنى جديدًا إلى السياق، وإلا ما كان لإضافته معنى، وهنا تكمن الحكمة من اختلاف القراءات، فهو ليس اختلاف تضاد وإنما مزيد بيان:

وبرهان ذلك أن جميع المصاحف التي لم تضف حرف «الباء» إلى كلمتي «الزبر» و«الكتاب»، جاءت وأضافته إلى نفس الكلمتين في الآية «فاطر / ٢٥»:

«وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ – جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ – وَبِالزُّبُرِ – وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ»

٢- يقول الله تعالى «الروم / ٩»:

«أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ – فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ – كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ...».

لقد وردت كلمة «مِنْهُمْ» في قول الله تعالى «أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً»، وأيضا في قوله تعالى «فاطر / ٤٤»، و«غافر / ٢١»، إلا أننا نجد ابن عمر قرأ «مِنْكُمْ» في سورة غافر فقط، فهل هناك حكمة في ذلك؟!

نعم، هناك في علم البيان ما يُعرف بتوجيه الضمائر، وبأسلوب الالتفات من الغيبة إلى الحضرة، فإذا أريد توجيه الضمير إلى الغائب استخدمت كلمة «منهم»:

«كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً»

وإذا أريد الالتفات من الغيبة ومخاطبة الحضور استخدمت كلمة «منكم»:

«كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً»

وهذه الأساليب البيانية لها ما يؤيدها من كتاب الله، كقوله تعالى في سورة يونس «الآية ٢٢»:

«هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ»

فنلاحظ أنه بدأ بخاطب الحضور:

«هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ»

يذكرهم بنعم الله عليهم، ثم انتقل إلى الذين كفروا بنعم الله، وتحدث عنهم بضمير الغيبة:

«وَجَرَيْنَ بِهِم»

والذي يؤكد أن ضمير الغيبة يعود إلى الذين كفروا بنعم الله، قول الله تعالى بعدها «الآية ٢٣»:

«فَلَمَّا أَنجَاهُمْ – إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ»

والمؤمنون الشاكرون لا يبغون في الأرض بغير الحق.

٣– يقول الله تعالى «آل عمران / ١٤٦»:

«وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ – فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ – وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا – وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ»

فقرأ قالون وورش عن نافع هذه الآية:

«وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ»

وليس «قَاتَلَ مَعَهُ»، فمن قرأ: «قُتِلَ مَعَهُ» كان قول الله تعالى:

«فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»

مدحا للبقية الذين لم يقتلوا، ومن قرأ: «قَاتَلَ مَعَهُ»، كان قول الله تعالى:

«فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»

مدحا للمقاتلين جميعا، وكان من قُتل منهم داخلا في المدح، فتكون كلمة «قَاتَلَ» أعم.

٤– يقول الله تعالى «البقرة / ١٢٤»

«وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ – قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا – قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي – قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ»

لقد كُتبت كلمة «إِبْرَاهِيمَ» في المصاحف، حسب قراءة ورش وقالون عن نافع، في جميع سور القرآن بحرف الياء «إِبْرَهِيمَ» مع إضافة الألف الصغيرة بعد الراء، وقُرأت كذلك حسب قراءة ابن كثير، وشعبة عن عاصم، وأبي جعفر، ويعقوب الحضرمي.

وكُتبت بغير حرف الياء «إِبْرَهِم» في سورة البقرة بقراءة حفص عن عاصم، ومع ذلك يقرؤها المسلمون «إِبْرَاهِيمَ».

والسؤال:

مع وجود عشرات الدراسات المنشورة على شبكة الإنترنت تجيب عن جميع شبهات المشككين في القراءات القرآنية وفي حفظ الله لـ «الذكر الحكيم»، وتبين الحكمة من اختلاف المصاحف، لم نجد أحدًا من أصحاب قراءة من القراءات يتهم القراءات الأخرى بأنها ليست «الذكر» الذي تعهد الله تعالى بحفظه.

إن الذين وضعوا «القراءات القرآنية» و«الروايات» التي نسبها «الرواة» إلى رسول الله محمد، في ميزان واحد، لإثبات أن الرواة الذين حملوا القرآن على مر العصور هم أنفسهم الذين حملوا «المرويات» المنسوبة إلى رسول الله محمد، أي أن القرآن وصل إلينا بـ «الرواية» عن رسول الله، كما وصلت إلينا «أحاديثه»

إن هؤلاء لم يدخلوا في «دين الإسلام» من بابه الصحيح، باب الإقرار العلمي بصدق «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، عليه السلام.

هل بلغ رسول الله محمد نصًا مدونًا غير القرآن؟!

لا تقوم حُجية «الوحي الإلهي»، الذي دوّنه رسول الله محمد في كتاب، على اجتهادات أئمة السلف ومذاهبهم العقدية والفقهية المختلفة، ومرويات الرواة التي دُوّنت بعد قرن من الزمن من وفاة الرسول، على أقل تقدير، وإنما تقوم على ما يحمله «الرسول» من «آية إلهية» تثبت صدق هذا الوحي وأنه من عند الله.

ولقد حمل كتاب الله الخاتم «الآية القرآنية العقلية» الدالة على أنه من عند الله، وعلى صدق «نبوة» رسوله محمد، عليه السلام، والتي أنزلها الله لتخرج الناس من الظلمات إلى النور:

يقول الله تعالى «إبراهيم / ١»:

«الر – كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ – لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ – بِإِذْنِ رَبِّهِمْ – إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ»

فهل أخرج أئمة السلف والخلف أنفسهم، قبل أن يخرجوا الناس، من ظلمات «الرواية البشرية» إلى نور «الآية القرآنية»؟!

لقد خرج أئمة السلف والخلف من نور «الآية القرآنية» إلى ظلمات «الرواية البشرية» عندما عصوا الله تعالى ولم يعتصموا بحبله، وتفرقوا إلى فرق ومذاهب عقدية وفقهية متخاصمة متقاتلة، مع تحذير الله لهم من شرك التفرق في الدين:

يقول الله تعالى مخاطبا رسوله محمدًا والذين آمنوا معه «الروم / ٣١-٣٢»:

«مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ – وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ – وَلا تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ – مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ – وَكَانُوا شِيَعاً – كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ»

ومع قول الله تعالى لرسوله محمد «الأنعام / ١٥٩»:

«إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً – لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ – إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ – ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ»

إن الله ورسوله بريئان من تفرق المسلمين إلى فرق إسلامية، وجماعات وتنظيمات جهادية، قامت كلها على أساس أن دين الإسلام «كتابٌ» و«سُنّةٌ» وأن هذه «السُنّة» هي مرويات الرواة التي دونها المحدثون في الكتب باسم «الحديث النبوي»، وأن هذا «الحديث النبوي» هو «المصدر الثاني للتشريع» المبيّن والمفسر لـ «آيات الذكر الحكيم».

والسؤال:

من أين جاء أئمة السلف والخلف بهذا «المصدر الثاني للتشريع»؟!

إننا إذا تدبرنا آيات الذكر الحكيم فلن نجد مطلقا آية واحدة تشير إلى أن المسلمين يرثون بعد وفاة النبي مصادر تشريعية ثانية، حسب توجهات أئمتهم العقدية والفقهية، وإنما نجد أن المسلمين يرثون كتابًا واحدًا هو كتاب الله:

يقول الله تعالى «فاطر / ٣١-٣٢»:

«وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ ... ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ – وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ – وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ – ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ»

إن قول الله تعالى «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ» دليل قطعي الثبوت، قطعي الدلالة، على أن الله لم يؤت رسوله محمدًا نصوص مصدر تشريعي غير الكتاب الذي حمل «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوته».

إن قول الله تعالى «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ» دليل قطعي الثبوت قطعي الدلالة، على إن الله لم يأمر رسوله محمدًا، عليه السلام، أن يبلغ الناس نصًا تشريعيًا غير القرآن.

فمن أين جاء أئمة السلف والخلف بأن «دين الإسلام» قد حمله «الكتاب» الذي هو آيات الذكر الحكيم، وحملته «السُنّة» التي هي «المرويات» التي نسبها «الرواة» إلى رسول الله محمد؟!

إن الإجابة على هذا السؤال تجعلني مضطرًا إلى أن أخالف منهجي في الاستدلال بـ «النص القرآني»، وأذهب إلي هذا المصدر التشريعي المفترى لأستخرج منه روايتين لظن كثير من المسلمين أنهما من القرآن.

– الرواية الأولى:

أقام عليها «أهل السنة» حجية مصدرهم الثاني للتشريع، ويستندون في إثبات ذلك إلى:

رواية مالك بن أنس في الموطأ، باب النهى عن القول بالقدر «بلاغًا» أن رسول الله قال:

«تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله»

وكلمة «بلاغًا» تعني أن هذا الكلام بلغه ولم يسمعه بنفسه، وهذا يعتبر عند علماء الحديث «انقطاعًا» يُضعف الرواية.

هذا بالإضافة إلى تأويلاتهم المذهبية لآيات الذكر الحكيم التي أخرجوها من سياقاتها ووظّفوها لخدمة توجهاتهم العقدية والفقهية.

– الرواية الثانية:

التي أقام عليها «الشيعة» حجية مصدرهم الثاني للتشريع هي:

رواية الترمذي السني المذهب في المناقب، عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله يقول:

«إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي».

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

ونلاحظ أن العامل المشترك بين الروايتين وهو «كتاب الله» فأضاف أهل السنة «وسنة رسوله» لإعطاء شرعية لمصدرهم الثاني للتشريع، وأضاف الشيعة «وعترتي أهل بيتي» لإعطاء شرعية لمصدرهم الثاني للتشريع:

فهل يمكن أن تكون هذه الروايات من «دين الله» الذي أنزله الله على رسوله محمد قبل ظهور الفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة؟!

لقد كان من الطبيعي أن يقبل علماء الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف الروايات كلٌ حسب توجهه العقدي والفقهي، وعلى هذا الأساس المذهبي دونت أمهات الكتب، ليس في «علم الحديث» فقط، وإنما في كل علوم «التراث الديني» التي بين أيدي المسلمين اليوم.

فهل يمكن أن يُفوض الله تعالى رسوله محمدًا في استكمال ما نقص من «أحكام القرآن» باسم الوحي الثاني الذي هو «مرويات السُنّة النبوية التي تتناقلها ألسن الرواة خلال ما لا يقل عن قرنين من الزمن من وفاة الرسول، ثم يأتي علماء الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف لفرزها وتنقيتها للوصول إلى الوحي الثاني الذي أنزله الله على رسوله محمد؟!

إن الذي غاب عن أئمة السلف والخلف أننا عندما ننسب شيئا إلى «الرسول» يجب أن تكون هذه النسبة قطعية الثبوت عن «الله تعالى» وليس عن «رسوله محمد» لماذا؟!

لأن رسول الله محمد، عليه السلام، يُنبأ من الله تعالى، ومقام «النبوة» مقام تلقي عن الله، ولذلك يحرم أن يُنسب إلى الرسول أي نص تشريعي لم تثبت صحة نسبته إلى الله تعالى بـ «آية إلهية».

لذلك كان من الخطأ الكبير أن ينقل الرواة كل ما صدر عن «الرسول» من أقوال وأفعال وتقريرات، دون تمييز بين:

– «مقام النبوة» المرتبط ارتباطًا وثيقًا بعصر «التنزيل واكتمال الدين»، وتنتهي فاعليته بـ «وفاة النبي».

– و«مقام الرسالة» المرتبط ارتباطًا وثيقًا بـ «الرسول» المبلغ عن الله رسالته التي أمره الله أن يدوّنها في كتاب قبل وفاته.

مثال: يقول الله تعالى في سورة التحريم:

«وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً – فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ – وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ – عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ – فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ – قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا – قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ»

فهذه الآية القرآنية نزلت على رسول الله محمد ليبلغها للناس وهو في «مقام الرسالة»، أما ما حدث من أزواج والنبي مع النبي وكان نتيجته نزول هذه الآية فكان ذلك والرسول في «مقام النبوة» الذي يكون فيه العتاب واللوم لمواجهة إشكالات وتحديات عصر التنزيل واكتمال الدين.

إن كل ما أوحاه الله لرسوله في عصر التنزيل واكتمال الدين ليس شرطا أن ينزل به قرآن، فـ القرآن ينزل بما شاء الله أن يحمله من أحداث عصر التنزيل، وبرهان ذلك في قول الله تعالى:

«نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ»

والذي يُفهم منه أن الله «نبأ» رسوله بما حدث من بعض أزواجه بوحي «غير قرآني» بدليل أن القرآن لم يذكر تفاصيل هذا «النبأ».

وهنا يمكن أن أسأل:

إذا تداول الصحابة تفاصيل هذا «النبأ» نقلا عن أزواج النبي، ثم تناقلتها ألسن «الرواة» حتى وصلت إلى عصر التدوين، ثم دوّنها «المحدثون» في الكتب باعتبارها «سُنّة نبوية»، فهل يعني هذا أنها أصبحت من «دين الإسلام» واجب الاتباع؟!

والجواب:

إن «الوحي الإلهي» الذي أمر الله تعالى رسوله محمدًا اتباعه، يستحيل أن يتوفى الرسول ونصوص هذا الوحي لم تدون تحت إشرافه شخصيًا في كتاب، ولقد توفي الرسول ولم يترك للناس غير

القرآن، وإلا فأين «كتاب الأحاديث» التي دونها الرسول في حياته، وورثه المسلمون مع كتاب الله على مر العصور؟!

هل رواة الحديث هم الذين حفظوا القرآن؟!

هل توفي رسول الله محمد قبل أن يجمع القرآن في كتاب حتى جاء الخليفة الثالث عثمان بن عفان «ت ٣٥ هـ» فجمع الصحف المختلفة في كتاب واحد وأحرق الصحف التي كان حولها خلاف؟!

الحقيقة أن القرآن بريء من كل ما دونه المفسرون والمحدثون من مرويات، سواء كانت عن جمع القرآن أو عن غير ذلك، لسبب بدهي لا يستطيع أهل البصيرة إنكاره وهو أن القرآن لو جمع بعد وفاة الرسول لوصل إلينا «روايات مذهبية» كما وصلت «مرويات الحديث» التي دونها المحدثون بعد وفاة الرسول بقرن من الزمن على أقل تقدير، كلٌ حسب مدرسته في الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف.

إن قضية جمع القرآن فتنة كبرى أشعلها المحدثون من السنة والشيعة، فأهل السُنّة يتهمون الشيعة بتحريف القرآن، وأن عندهم قرآنا غير القرآن الموجود بين أيدي المسلمين، والشيعة يتهمون أهل السُنّة بتحريف القرآن لصالح خلافة أبي بكر:

والله تعالى يقول لرسوله عن جمع القران «القيامة / ١٦-١٩»:

«لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ - إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ - فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ - ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ»

إن معظم مرويات الفرق الإسلامية حول جمع القرآن تطعن في تعهد الله تعالى بحفظ «الذكر»، فماذا لو أن الله تعالى أسند حفظ القرآن للصحابة والتابعين كما أسند حفظ الكتب السابقة إلى أهل الكتاب؟!

يقول الله تعالى «المائدة / ٤٤»:

«إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ - يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ - بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ - وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء»

فهل استطاع «أهل الكتاب» أن يحفظوا كتبهم؟!

إن من «مرويات» جمع القرآن، التي تشكك الناس في حفظ الله لـ «الذكر الحكيم» ما رواه البخاري في صحيحه:

«حدثنا عمر، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، قال: قدم أصحاب عبد الله على أبي الدرداء فطلبهم فوجدهم، فقال أيكم يقرآ عليَّ قراءة عبد الله؟! قال: كلنا، قال فأيكم أحفظ؟!

فأشار إلى علقمة قال: كيف سمعته يقرأ «والليل إذا يغشى»؟! قال علقمة: «والذكر والأنثى»، قال أشهد أني سمعت النبي يقرأ هكذا، وهؤلاء يريدونني على أن أقرأ «وما خلق الذكر والأنثى» والله لا أتابعهم»

والسؤال:

هل سورة الليل، الموجودة في مصاحف المسلمين منذ عصر التنزيل وإلى يومنا هذا، تحمل الآية «والذكر والأنثى» أم «وما خلق الذكر والأنثى»؟!

فمن وراء تشكيك المسلمين في تعهد الله بحفظ «الذكر» عن طريق روايات جمع القرآن، وأن يقسم أحد الصحابة بالله، أن الآية الموجودة في المصحف اليوم «وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى» قد تعلمها من الرسول «وَالذَّكَرَ وَالأُنْثَى» من غير «مَا خَلَقَ»؟!

وهل معنى ذلك أن رسول الله تُوفي قبل أن يُجمع القرآن في كتاب، وتصبح هذه الجملة القرآنية: «إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ»

ليست من القرآن، ويصبح اسم الإشارة «ذلك» في قول الله تعالى:

«ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ»

ليس من القرآن لأن «الكتاب» لم يصبح كتابًا إلا بعد وفاة رسول الله؟!

هل يُعقل يا «أهل القرآن» أن يتوفى رسول الله ولم يكن كتاب الله قد جُمع انتظارا للجمع الأخير، الذي قام به الخليفة الثالث عثمان بن عفان؟!

لقد حملت أمهات كتب علوم القرآن عشرات الروايات التي تطعن في تعهد الله تعالى بحفظ «الذكر»، والتي لم يستطع أحد من المحدثين حذفها لاحتمال أن يأتي في المستقبل من يصححها.

لقد ابتدع المحدثون قاعدة، تعطي شرعية لمروياتهم فقالوا:

إن الذين حفظوا القرآن ونقلوه إلينا هم الذين حفظوا الحديث ونقلوه إلينا، فإذا شككنا في رواية الحديث شككنا في رواية القرآن، وعليه تثبت حجية القرآن بالرواية كما ثبتت حجية الحديث بالرواية، وإن التشكيك في حجية الحديث تشكيك في حجية القرآن.

لقد ظهرت هذه المصيبة الإيمانية الكبرى بعد أن هجر المسلمون «القرآن» وتفرقوا إلى مذاهب عقدية وفقهية، الأمر الذي أسفر عن أن ٩٩٪ من المسلمين اليوم هم أتباع هذه الفرق الذين

جعلوا «مرويات الرواة» التي دونها المحدثون باسم «السنة النبوية» تحكم وتنسخ وتُحرف أحكام القرآن.

إن مساواة حجية «الرواية» بحجية «الآية» لإعطاء قدسية لـ «مرويات المحدثين» على مستوى الفرق الإسلامية كلها، بدعوى أن الذين نقلوا القرآن هم الذين نقلوا الروايات، وأن العامل المشترك بينهما هو «السند الوائي»، فتنة إبليسية شيطانية لإبعاد الناس عن «دين الإسلام» الذي لن يقبل الله تعالى غيره:

يقول الله تعالى «آل عمران / ٨٥»:

«وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً – فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ – وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِين

«وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ»

لقد اقتطع أئمة الفرق والمذاهب المختلفة جملة قرآنية من سياقها الذي ورد في سورة الحشر وهي «الآية ٧» وأقاموا عليها حجية المصدر الثاني للتشريع الذي ما أنزل الله به من سلطان، بدعوى أن الله آتى رسوله كتابين كتاب القرآن وكتاب السُنّة، فما حقيقة هذا الادعاء الذي لم أر خلال ما يزيد عن أربعة عقود من الزمن عالما من علماء الفرق الإسلامية استطاع أن يقيم البرهان العلمي على صحة هذا الادعاء؟!

أولًا:

إن حجية «الوحي الإلهي» لا تثبت بشهادة الأموات الذين حملهم «السند الروائي» ثم جاء المحدثون ودوّنوا هذه الشهادات بعد قرن من وفاتهم.

إن حجية «الوحي الإلهي» لا تقوم على منظومة روائية يضع أصولها وفروعها أئمة السلف كلٌ حسب مدرسته في الجرح والتعديل، والتصحيح والتضعيف.

إن حجية «الوحي الإلهي» لا تقوم على صحة نسبة «الحديث» إلى الرسول ولو ثبتت صحة النسبة ثبوتا قطعيا، وإنما بصحة النسبة إلى الله تعالى.

ثانيًا:

لقد وضع أئمة الفرق والمذاهب المختلفة منظومة من القواعد والمصطلحات جعلوها حاكمة على فهم النص القرآني من أجل خدمة توجهاتهم العقدية والفقهية المذهبية، ومنها قولهم:

«العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»

وقولهم هذا ليس على إطلاقه، فهناك كثير من الآيات القرآنية، يُفهم منها «الخصوصية» ولا يمكن تعميمها، أو «العمومية» ولا يمكن تخصيصها، وذلك حسب السياق الذي وردت فيه، ومن هذه الآيات، قول الله تعالى «الحشر / ٧»:

«مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى – فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ – كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ»

* والفيء: ما استولى عليه المسلمون من أموال العدو من غير قتال.

«وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ – وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا – وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ»

ويفهم من سياق هذه الآية وما بعدها أن كلاما كان يُتداول بين الصحابة عن خلاف نشب بين المهاجرين والأنصار بخصوص توزيع الرسول للفيء، فنزل القرآن يُبيّن حقيقة هذا الخلاف:

يقول الله تعالى «الحشر /٨–٩»:

«لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ – يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَاناً – وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ – أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ»

«وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ – يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ – وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا – وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ – وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ»

فإذا طبقنا قاعدة «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» لنفهم ما فهمه أئمة السلف، من أن «الإيتاء» ليس فقط للفيء، وإنما أيضا لـ «الأحاديث» التي نسبها الرواة إلى النبي، فهذا معناه، أن المهاجرين كانوا يتهمون الأنصار بأن «فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا» من هذه «الأحاديث» التي لم تكن قد ولدت بعد، فنزل القرآن يدافع عن الأنصار وأنهم «وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا» من هذه «الأحاديث»:

ثالثًا:

وإذا كان «الإيتاء» يشمل أيضا «الأحاديث» التي لم تكن قد ولدت بعد، فهل يعقل أن يجد الأنصار في قلوبهم شيئا من هذه «الأحاديث» وهم يعلمون أنها وحي من الله تعالى؟!

ثم ما هي هذه «الأحاديث النبوية» التي آتاها الرسول للصحابة، هل هي التي صحت عند أهل السنة أم التي صحت عند الشيعة أم عند المعتزلة أم عند الإباضية، أم التي عند البخاري السني، أم التي عند الكليني الشيعي؟!

لقد كان للمنافقين من الصحابة موقف من توزيع رسول الله للصدقات، فإذا رأوها توزع على

غيرهم طعنوا ولمزوا، فيقول الله تعالى «التوبة / ٥٨»:

«وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ – فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا – وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ»

«وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ – وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ – سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ – إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ»

تدبر العلاقة بين قوله تعالى في سورة الحشر:

«وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ»

وقول الله تعالى في سورة التوبة:

«مَا آتَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»

لتعلم أن «الإيتاء» لا علاقة له مطلقًا بـ «الأحاديث» التي نسبها الرواة إلى رسول الله محمد الذي لم يؤته الله غير «الذكر» الذي تعهد بحفظه إلى يوم الدين، ولم يتعهد بحفظ «مرويات» الرواة التي دونها المحدثون حسب مدارسهم في الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف.

* الجرح والتعديل: علم يبحث في صفات الراوي، فإن كانت مذمومة كان مجروحا ولا تقبل روايته، وإن كانت محمودة كان عدلا وتقبل روايته.

رابعًا:

إذا أردنا أن نفهم قول الله تعالى:

«وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ»

على أساس قاعدة «العبرة بعموم اللفظ» فلن نجد خلافًا بين أهل اللسان العربي، ولا بين أئمة الفرق والمذاهب المختلفة، حول معنى كلمة «رسول» التي تعني «حامل رسالة» فما هي الرسالة التي كان رسول الله يحملها وأمره أن يؤتيها للناس؟!

لا توجد في كتاب الله آية واحدة يُفهم منها أن الله آتى رسوله رسالتين: الأولى رسالة القرآن والثانية رسالة السُنّة، وأن الله تعالي سيحفظ القرآن، وأئمة السلف سيحفظون السُنّة كلٌ حسب مدرسته في التصحيح والتضعيف.

إن استقطاع جملة قرآنية من سياقها الذي وردت فيه، ثم من سياق الآيات قبلها وبعدها، ثم من سياق آيات أخرى وتوظيفها لإثبات حجية المصدر التشريعي الثاني الذي دوّنه أئمة الفرق والمذاهب المختلفة بعد قرن من الزمن، تقول على الله تعالى بغير علم:

يقول الله تعالى «الأنعام / ١٥١»:

«قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ – مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ – وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ – وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً – وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ»

تدبر قول الله تعالى «وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ»

أليست «مرويات السُنّة»، التي لم يشهدها عصر الخلافة الراشدة، ولا عصر الدولة الأموية، تقوّل على الله بغير علم، وهل يحمل أئمة الفرق والمذاهب المختلفة البرهان على حجية هذه «المرويات» وأنها «وحي» من الله تعالى واجب الاتباع؟!

وهل يعقل أن تُقام الحجة على الناس بـ «مرويات» ظنية الثبوت عن رسول الله محمد، وفي نفس الوقت تُقام بـ «آية قرآنية عقلية» قطعية الثبوت عن الله تعالى؟!

هل أمر الله بطاعة الرسول أم بطاعة المحدثين؟!

لا تقوم حُجية الرسالات الإلهية على الادعاء وإنما على البرهان الإلهي المثبت لصدق هذا الادعاء، ولقد بعث الله رسوله محمدا بـ «آية قرآنية عقلية» تثبت صدق «نبوته» حملها كتاب الله الخاتم الذي أمر الله الناس باتباع آياته وتفعيلها سلوكا عمليا في حياتهم، وكان من الطبيعي أن يأمرهم بطاعة رسوله محمد، عليه السلام، القائم على تنفيذ أحكام هذا الكتاب بينهم.

«فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ – حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ – ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ – وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً»

فهل أنزل الله تعالى على رسوله محمد هذا الكتاب الذي أمره بتدوين آيات، وأمر الناس الإيمان به واتباع أحكامه، أم أنزل الله عليه كتابين: الأول «كتاب القرآن» الذي عرفه الناس في عصر التنزيل وعصر الخلافة الراشدة، والثاني «كتاب السُنّة» الذي لم يظهر بين الناس إلا بعد قرن من وفاة الرسول، وأصبح «دين الإسلام» يقوم على وجوب طاعة الله في «كتابه» وطاعة رسوله في «سنته»؟!

إنه لا خلاف بين المسلمين على وجوب طاعة الرسول «في حياته» لأنه القائم على تنفيذ أحكام القرآن بين الناس، وإنما الخلاف حول مفهوم طاعة الرسول «بعد وفاته»، فتعالوا نتعرف على حقيقة هذا المفهوم، في السياق القرآني.

لقد جاء الأمر بـ طاعة الرسول في السياق القرآني على النحو التالي:

أولًا:

«أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ»

فالله تعالى منزل الكتاب، والرسول المبلغ لآيات الكتاب.

ثانيًا:

«أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ»

فالله تعالى منزل الكتاب، والرسول القائم على تنفيذ أحكام الكتاب:

يقول الله تعالى «النساء/ ٥٩»:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ - أَطِيعُواْ اللّهَ - وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ - وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ - فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ»

إذًا يجب التفريق بين طاعة الله «المشرع» وطاعة الرسول «القائم على تنفيذ الشريعة» على النحو التالي:

١- المرجعية التشريعية:

«أَطِيعُوا اللَّهَ»: وتعني الإيمان والتصديق بحجية كتاب الله على الناس جميعا.

٢- المرجعية التنفيذية:

«وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ»: وتعني القائمين على تنفيذ أحكام الكتاب.

ونلاحظ عدم إضافة طاعة مستقلة لـ «أولي الأمر» لأنهم تابعون لـ «طاعة الرسول» في إدارة شئون البلاد باعتبارهم الجهة التنفيذية والرقابية.

ولذلك كان الرد عند التنازع إلى الله، لأنه سبحانه «المشرّع» وَالرَّسُولِ لأنه «القائم على تنفيذ الشريعة»، ولم يقل الله تعالى «وإلى الرسول» حتى لا يُفهم أن للرسول شريعة مستقلة عن شريعة الله يجب أن يُطاع فيها.

ثالثا:

«وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ»: فيقول الله تعالى «النور / ٥٤»:

«وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ - وَآتُوا الزَّكَاةَ - وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ - لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»

وهذه هي الآية الوحيدة التي أمر الله فيها الذين آمنوا بـ طاعة الرسول منفردا لأن سياقها يتحدث عن موقف المنافقين من الرسول فيقول الله تعالى «النور / ٤٨»:

«وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ – لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ – إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ»

فلم يقل الله تعالى «لِيَحْكُما بَيْنَهُمْ» لبيان أن القائم على تنفيذ أحكام القرآن بين الناس هو رسول الله.

والسؤال:

هل تستوي طاعة «الرسول» القائم على تنفيذ أحكام القرآن بين الناس، والتي يتوقف عليها إسلام المرء أو كفره، مع طاعة «المحدثين» الذين دونوا «مرويات» الرواة المنسوبة إلى «الرسول» بعد وفاته بقرن من الزمن على أقل تقدير؟!

إن الأمر بـ طاعة «الرسول»، في القرآن كله، يخاطب الله تعالى فيه «المعاصرين» لرسول الله الذين كانوا «يسمعون» كلامه منه شخصيًا وينفذون أمره:

يقول الله تعالى «الأنفال / ٢٠»:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا – أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ – وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ – وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ»

إن قول الله تعالى «وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ» خير برهان على أن الأمر بطاعة الرسول يخص من عاصروا الرسول وكانوا يسمعون كلامه، لأنه لا يُعقل أن يكون المقصود بـ «وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ» تسمعون كلام المحدثين.

ويقول الله تعالى «النساء / ٦١»:

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ – وَإِلَى الرَّسُولِ – رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً»

فقول الله تعالى «إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ» يحصر موضوع الطاعة في «الكتاب المنزل» أي في القرآن.

وقوله تعالى «وَإِلَى الرَّسُولِ» يشير إلى «السلطة التنفيذية» القائمة على تنفيذ أحكام «الكتاب المنزل» بين الناس، وإلى أن طاعة الرسول طاعة حضورية «معاصرة»، وإلا فما معنى قول الله تعالى في نفس السياق «النساء / ٦٣»:

«فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ»؟!

فكيف يُعرض رسول الله عن المنافقين بعد وفاته؟!

وكيف يكون المعرض، أو المنكر لـ «الأحاديث» التي نسبها رواة الفرق المختلفة إلى الرسول معرضًا أو منكرًا أو عاصيًا لأمر الرسول في حياته؟!

«أَفَلاَ تَعْقِلُونَ – أَفَلاَ تَتَّقُونَ – أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ»

إن جميع «الأحاديث» المدونة في أمهات الكتب نسبها الرواة والمحدثون إلى رسول الله كأنهم كانوا يعيشون معه في عصر التنزيل وهو الذي أمرهم بتدوينها في هذه الكتب، وعليه فهم المسلمون أتباع الفرق الإسلامية أن قول الله تعالى «وَإِلَى الرَّسُولِ» يعني «وَإِلَى المحدثين»، وإلى أمهات كتب الحديث والجرح والتعديل للفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة.

ثم كيف نفهم هذه الجمل التي وردت في سياق الآيات «النساء / ٦٢– ٦٥»:

«ثُمَّ جَاءُوكَ – فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ – وَعِظْهُمْ – وَقُلْ لَهُمْ – وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ الرَّسُولُ»

ثم قول الله تعالى بعد ذلك:

«فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ – حَتَّى يُحَكِّمُوكَ – فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ – ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ – وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً»

هل يمكن أن تحل «المرويات» محل «الرسول» المخاطب في هذا السياق القرآني؟!

هل يمكن أن يمتد ضمير الخطاب في «يُحَكِّمُوكَ – قَضَيْتَ» ليشمل الحكم الذي قضي به علماء الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف؟!

ثم كيف ينفذ المسلمون الأمر بـ التسليم «وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» وهم أمام هذا الكم الهائل من «المرويات» المنسوبة إلى رسول الله والتي إن صحت عند فرقة لم تصح عند أخرى؟!

لقد أراد أئمة الفرق والمذاهب المختلفة أن يُوظّفوا الأمر بـ «طاعة الرسول» لخدمة توجهاتهم العقدية والفقهية، ولإعطاء قدسية لـ «المحدثين» باعتبار أن «طاعة المحدثين» الذين نقلوا عن الرواة مروياتهم، من «طاعة الرسول» من «طاعة الله»، فأين القلب السليم الذي يقبل هذا الافتراء؟!

والذي غاب عن أئمة الفرق والمذاهب المختلفة أنهم أصلا يعيشون داخل دائرة «الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً»، وقد أمر الله تعالى رسوله محمدًا، عليه السلام، أن يتبرأ منهم:

يقول الله تعالى «الأنعام / ١٥٩»:

«إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً – لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ – إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ – ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ»

إننا إذا عدنا إلى عصر الرسالة، وإلى السياق القرآني، نجد نصًا قرآنيًا يُبيّن أن معصية الله ورسوله «كفرٌ»، وقد جاء هذا الحكم في سياق بيان «أحكام المواريث»:

يقول الله تعالى «النساء / ١٤»:

«وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ – وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ – يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا – وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ»

إذًا فطاعة الله ورسوله من أصول الإيمان التي يتوقف عليها إسلام المرء أو كفره، الأمر الذي يستحيل أن يتحقق إلا في «عصر التنزيل»، وقد تجاهل «المحدثون» هذه هي الحقيقة لتصبح مسألة الطاعة والمعصية في أيديهم، وهم الذين يقرّرون متى تكون طاعة الرسول ومتى تكون معصيته حسب مذاهبهم في الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف.

إن تفعيل رسول الله محمد للنص القرآني كان قطعي الثبوت قطعي الدلالة في عصر التنزيل، فلا يُعقل أن يتحول ما كان «قطعي الثبوت» عن الرسول إلى «ظني الثبوت» عن الرواة، ثم يأتي المحدثون ويتخذونه مصدرًا تشريعيًا إلهيًا ثانيًا يكفر منكره.

وهل يملك علماء المسلمين جميعا دليلاً قطعي الثبوت عن الله تعالى يثبت أن الله أنزل على رسوله كتابًا تشريعيًا ثانيًا لاستكمال ما نقص من أحكام القرآن، فجاء برجم الزانية والزاني، وبقتل المرتد؟!

إن مسألة طاعة الرسول أو معصيته يتوقف عليه إسلام المرء أو كفره، ولذلك يستحيل أن تكون لها فاعلية بعد وفاة الرسول إلا باتباع «النور» الذي أقام الرسول بتفعيله في عصر التنزيل:

يقول الله تعالى «الأعراف / ١٥٧»:

«فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ – وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ – وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ – أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ»

عندما تحكم ثقافة الرواية فقه الآية

إن نسبة أي نص تشريعي إلى النبي يجب أن تكون قطعية الثبوت عن الله، وليس عن النبي، ف «مقام النبوة» مقام تلقي عن الله، مقام وحي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لذلك كان من الخطأ الكبير أن يُدوّن المحدثون بعد قرن من وفاة النبي على أقل تقدير، كل ما تناقلته ألسن الرواة من مرويات منسوبة إلى النبي تحمل أقوالًا وأفعالًا وتقريراتٍ دون تمييز بين:

«مقام النبوة»:

يشمل تفاعل النبي مع ما كان يحدث في عصر التنزيل والذي انتهت فعاليته بوفاته.

«مقام الرسالة»:

ويشمل تفاعل النبي مع ما كان يتنزل من آيات الذكر الحكيم ومنه ما كان من عتاب للنبي في تصرف باعتباره بشرًا:

يقول الله تعالى «الكهف / ١١٠»:

«قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ – يُوحَى إِلَيَّ – أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ – فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ – فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً – وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً»

ولقد نقل رواة «الأحاديث» كل ما حدث في «عصر التنزيل» دون تمييز بين «مقام الرسالة» و«مقام النبوة»، واعتبروه من «دين الإسلام» واجب الاتباع سواء كان خاصًا بمرحلة التشريع الانتقالية، أو عامًا لكل العصور وإلي يوم الدين.

ومن الأحداث الخاصة بـ «عصر التنزيل» والتي ما كان للصحابة تداولها وما كان للرواة التحدث فيها، وما كان للمحدثين تدوينها في الكتب، وما كان لها أن تصل إلينا اليوم، هذه الحادثة التي تُعرف بـ «حادثة الإفك».

والإفك: صرف الشيء عن حقيقته، كـ الصرف عن الحق إلى الباطل، ومن الصدق إلى الكذب.

ولم يذكر القرآن تفاصيل هذه الحادثة، ومن الذين شاركوا فيها، وعن أي شيء تتعلق، وأشار فقط إلى ما يمكن للناس الاستفادة منه، فقال الله تعالى «النور / ١٩»:

«إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ – فِي الَّذِينَ آمَنُوا – لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ – وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ»

ولقد حذر الله صحابة رسوله من تداول ونشر هذا «الإفك» بين الناس، فقال تعالى «النور / ١١-١٤»:

«إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ – لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ – لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ – وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ»

«لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ – ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً – وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ»

«لَوْلاَ جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ»

«وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ – لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ»

والسؤال:

هل التزم الصحابة بتحذير الله وقوله تعالى لهم «النور / ١٧»:

«يَعِظُكُمُ اللَّهُ – أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً – إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ»؟!

لا لم يلتزموا والرسول يعيش بينهم، وأعطوا ظهورهم للعقوبة التي كان من المفترض أن تصيبهم لولا أن الله تغمدهم برحمته:

«لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ»

فهل معنى أن الله تعالى رحمهم، ولم يعاقبهم بهذا العذاب العظيم، وقد يكون ذلك بسبب مرحلية التشريع، أن ينشروا بعد وفاة النبي تفاصيل هذا «الإفك» وتتناقله ألسنة الرواة مع آلاف المرويات الأخرى، ثم يأتي المحدثون ويقومون بتدوينها في أمهات كتب الحديث، وتصبح من نصوص «السنة النبوية» واجبة الاتباع؟!

هل تدبر الذين نشروا هذا «الإفك»، من صحابة وتابعين وتابعي التابعين، ومحدثين وعلماء الفرق والمذاهب، والمشايخ والدعاة، هل تدبروا قول الله تعالى:

«إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ – وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ – مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ – وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً – وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ»؟!

إن قول الله تعالى «وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ – مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ» خير برهان على سقوط ما يُسمى بعلم الجرح والتعديل من قواعده، ذلك أن الحلقة الأولى من حلقات «السند الروائي»، وهي حلقة الصحابة، قامت على أساس أن الصحابة «عدول» لا يستطيع أحد الاقتراب منهم بـ «جرح» مهما فعلوا من معاصي ومن سفك للدماء في أحداث الفتن الكبرى، في الوقت الذي يُبيّن الله فيه، أن من الصحابة منافقين:

يقول الله تعالى «التوبة / ١٠١»:

«وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ – لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ – سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ – ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ»

فإذا كان الصحابة الذين عاصروا هذه الحادثة في حياة النبي قد تداولوا بينهم شيئًا مفترى، فكيف بحال الرواة الذين نسبوا إلى النبي بعد وفاته «روايات» ما أنزل الله بها من سلطان، ثم قام المحدثون بتدوينها في أمهات كتب الحديث بعد أكثر من قرنين من وفاة النبي بدعوى أنها حملت «السُنّة النبوية» التي أمر الله تعالى اتباعها؟!

هل تدبر جهابذة علم الحديث من الفرق والمذاهب المختلفة، قول الله تعالى:

«وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ – قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا – سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ»؟!

وهل تدبر الأئمة، والمشايخ، والدعاة، قول الله تعالى:

«يَعِظُكُمْ اللَّهُ – أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً – إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ»

قبل أن ينشروا على منابر الدعوة الإسلامية، المحلية والفضائية، مرويات هذا «الإفك»؟!

والسؤال:

لماذا لم يُجرّح علماء الجرح والتعديل الصحابة الذين أشاعوا هذا «الإفك» بعد وفاة النبي؟!

لماذا لم يستبعد علماء التصحيح والتضعيف هذه الروايات من أمهات الكتب؟!

والجواب:

يقولون على أمل أن يأتي جهابذة علم الحديث في عصر من العصور، فيوحي إليهم الله تعالى بـ الأحاديث النبوية الصحيحة، ولكن الأهم من ذلك هو السؤال:

على أي «أساس شرعي» ذهب أئمة السلف والخلف إلى قاعدة «عدالة الصحابة» التي قام عليها «علم الحديث» عند أهل السنة، وقاعدة «عصمة الأئمة» التي قام عليها «علم الحديث» عند الشيعة؟!

والجواب:

لأن الحلقة الأولى من حلقات «السند الروائي» لو سقطت سقط «علم الحديث» كله، فكان من الضروري المحافظة على هذه الحلقة، والتنظير والتقعيد لها بأي شكل وبأي مبرر حتى لو خالف القرآن وأدى إلى سفك دماء المنكرين لهذا «السند الروائي» الذي ما أنزل الله به من سلطان.

إنه لخطر كبير وعظيم على تدين المسلمين بـ «دين الإسلام» أن يجعلوا «الرواية البشرية» حاكمة على فهم «الآية الإلهية» وأن يتقدم تقديس النبي على الله تعالى، فإذا ذُكر اسم الله وحده لا تتفاعل معه القلوب ولا الحواس، وإذا ذُكر اسم الرسول تفاعلت معه القلوب والحواس:

يقول الله تعالى «الزمر / ٤٥»:

«وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ – اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخرةِ – وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ»

إن تفعيل النبي لآيات الذكر الحكيم قد ثبت ثبوتًا قطعيًا عن النبي في عصر التنزيل، وهذا «التفعيل» الذي نشاهده بقلوبنا عن طريق البث المباشر الذي يحمله القرآن نقلا عن عصر التنزيل، هو «السُنّة النبوية» التي لا مرجعية لها غير القرآن.

وإن كل ما يُتهم به «دين الإسلام» على مر العصور مما هو برئ منه، وما يحدث من تشكيك في تعهد الله تعالى بحفظ «الذكر الحكيم»، حدث ويحدث بعد أن حكمت «الرواية» فقه «الآية» وبعد أن أصبح المسلمون يتدينون بـ «إسلام الرواية» لا بـ «إسلام الآية»، والله تعالى يقول «العنكبوت / ٥١»:

«أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ – أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ – إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»

سنة الإيمان الوراثي وسنة الإيمان العلمي

تقوم المنهجية العلمية في الدراسة والبحث على البرهان المثبت للحقائق التي يريد الباحث التوصل إليها، فأين البرهان الدال على أن الله تعالى أمر المسلمين بعد وفاة الرسول باتباع كل ما صدر عنه في عصر التنزيل من قول أو فعل أو تقرير حسب الروايات التي نسبها الرواة إلى رسول الله ودونها المحدثون كلٌ حسب شروطه في الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف والله تعالى يقول «البقرة / ١١١»:

«قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ»؟!

إن غياب المنهجية العلمية عن حياة المسلمين جعلهم يفهمون القرآن بمنهجية عشوائية تخدم التوجهات الدينية لأئمة الفرق والمذاهب الإسلامية كلٌ حسب الفرقة التي ولد فيها وتربى على تراثها الديني وما حمله من «مرويات» إن صحت عند فرقة لم تصح عند أخرى.

فهل يُعقل أن يجعل الله تعالى «المرويات» الظنية الثبوت عن الرواة، وليس عن رسوله محمد، مصدرا تشريعيا ثانيًا مبيّنًا للقرآن ومكملًا لأحكامه باسم «السنة النبوية» التي يكفر منكرها؟!

إنني، ومنذ نهاية السبعينيات، وخلال رحلتي من الإيمان الوراثي إلى الإيمان العلمي، لم أجد إمامًا من أئمة الفرق الإسلامية يملك برهانًا واحدًا على أن «دين الإسلام» يقوم على كتاب وسُنّة، والسبب في عجزهم عن الإتيان ببرهان من القرآن أنهم أمام «قرآن» قطعي الثبوت عن الله تعالى و«سُنّة» ظنية الثبوت عن رسول الله.

فهل يوجد مسلم على هذه الأرض «يشك» في صحة نسبة «القرآن» إلى الله تعالى؟! وهل يوجد مسلم «لا يشك» في صحة نسبة «الأحاديث» إلى رسول الله استنادا إلى آراء علماء الجرح والتعديل فيها، وهل يوجد عاقل من أي ملة يقبل أن تكون هذه «الأحاديث» وحيًا إلهيًا تركه الله تعالى بين أيدي الرواة والمحدثين يفعلون فيه ما يشاؤون؟!

إن الباحث الجاد، الذي يعلم أصول البحث العلمي، يعلم أن هذه «الأحاديث» التي نسبها الرواة إلى رسول الله محمد تقوم على ما يُعرف بـ «السند الروائي» الذي تعاملت كل فرقة من الفرق الإسلامية معه حسب شروط علماء الجرح والتعديل المذهبية وفي مقدمتها شرط «عدالة الصحابة» عند أهل السُنّة، والذي يقابله «عصمة الأئمة» عند الشيعة، هذا الإشكال الكبير القائم منذ قرون مضت بين أكبر فرقتين من الفرق الإسلامية.

فهل يُعقل أن يؤمن المسلمون بمصدر تشريعي قولي إلهي لا وجود لحجيته في القرآن، ولم يكن له وجود في حياة الرسول، ولا في حياة الخلفاء الراشدين؟!

لقد كنت حريصا خلال رحلتي من الإيمان الوراثي إلى الإيمان العلمي أن أجري حوارات مع علماء من الفرق الإسلامية المختلفة، وكان المحور الأساس لهذه الحوارات هو مفهوم «السنة النبوية» وحكم من ينكرها بطرح عدة أسئلة:

أولًا:

ماذا تعني «السُنّة النبوية» من وجهة نظر أئمة كل فرقة؟!

ثانيًا:

ما هي المصادر التي تستقي منها كل فرقة نصوص «السُنّة النبوية»؟!

ثالثًا:

هل أجمع علماء الجرح والتعديل، عند جميع الفرق، على «عدالة» أو على «جرح» رواة «السنة النبوية»؟!

رابعًا:

هل قولهم إن هذا الحديث «صحيح» يعني أن الرسول قاله يقينًا؟!

خامسًا:

لماذا لم تجتمع الفرق الإسلامية على كتاب واحد لـ «الأحاديث» مهما وصل عدد أجزائه؟!

وكان من الطبيعي أن يجمع علماء الفرق الإسلامية على أن «السُنّة النبوية» هي كل ما صدر عن النبي من قول أو فعل أو تقرير...، ثم يختلفون اختلافا كبيرا حول جرح وتعديل «الرواة» الذين نقلوا «مرويات» السُنّة:

١- فعند أهل السُنّة، وجد علماء الجرح والتعديل أثناء فحص أحوال الرواة أن من بين الرواة المذكورين في أمهات الكتب رواة من أتباع الفرق الأخرى، فما كان منهم إلا أن أضافوا أمامهم عبارة فلان ثقة:

إلا أنه رافضي - إلا أنه رمي بالتشيع - إلا أنه مغال في التشيع - يروي أحاديث في فضائل أهل البيت - من شيعة عليّ - كان معروفا بالتشيع من غير سب - كثير العبادة والغزو لكنه شيعي ... إلى آخر العبارات التي تسيء إلى رواة الشيعة وتجرحهم.

قولهم فلان رافضي: أي أنه «شيعي» باعتبار أن الشيعة رفضوا خلافة أبي بكر.

ولقد فعل الشيعة مثل ما فعل أهل السُنّة فقالوا: فلان ناصبي لا تُقبل روايته.

قولهم فلان ناصبي: أي أنه «سني» باعتبار أن أهل السُنّة ناصبوا العداء لعلي بن أبي طالب.

ثم انظر ماذا يعني قول علماء الجرح والتعديل:

«فلان كان معروفا بالتشيع من غير سب»

والذي يعكس أزمة التخاصم التي كان يعيش بداخلها أتباع الفرق الإسلامية بعد أحداث الفتن الكبرى وتفرقهم إلى طوائف متصارعة يسب بعضهم بعضا تحت رعاية الدولتين الأموية والعباسية كما هو مفصل في أمهات كتب الملل والنحل.

ولذلك، لم تنجح جهود التقريب بين الفرق والمذاهب الإسلامية، ولن تنجح، بعد أن تشربت قلوب أتباعها أزمة التخاصم والتكفير، ثم الغريب اللافت للنظر أن نجد كل فرقة تتحدث عبر وسائل الإعلام المختلفة باعتبار أنها «الأمة الإسلامية»، وأنها التي حملت للناس «السُنّة النبوية» الصحيحة.

٢- كيف يقوم علم جرح وتعديل «الرواة»، وعلم تصحيح وتضعيف «المتن»، في غياب الإشراف العلمي من قبل الخلافة الإسلامية، باعتبار أنها الأقرب إلى عصر التنزيل، ولديها إمكانات البحث والتحري عن أحوال الرواة، الأمر الذي يؤكد على أن مرويات «السُنّة النبوية» اجتهادات قام بها الرواة بصفة شخصية خارج حدود «دين الإسلام» الذي لن يقبل الله غيره.

وعلى أساس هذه الاجتهادات الروائية أخذ «السند الروائي» ينمو وينمو حتى توقف عند «عصر التدوين» حيث دوّن أئمة الفرق الإسلامية الكتب كلٌ حسب مذهبه العقدي والفقهي، فإذا نظرت إلى هذه الكتب لن تجد من بينها كتابًا دوّن باسم «الخلافة الإسلامية» لا باسم صاحبه.

٣- إن اختلاف علماء الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف، على مستوى الفرق الإسلامية كلها، حول صحة الأحاديث وضعفها يُسقط حجيتها من قواعدها إذا اعتبرناها نصًا تشريعيًا إلهيًا واجب الاتباع، ذلك أن الحكم على الراوي جرحا أو تعديلا يخضع لوجهات النظر.

لقد كانت تربطني بفضيلة الشيخ محمد الغزالي قنوات اتصال علمية، وكنت قد قدمت له دراسة بعنوان «نحو تأصيل الخطاب الديني»، هي خلاصة ما توصلت إليه من نتائج بعد دراستي لتاريخ الفرق الإسلامية والأصول الشرعية التي قامت عليها.

ثم صدر كتاب الشيخ الغزالي «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» وقوبل بسيل من الاتهامات، وحكمت عليه بعض المذاهب السلفية بالردة والكفر، فذهبت إلى رئيس لجنة الفتوى بالأزهر «د. عبد الله المشد» وأعطيته هذه الدراسة «نحو تأصيل الخطاب الديني» وطلبت من لجنة الفتوى التي يرأسها أن تجيب على هذا السؤال:

«ما حكم من أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجاب والتحريم، هل يعد كافراً»؟!

وجاء رد لجنة الفتوى في «١/ ٢/ ١٩٩٠» على النحو التالي:

«من أنكر استقلال السّنُة بإثبات الإيجاب والتحريم فهو منكر لشيء اختلف فيه الأئمة ولا يعد مما علم بالضرورة فلا يعد كافراً»

ولقد قمت بتقديم هذه الفتوى إلى فضيلة الشيخ الغزالي الذي فقام بنشرها في كتابه «تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل» الفصل التاسع على هامش السنة.

وأقول:

«أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ – وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ – لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا»

عندما تصبح ثوابت الدين الإلهي ثوابت مذهبية

عندما أرفض أن يكون التراث الديني للفرق والمذاهب الإسلامية، حاملًا «مرويات» مصدر تشريعي باسم «السنة النبوية» لم تثبت صحة نسبتها إلى الله تعالى ولا إلى رسوله محمد، فهذا لا يعني أني أرفض بعثة رسول الله محمد، عليه السلام، وأنه كان يتحرك بين الناس يبلغ رسالة الله ليل نهار، وإنما لأن هذا التراث الديني صناعة بشرية قامت على «مرويات» نسبها الرواة إلى رسول الله محمد وسمّاها المحدثون باسم «السُنّة النبوية».

عندما أرفض أن يكون التراث الديني للفرق والمذاهب الإسلامية مرجعًا لـ «دين الإسلام» الذي حمله القرآن، فذلك لأن الذين حملوا هذا التراث على أساس أنه مصدر تشريعي إلهي عصوا الله تعالى وأصروا على تفرقهم في الدين ولم يعملوا بقول الله تعالى «آل عمران / ١٠٥»:

«وَلَا تَكُونُوا – كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا – مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ – وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»

عندما أرفض أن يكون التراث الديني للفرق والمذاهب الإسلامية هو المرجع الوحيد لرجم الزانية والزاني وقتل المرتد ... فذلك لاستحالة أن يحكم رسول الله محمد بين الناس بغير ما أنزل الله في القرآن، وقد قال الله لرسوله «المائدة / ٤٩»:

«وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ – وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ – وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ – فَإِن تَوَلَّوْاْ – فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ – وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ»

أولًا:

لقد أصبحت المرجعيات البشرية مصدرًا رئيسًا لفهم «أحكام القرآن» وأصبح لكل فرقة من الفرق الإسلامية أئمتها الذين يجب التأسي بهم، وأصبح أتباعها هم «السلف الصالح»، وأصبحنا أمام منظومة من العشوائية الدينية يدعي أتباع كل فرقة فيها أنهم «الفرقة الناجية» المتبعة لـ «السُنّة النبوية» الصحيحة، فيرفض أي إنسان عاقل أن تكون هذه الفرق الإسلامية من «دين الإسلام».

وإذا أردت أن تتأكد من هذه المعلومات، وكيف أن أزمة التخاصم والتكفير بين المسلمين كانت هي السبب الرئيس في تخلفهم الحضاري، ادخل على شبكة الإنترنت، واكتب على محرك البحث جملة «مذاهب أهل السنة»، وافعل ذلك مع كل فرقة، ستظهر لك صفحات كثيرة منها سؤال على موقع «الإسلام سؤال وجواب» يقول:

ما الفرق بين أهل السنة والجماعة والمذاهب الأخرى مثل الشافعية والمالكية ... إلخ؟!

يجيب عليه الشيخ محمد صالح المنجد فيقول:

«أهل السنة والجماعة لا يقابلهم المالكية والشافعية والحنابلة وأمثالهم، بل يقابلهم أهل البدع والضلال في الاعتقاد والمنهج، كـ الأشعرية والمعتزلة والمرجئة والصوفية وأشباههم».

أقول:

١- إن القول بأن «الأشاعرة» ليسوا من «أهل السنة» هو قول الحنابلة وأهل الحديث، فتعالوا نلقي بعض الضوء، على الصراع المذهبي، بين الأشعرية والحنابلة وأهل الحديث، لنجيب على سؤال:

هل ثوابت الدين الإلهي يمكن أن تنطلق من قواعد مذهبية، وهل ما يحدث اليوم من تخاصم بين مؤسسة الأزهر والجماعات السلفية لم يكن وليد اليوم؟!

يقول شيخ أهل السنة والجماعة، أبو الحسن الأشعري «ت ٣٢٤ أو ٣٣٠هـ» في كتابه «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين»:

«اختلف الناس بعد نبيهم في أشياء كثيرة، ضلل فيها بعضهم بعضا، وبرئ بعضهم من بعض، فصاروا فرقا متباينين وأحزابا متشتتين ...».

ثم تكلم عن هذه الفرق: الشيع والخوارج والمرجئة والمعتزلة والجهمية والضرارية والحسينية والبكرية، والعامة وأصحاب الحديث والكلابية أصحاب عبد الله بن كلاب القطان ... وما تفرع عنها مذاهب عقدية وفقهية.

ويقول في كتابه «الإبانة عن أصول الديانة» فصل في إبانة قول أهل الحق والسُنّة عن مصادر التشريع:

«إن قال لنا قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافعة والمرجئة، فعرفونا قولكم الذي به تقولون وديانتكم التي بها تدينون، قيل له:

قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها، التمسك بـ «كتاب الله» عز وجل وبـ «سُنّة نبينا محمد»، وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون»

أقول:

هذا هو حال أئمة السلف حتى الربع الأول من القرن الرابع الهجري، كل فرقة تقول إن «دين الإسلام» كتابٌ وسُنّةٌ، وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، فإذا ذهبنا إلى هذه «السُنّة» وجدناهم قد اختلفوا في مروياتها اختلافا كبيرا يُسقط حجيتها من قواعدها، فهل هناك عاقل يقبل أن تكون «مرويات السُنّة» التي خضعت إلى جرح وتعديل رواتها وتصحيح وتضعيف مروياتهم، أن تكون «ثوابت الدين الإلهي»؟!

٢- فإذا ذهبنا إلى ما حدث «عام ٤٤٧هـ» من تخاصم وتقاتل وتكفير بين الحنابلة وأهل الحديث، وبين «الأشاعرة» بسبب مسألة «الجهر بـ البسملة في الصلاة» نجد:

أن «الحنابلة» توجهوا إلى أحد مساجد «الأشاعرة» ونهوا إمامه عن الجهر بـ البسملة، وتطور النزاع حول هذه المسألة الفقهية الفرعية إلى الاقتتال، وكان جانب الحنابلة هو الأقوى، والتزم «الأشاعرة» البيوت ولم يخرجوا لحضور صلاة الجمعة ولا الجماعات خوفا من الحنابلة.

المرجع: (ابن الجوزي/ المنتظم، ابن الأثير/ الكامل، ابن كثير/ البداية والنهاية)

ولم يكن الحنابلة وأهل الحديث قبل «عام ٤٦٩هـ» يُمكّنون «الأشاعرة» من إظهار مذهبهم على رؤوس الأشهاد، فلما جاء ابن القشيري «ت٥١٤هـ» وذم «الحنابلة ووصفهم بالتجسيم، حدثت معارك دموية بين الحنابلة والأشاعرة قُتل فيها نحو عشرين شخصا من الجانبين، وجُرح آخرون، وكانت هي الأخطر، منذ نشوب الصراع العقدي بين مذاهب «أهل السنة»)

المرجع: (ابن أبي يعلى/ طبقات الحنابلة)

ثانيًا:

عندما تنص دولة إسلامية في دستورها على أن «الإسلام» دين الدولة، و«اللغة العربية» لغتها الرسمية، و«مبادئ الشريعة الإسلامية» المصدر الرئيسي للتشريع، والمؤسسة الدينية الرسمية هي المرجعية في تفسير هذه المبادئ، فإن علينا أن نسأل:

إذا كانت «مبادئ الشريعة الإسلامية» هي المصدر الرئيسي للتشريع:

١- ما هي هذه المبادئ وما هو مصدرها، هل هو كتاب الله أم الكتاب والسُنّة؟!

٢- وإذا كان مصدر هذه المبادئ «الكتاب والسُنّة» فـ «كتاب الله» لا خلاف على مرجعيته الإلهية بين المسلمين جميعًا، أما «السُنّة» فلا يوجد اتفاق أصلًا على «مروياتها» التي هي مصدرها الوحيد، فكيف تستقى «مبادئ الشريعة الإسلامية» من مصدر روائي صنعه الرواة والمحدثون بعد وفاة رسول الله محمد بقرنين من الزمن؟!

٣- وعندما يكون «المذهب الأشعري» اليوم هو مذهب المؤسسة الدينية الرسمية للدولة، ويعتبر أتباع هذه المذهب أن مذهبهم هو ما كان عليه رسول الله وصحابته، ثم نجد أن أتباع كل مذهب يقولون نفس الكلام على مذهبهم، وهذه المذاهب العقدية والفقهية تعتبر «مرويات السُنّة» المصدر الثاني للتشريع، فعن أي «شريعة» يتحدثون عندما يقولون إن «مبادئ الشريعة الإسلامية» هي المصدر الرئيسي للتشريع؟!

٤- إن أتباع كل فرقة من الفرق الإسلامية يرون أن مصدرهم الثاني للتشريع هو الذي حمل «السُنّة النبوية» التي كان عليها رسول الله محمد، فإذا سألناهم عن المصدر الذي استقوا منه هذه «السُنّة النبوية» قالوا إنه أمهات كتب الفرقة التي ولدوا فيها، أي أن أتباع الفرق الإسلامية جميعًا أعطوا ظهورهم:

(أ): لقول الله تعالى «البقرة / ١٧٠»:

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ – قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا – أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ – لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً – وَلاَ يَهْتَدُونَ»

(ب): لقول الله تعالى «لقمان / ٢١»:

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ – قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا – أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ – يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ»

(ج): لقول الله تعالى «الأنبياء / ٩٢-٩٣»:

«إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ – وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ»

هل يمكن أن تكون «الحكمة» مرويات بشرية

إن المنهجية العلمية التي تحمل أدوات لفهم القرآن والمستنبطة من ذات النص القرآني تفرض علينا الإجابة على سؤال: لماذا تفرق المسلمون في دين الله، وتخاصموا وتقاتلوا، وتخلفوا عن ركب التقدم الحضاري، وهم يحملون كتاب الله الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور؟!

يقول الله تعالى «إبراهيم / ١»:

«الر – كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ – لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ – إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ»

والجواب: لأن إبليس قال لله تعالى «الحجر / ٣٩-٤٠»:

«قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي – لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ – وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ – إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ»

ولقد حقق إبليس إغواءه في حياة رسول الله محمد وبعد وفاته فقال الله تعالى لـ الذين كانوا يقاتلون معه العدو «آل عمران / ١٤٤»:

«وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ – أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ – انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ – وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ – فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً – وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ»

ولقد انقلب المسلمون بعد موت رسول الله محمد بعد أن زين إبليس لهم في الأرض، وبعد أن أغواهم أجمعين فـ تفرقوا إلى مذاهب عقدية وفقهية، إلا قلة من المؤمنين الْمُخْلَصِينَ، وأصبح لكل فرقة منابر دعوتها الخاصة بها، تحدث الناس باعتبارها «الأمة الإسلامية» الحاملة لـ «دين الإسلام» ولـ «السُنّة النبوية» الصحيحة.

فإذا سألتهم القلة المؤمنة: هل في كتاب الله دليل على أن هذه «السُنّة النبوية» وحي من الله تعالى قالوا نعم لقد سمّاها الله «الحكمة»:

يقول تعالى «النساء / ١١٣»:

«وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ – الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ – وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ – وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا»

ويقول تعالى «الأحزاب / ٣٤»:

«وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ – مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ – إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا»

والسؤال:

إذا كانت «الحكمة» المنزلة والمتلوة التي ذكرها الله تعالى في القرآن هي «مرويات السُنّة» التي إن صحت عند فرقة لم تصح عند أخرى، فلماذا لم يستخدم الصحابة الكلمة القرآنية «الحكمة» للتعبير عن «السُنّة النبوية» والتي تعتبر من «الذكر» الذي تعهد الله تعالى بحفظه؟!

إن من له أدنى دراية بـ «علم السياق القرآني» يبحث عن كلمة «الحكمة» التي ذكرت في سياق الحديث عن تنزيل الذكر الحكيم ليقف على معناها، ولقد وردت الكلمة في سياق الآيات «الإسراء / ٢٢-٣٩» حيث قال الله تعالى لرسوله محمد، عليه السلام:

«ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ - وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ - فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا»

إن اسم الإشارة «ذَٰلِكَ» يعود إلى جميع ما ذكر من الأوامر والنواهي التي وردت في الآيات قبلها، وجاءت «مِنَ» التبعيضية «مِنَ الْحِكْمَةِ» لبيان أن هناك أحكامًا أخرى في كتاب الله غير التي وردت في هذه السورة، وهي أيضا من «الحكمة» المنزلة.

إذن فـ «الحكمة المنزلة» التي وردت في سورة النساء:

«وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ»

وأيضا الحكمة «المتلوة» التي وردت في سورة الأحزاب:

«وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ»

هي مجموع أحكام الشريعة «الحكيمة» التي حملتها آيات الذكر الحكيم.

ونلاحظ أن قول الله تعالى «مَا يُتْلَى» ثم قوله بعدها «مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ» يُبيّن أن «المتلو» يشمل آيات وحكمة، و«التلاوة» لم تذكر في سياق التنزيل إلا وكان يقصد بها تلاوة آيات الذكر الحكيم.

إن «الحكمة المتلوة» التي ذكرت في سورة الأحزاب هي ما يجب أن يُتلى في بيوت المسلمين من أحكام الشريعة أسوة ببيوت النبي، فقول الله تعالى «وَاذْكُرْنَ» أمر بمذاكرة وتذكر «مَا يُتْلَى» من آيات الذكر الحكيم، وخاصة الآيات التي حملت أحكام القرآن القاعدة الأساس التي تقوم عليها تزكية النفس.

وإن «الحكمة المنزلة» التي ذكرت في سورة الإسراء، بدأ سياقها بالإقرار بـ «الوحدانية»:

«لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً»

وانتهى «الآية ٣٩» بتأكيد الإقرار بالوحدانية»:

«ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنْ الْحِكْمَةِ - وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ - فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً»

فهل يُعقل أن تتساوى حجية هذه الأحكام الحكيمة، قطعية الثبوت عن الله تعالى، قطعية الدلالة، والقائمة على العمل بمقتضيات «الوحدانية»، مع «مرويات السُنّة» التي صنعها المحدثون

بأيديهم حسب مذاهبهم العقدية والفقهية، وحسب مدارسهم في الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف؟!

أقول: يستحيل أن تكون «الحكمة المنزلة» مصدرًا تشريعيًا مستقلًا عن كتاب الله ثم لا يأمر الله رسوله محمدًا بتدوينها كما دوّن كتاب الله ويترك هذه المهمة للمسلمين الذين «فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا».

إن عطف الحكمة على الكتاب في سورة النساء «الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ»، وعطف الحكمة على الآيات في سورة الأحزاب «آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ» يُعرف بعطف الخاص الذي هو «أحكام القرآن» على العام الذي هو «آيات الذكر الحكيم».

إن «الحكمة المنزلة» هي القواعد والأحكام القرآنية «الحكيمة» المنظمة لحياة الناس.

و«الفرقان المنزل» هو آلية التفريق بين الحق والباطل.

و«النور المنزل» هو المنهج الهادي إلى صراط الله المستقيم.

و«الميزان المنزل» هو القوانين والسنن التي يقيم عليها الناس حياتهم.

وكلها «صفات بيان» لآيات الكتاب الحكيم.

لقد دعا إبراهيم، عليه السلام، ربه فقال «البقرة / ١٢٩»:

«رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ – يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ – وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ»

فهل كان إبراهيم، عليه السلام، يقصد بتعليم «الحكمة» تعليم «مرويات السّنُة» وعلوم الحديث وكيفية التمييز بين الحديث الصحيح والضعيف حسب اجتهادات علماء الحديث في كل فرقة من الفرق الإسلامية؟!

إن «المتلو» الذي يتعلم منه الناس دينهم هو آيات الكتاب:

«يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ»

التي يستحيل أن يخرج عنها القائم على العملية التعليمية، ولذلك قال الله تعالى:

«وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ»

لبيان أن «الحكمة المنزلة» من «علم الكتاب».

واللافت للنظر أن من «الحكمة» التي أوحاها الله إلى رسوله قوله تعالى «الإسراء / ٣٦»:

«وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ – إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ – كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً»

و«القفو»: الاتباع، ولقد حرّم الله تعالى الاتباع بغير علم، فهل اتبع المسلمون «الحكمة المنزلة» أم اتبعوا «مرويات السنة» المصنّعة؟!

لقد اتبعوا «مرويات السنة» المصنّعة، وألبسوه لباس «الحكمة المنزلة» لتأخذ قدسية في قلوب أتباعهم، وانقسموا إلى فرق ومذاهب عقدية وفقهية ما أنزل الله بها من سلطان، وتعاملوا مع أحكام القرآن من خلال هذه المرويات التي يؤمنون بأنها وحي إلهي واجب الاتباع.

«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ – فَأَعْرَضَ عَنْهَا – وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ – إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ – وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا – وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ – فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا»

هل فسر النبي القرآن بـ مرويات السُنّة النبوية؟!

خلال رحلتي من الإيمان الوراثي إلى الإيمان العلمي القائم على الحجة والبرهان، قررت أن أقوم بجمع كل المرويات المتعلقة بتفسير النبي للقرآن، صحيحها وضعيفها، لأقف على حقيقة «السُنّة النبوية» المفسرة لكتاب الله التي يحكم أئمة السلف والخلف على منكرها بالردة، وإن لم يتب قتلوه.

وأثناء إعداد هذه الدراسة، وقع في يدي كتاب بعنوان «الصحيح المسند من التفسير النبوي للقرآن الكريم» للشيخ أبي محمد السيد إبراهيم بن أبي عمة، تحقيق ومراجعة الشيخ مصطفى العدوي، الذي قال في مقدمته:

«ولأنّ القرآن نزل على رسول الله، فلا شك أنه عليه السلام أعلم الناس بتأويله فعليه أنزل، وبلسانه تلي، وبسنته فسر، قال الله تعالى «النحل / ٤٤»:

«وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»

فسنة رسول الله كلها تفسير للقرآن، وبيان لمعانيه وألفاظه وأحكامه»، انتهى.

فإذا أردنا أن نقف على هذه «السُنّة النبوية» المبينة لمعاني وألفاظ وأحكام القرآن، من خلال ما ورد في هذا «الصحيح المسند من التفسير النبوي للقرآن الكريم»، وجدنا، على سبيل المثال، أن عدد الآيات التي وردت في «البقرة /٧» آيات وردت فيها أحاديث صحيحة مرفوعة إلى النبي، حسب «قواعدهم المذهبية» في التصحيح والتضعيف، من مجموع «٢٨٦» آية، وهذه الندرة نجدها أيضا في باقي السور.

فأقول:

إن توظيف قوله تعالى:

«وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»

لإعطاء شرعية للمصدر الثاني التشريعي المفترى على الله ورسوله، والذي حمل منظومة التطرف الديني وسفك الدماء بغير حق على مر العصور، مصيبة كبرى حلت بتدين المسلمين، فتعالوا نتعرف على معنى هذه الآية من خلال السياق الذي وردت فيه، لنقف على حقيقة هذا التوظيف المذهبي لها.

لقد سمى الله أهل الكتب الإلهية بأهل الذكر، فقال تعالى «الأنبياء / ٧»:

«وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ»

وقال الله تعالى «النحل / ٤٣-٤٤»:

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ - فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ»

«بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ - وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ - وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»

وإن المتدبر للسياق الذي وردت فيه الآيتان يعلم أن الخطاب القرآني ليس لـ «الذين آمنوا» برسول الله محمد، وإنما لـ «المكذبين» لرسالته، فجاء يأمر النبي أن يُبيّن لهم أن الله تعالى لم يرسل رسلا من النساء أو من الملائكة، وإنما من الرجال:

«وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ»

وأن عليهم أن يتأكدوا من ذلك بسؤال أهل الكتب السابقة:

«فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ»

إذن فالقضية التي كانت مثارة ونزل القرآن لبيانها هي قضية الخلاف بين أهل الكتاب حول ماهية وطبيعة الرسل، فأمر الله رسوله محمدًا أن يُظهر لهم حقيقة ما اختلفوا فيه، وهذا ما بيّنه قبل ذلك قول الله تعالى «النحل / ٣٩»:

«لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ - وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ»

وما بيّنه قول الله تعالى «النحل/ ٦٤»:

«وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ - إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ - وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»

إن قول الله تعالى:

«وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ»

ليس أمرا للرسول ليُبيّن للمسلمين القرآن، لأن المقصود بـ «الناس» هنا المكذبون من أهل الكتاب برسالة النبي، هؤلاء الذين اختلفوا حول نبوة محمد و«مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» من كتب، وليس حول القرآن «الذكر» المنزل على محمد، وهذا ما أفاده اسم الموصول «مَا» وصلته «نُزّل» لأنه لو

كان «الذكر» المنزل على رسول الله محمد هو نفسه «مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» من كتب، لجاءت الجملة «لتبينه للناس» أي القرآن، وليس «لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ».

إن «الذكر» الذي أنزله الله على رسوله محمد، وهو تفاعل «الكلمة» القرآنية مع «مقابلها الكوني» الموجود خارج القرآن، والذي «يُذكر» الناس بمعناها، جاء مبينًا لغيره مما نزل على أهل الكتاب «الناس» من رسالات يكشف ما أخفوه وحرفوه منه، وهذا ما بيّنه قول الله تعالى «المائدة / ١٥»:

«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ – قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنْ الْكِتَابِ – وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ – قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ»

ويكون المعنى «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْر»، أي القرآن، «لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ»، أي المكذبين، حقيقة «مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» في كتبهم وأخفوه واختلفوا فيه.

فكيف يُحول أئمة السلف الخطاب القرآني من أهل الكتاب إلى المسلمين بهدف توظيف هذه الآية لخدمة حجية «الأحاديث» التي نسبوها إلى رسول الله محمد، والتي ألبسوها هم وأئمة الخلف لباس «السُنّة النبوية» لتأخذ قدسية في قلوب أتباع كل فرقة؟!

إن «البيان» في السياق القرآني يأتي بمعنى «الإظهار»، أي إظهار الحق، أو إظهار الحكم الشرعي، أو إظهار خبر...، حسب السياق الذي وردت فيه الكلمة، وهذا ما بيّنه الله لرسوله في قوله تعالى «القيامة / ١٦-١٩»:

«لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ – إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ – فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ – ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ»

فهل يُعقل أن يكون معنى «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ» أي ثم إنا علينا تفسير آياته عن طريق «مرويات السُنّة النبوية» التي إن صحت عند طائفة لم تصح عند أخرى؟!

إن قول الله تعالى «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ» يعني بيان القرآن كله وليس بيان جزء منه، فهل يعقل أن يخرج الرسول على قومه ويقول لهم: أنا رسول الله، وهذا القرآن هو «الآية» الدالة على صدق بلاغي عن الله، ولكن لابد أن أفسر لكم نصوصها كلها حتى تستطيعوا أن تأتوا بمثلها؟!

إن آيات القرآن الحكيم جاءت ظاهرة للناس جميعًا وليست في حاجة إلى من يُظهرها وإنما إلى من يفهم معاني كلماتها و«مقابلها الكوني» عن طريق «منظومة التواصل المعرفي».

فعندما يقول الله تعالى «يوسف / ١»:

«الر تِلْكَ آيَاتُ – الْكِتَابِ الْمُبِينِ»

ويقول الله تعالى «الدخان / ١٣»:

«أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ – رَسُولٌ مُبِينٌ»

ويقول الله تعالى «التغابن / ١٢»:

«فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا – الْبَلاغُ الْمُبِينُ»

فإن كلمة «مبين» لا تعني التفسير وإنما الإظهار الواضح الذي لا لبس فيه.

وسأضرب بعض الأمثلة على معنى «البيان» في القرآن:

١– عن أحكام الخمر والميسر، وأحكام اليتامى، يقول الله تعالى «البقرة / ٢١٩»:

«يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ – قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ – وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا – وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ – قُلْ الْعَفْوَ – كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الآيَاتِ – لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ»

تدبر: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الآيَاتِ – لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ»

٢– عن نكاح المشركين والمشركات، يقول الله تعالى «البقرة / ٢٢١»:

«وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ – وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ – وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا – وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ – أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ – وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ – وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»

تدبر: «وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»

٣– عن المحيض، وإتيان النساء، وأحكام الطلاق، يقول الله تعالى «البقرة / ٢٣٠»:

«فَإِنْ طَلَّقَهَا – فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ – فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا – إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ – وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ – يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»

تدبر: «وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»

٤– وفى ختام أحكام الطلاق، ومتعة المتوفى عنها زوجها، يقول الله تعالى «البقرة / ٢٤٢»:

«كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»

فهذا معنى «البيان» كما ورد في بعض أحكام سورة البقرة، والتي ختمت آياتها بقول الله تعالى:

«لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ – لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ – لِقَوْمٍ يَعْلَمُون – لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»

فهل فكر وتذكر وعلم وعقل أئمة السلف والخلف أن «البيان» في القرآن لا يعني التفسير بـ «مرويات السُنّة» التي جاءت تسفك الدماء بغير حق، فترجم الزانية والزاني، وتقتل المرتد؟!

هل فهم أئمة السلف والخلف معنى «آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ» في قول الله تعالى «النور / ١»:

«سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا – وَفَرَضْنَاهَا – وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ – لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»

ثم قول الله بعدها «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»؟!

فإذا بـ «البيان» يأتي بعد ذلك فيقول الله تعالى «النور / ٢»:

«الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ»

ولم يفرق «البيان» بين «محصن» و«غير محصن»؟!

والسؤال:

هل يمكن أن تأتي عقوبة «الجلد» في القرآن قطعي الثبوت عن الله تعالى، وتأتي عقوبة «الرجم» في «مرويات السُنّة» ظنية الثبوت عمن نقلوها؟!

أقول:

هل بعد هذا من تطرف ديني، وإرهاب وسفك للدماء بغير حق، تحمله المؤسسات الدينية الرسمية وغير الرسمية في بلاد المسلمين، ثم إذا بهذه المؤسسات تطالب بمحاربة الإرهاب؟!

«وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ – إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ – وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ»

عندما تسقط الحلقة الأولى من حلقات السند الروائي

يرجع الاهتمام ببيان إشكاليات «المصدر الثاني للتشريع»، الذي يحمل «مرويات السُنّة النبوية»، إلى فريضة «النهي عن المنكر» التي قدمها الله عن الإيمان به عز وجل لبيان أهميتها فقال تعالى «آل عمران / ١١٠»:

«كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ – تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ – وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ»

ذلك أن كل ما أصاب المسلمين من تفرق في الدين وتخاصم وتقاتل، ويصيبهم إلى يومنا هذا بسبب مرويات وأحكام وفتاوى «المصدر الثاني للتشريع» التي يستخدمها علماء كل فرقة من الفرق الإسلامية لصالح توجهاتهم المذهبية المتصارعة باسم العمل بـ «الكتاب والسُنّة»، والذي يدفع الثمن هم المسلمون أنفسهم.

فتعالوا نُميّز بين فترتين من الزمن مر خلالهما هذا «المصدر الثاني للتشريع»:

الفترة الأولى:

فترة الرواة والإخباريين الذين شهدوا مسرح الأحداث، بداية بعصر الرسالة وحتى عصر التدوين، سنة «١٥٠هـ» تقريبا.

الفترة الثانية:

فترة عصر التدوين التي دوّن المحدثون والمؤرخون خلالها، نقلا عن الرواة والإخباريين، أمهات كتب «المصدر الثاني التشريعي».

فإذا ذهبنا إلى الفترة الأولى وجدنا أن «المرويات» كان يتداولها الصحابة والتابعون «شفاهة» ولم يخطر ببال أحد أن تدون هذه «المرويات» في يوم من الأيام في كتب باسم «المصدر الثاني التشريعي» يشمل العلوم الإسلامية من تفسير وحديث وفقه ...، باعتبار أن مثل هذا عمل يجب أن يكون تحت إشراف مؤسسة الخلافة الإسلامية، ولذلك لم تشهد هذه الفترة أي مدونات تحمل «المرويات» التي نسبها الرواة إلى رسول الله محمد.

وإذا ذهبنا إلى الفترة الثانية التي دوّنت فيها أمهات كتب العلوم الإسلامية، وجدنا أن أئمة السلف واجهوا مشكلة كبيرة عند تدوين الكتب وهي غياب مدونات الفترة الأولى الأمر الذي وقف عقبة أمام توثيق «المرويات والأخبار» التي وصلت إلى عصر التدوين.

ولمواجهة أزمة توثيق «المرويات والأخبار» ابتدع المحدثون قاعدة التوثيق بـ «إحسان الظن»، أي يقبلون «المرويات والأخبار» المنسوبة إلى الصحابة والتابعين بغض النظر عن وجود مدونات لهم بدعوى أن الرواة يستحيل أن يكذبوا على الصحابة والتابعين وبذلك يصبح توثيق «حلقات السند الروائي الأولى»، التي تشمل الصحابة والتابعين، توثيقًا يقوم على «حسن الظن» وليس توثيقًا علميًا حقيقيًا.

والسؤال:

هل كان المحدثون يعلمون أن سقوط حلقة «الصحابة والتابعين» يعني سقوط «السند الروائي» كله، وذلك عند التحقيق العلمي القائم على المخطوطات التي بين بيده؟!

والجواب:

نعم كانوا يعلمون، ولذلك لم يستطيعوا القول بـ «قطعية» ثبوت الأحاديث عن رسول الله، وقالوا بـ «ظنيتها»، ولكن الغريب أن مع علمهم بسقوط حجية هذه الأحاديث كـ «شريعة إلهية» لعدم ثبوتها ثبوتًا قطعيًا عن الله تعالى ولا حتى عن رسول الله، جعلوها «مصدرًا تشريعيًا ثانيًا» يكفر منكره، وأصبح المساس بـ «أمهات» كتب هذا المصدر مساسًا بـ «القرآن».

ثم ماذا عن إشكاليات أمهات الكتب الجامعة للحديث التي ظهرت في القرن الثاني والثالث والرابع الهجري، والتي دونت بجهود فردية دون توثيق رسمي من الخلافة الإسلامية، ولم يكن لها أي وجود في القرن الأول الأقرب إلى عصر الرسالة؟!

ولمواجهة أزمة التوثيق الرسمي قالوا إن «الأحاديث» كانت «مكتوبة» في عصر الرسالة ثم جمعت ودُونت في الكتب في عصر التدوين، وبذلك تكون متصلة الحلقات بعصر الرسالة، فإذا سألنا المحدثين: إذًا فأين الصحف التي «كتبها» الصحابة في عصر الرسالة؟! قالوا: اندثرت.

وإذا كانت مدونات القرن الأول الهجري قد اندثرت، فلماذا لم تندثر أيضا مدونات القرن الثاني، ومنها موطأ مالك «ت١٧٩هـ»، ولماذا لم تندثر مدونات القرن الثالث الذي ظهرت فيه أصح كتب الحديث عند أهل السنة وهي: البخاري «ت٢٥٦هـ»، مسلم «ت٢٦١هـ»، الترمذي «ت٢٧٠هـ»، ابن ماجة «ت٢٧٣هـ»، أبو داود «ت٢٧٥هـ»، النسائي «ت٣٠٣هـ»؟!

فهل كانت «أقوال الرواة» في القرن الأول الهجري مشكوكًا في صحة نسبتها إلى رسول الله، لذلك لم يدونها المحدثون، ثم «صحت» نسبتها في القرنين الثاني والثالث فقاموا بتدوينها؟!

هل هذا الكلام يقبله عاقل من أي ملة؟!

وهل يعقل أن تحمل مدونات القرنين الثاني والثالث «شريعة إلهية» واجبة الاتباع، ثم لا يكون لها «أصل» مُدوّن في القرن الأول «موثق» بمعرفة الخلافة الراشدة؟!

فتعالوا نتعرف على الصحف التي «قيل» أنها دُوّنت في القرن الأول الهجري، وتحديدا في عصر الرسالة، وهل كانت موضع «ثقة» عند المحدثين، وهل حقا أخذوا منها «الأحاديث» التي دوّنوها في كتبهم؟!

أولًا: الصحيفة الصادقة:

لقد أجمع المؤرخون على أن الذي كتب هذه الصحيفة هو «عبد الله بن عمرو بن العاص – ت ٦٣هـ» حسب ما ورد في «الطبقات الكبرى» لابن سعد «ت٢٣٠هـ»، عن مجاهد قال:

«رأيتُ عند عبد الله بن عمرو صحيفة، فسألته عنها فقال: هذه الصادقة، فيها ما سمعتُ من رسول الله ليس بيني وبينه أحد».

وكان عبد الله يحفظ هذه الصحيفة في صندوق خشية عليها من الضياع، ثم حفظها أهله من بعده، واستقرت عند حفيده «عمرو بن شعيب – ت١٢٠هـ» كـ أثر من آثار جده ولكنها لم تصل إلى عصر التدوين.

أما المحدثون فقالوا إن الصحيفة الصادقة وصلت إليهم بخمس روايات، وقد ضعف علماء الجرح والتعديل معظم رواتها، واختلفوا حول هذه الروايات سندا ومتنا، كما ذكر ذلك ابن حجر في «تهذيب التهذيب»، ولم ينقل أحد من المحدثين أحاديثه منها، لأنها لم تكن موجودة أصلا في عصر التدوين.

قال بدر الدين العيني في عمدة القارئ:

«ما لابن عمرو بن العاص من الحديث في كتب السنة، قد جاء عن طريق الرواية لا من سبيل الكتابة»

أى أن الذين رووا الأحاديث عن «عبد الله بن عمرو بن العاص» أخذوها من أفواه الرواة، وليس من صحيفته، وعن محتوى هذه الصحيفة، قالوا إنها احتوت على ألف «١٠٠٠» حديث، أخرج الإمام أحمد بعضها في مسنده بعنوان: «مسند عبد الله بن عمرو بن العاص»، وذكر الذهبي في ترجمة عبد الله بن عمرو، قال:

«يبلغ ما أسند سبعمائة «٧٠٠» حديث، اتفقا له على سبعة «٧» أحاديث، وانفرد البخاري بثمانية «٨»، ومسلم بعشرين «٢٠».

والسؤال:

لماذا لم يرو البخاري عن «عبد الله بن عمرو» أكثر من «سبعة» أحاديث، ولم يرو مسلم عنه أكثر من «عشرين» حديثا، إذا كان هو الذي كتب الأحاديث وهو بين يدي رسول الله؟!

وإذا كان عدد الأحاديث المسندة التي دونها «عبد الله بن عمرو» في صحيفته «٧٠٠» حديث، فكيف وصلت إلى:

- «١٠٠» ألف حديث في عصر مالك «ت١٧٩هـ»، كما ذكر في الموطأ.

- «٦٠٠» ألف حديث في عصر البخاري «ت٢٥٦هـ»، حسب قوله؟!

وإذا كان أحمد بن حنبل «ت٢٤١هـ» قد عاصر البخاري، فكيف وصل عدد الأحاديث التي استقى منها مسنده إلى «٧٥٠» ألف حديث، كما ذكر في مسنده؟!

ثم تعالوا نتعرف على المكانة العلمية لـ «عبد الله بن عمرو بن العاص» عند المحدثين، من خلال ما ذكره البخاري في صحيحه، باب كتابة العلم، عن أبي هريرة، قال:

«ما كان أحد أكثر حديثاً مني عن رسول الله إلا عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب»

إذًا فهناك صحابيان، مشهود لهما بالصلاح، وبالضبط والعدالة، أحدهما كان يحفظ الحديث عن ظهر قلب، والثاني كان يكتبه، فلماذا لم يجرؤ أحدهما، أو مجموع الصحابة، أو الخلفاء الراشدون، أن يجمعوا كل ما كُتب في عصر الرسالة في كتاب واحد، باسم «الأحاديث النبوية» ليرثها المسلمون مع كتاب الله؟!

إن «عبد الله بن عمرو بن العاص» كان ممن حاربوا علياً في «صفين»، فقد كان في صف معاوية، وولاه معاوية الكوفة، ولذلك لم يرو عن «عليّ بن أبي طالب» الحديث، في الوقت الذي

روى عن باقي الصحابة، وإن تسمية صحيفته بـ «الصادقة» جاءت ردا على صحيفة قيل إنها دُوّنت أيضا بين يدي رسول الله، وهي صحيفة «عليّ بن أبي طالب».

ألا يُشتم من ذلك رائحة الوضع، وأن هذا «المصدر الثاني للتشريع» صُنع صناعة مذهبية في عصر التدوين، ولم يكن له أي أثر قبل ذلك؟!

ثانيًا: صحيفة علي بن أبي طالب:

لقد وردت هذه الصحيفة أيضا بعدة روايات، ونقل الإمام أحمد في مسنده عن عليّ قال:

«والله ما عندنا كتاب نقرؤه عليكم إلاَّ كتاب الله تعالى، وهذه الصحيفة أخذتها من رسول الله، فيها فرائض الصدقة، معلقة بسيفٍ له»

فإذا نظرنا إلى مجمل ما جاء في هذه الرواية من فروض، وما جاء في غيرها، نجد أنها لا تمثل شيئًا يذكر مقارنة بـ «أحكام القرآن»، وإن ما ذكرته سابقًا عن حجية «الصحيفة الصادقة» ينطبق أيضا على هذه الصحيفة.

ثالثًا: الصحف الأخرى:

ذكر المحدثون أن هناك صحفا أخرى كتبت في القرن الأول الهجري، وهي:

- صحيفة جابر بن عبد الله الأنصاري.
- صحيفة سعد بن عبادة الأنصاري.
- سمرة بن جندب.
- عبد الله بن أبي أوفى.
- وما روي من قول محمد الباقر أبي جعفر: «إن عندي لصحيفة فيها تسعة عشر صحيفة قد حباها رسول الله»
- وقوله: «إن عندنا صحيفة من كتب عليّ بن أبي طالب طولها سبعون ذراعاً»

إن افتقاد القرن الأول الهجري لـ «مدونات الحديث» التي كتبها الصحابة والتابعون نقلا عن رسول الله مباشرة يسقط حجية «المصدر الثاني للتشريع» كشريعة إلهية، ولن يشفع لأئمة السلف والخلف يوم القيامة توثيقهم للصحابة والتابعين الأُوَل بـ «إحسان الظن»، لأن هذه القاعدة إن صحت عند أهل السنة لم تصح عند الشيعة لأنها قاعدة مذهبية كما يعلم ذلك أئمة الفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة.

إن جميع منابر الدعوة الإسلامية الرسمية وغير الرسمية منابر مذهبية، لذلك يستحيل مكافحة الإرهاب أو إدارة الخطاب الديني وإشكاليات الإسلام السياسي بنجاح، دون «التبرؤ الرسمي» من هذا المصدر التشريعي المذهبي الذي لا نجد منبرًا من منابر الدعوة الإسلامية إلا ويوظف مرويات وأحكام وفتاوى هذا المصدر لصالح مذهبه العقدي والفقهي، وأحيانًا التستر وراء «التقية» لتحقيق مصالح سياسية.

هل مرويات المصدر الثاني للتشريع وحي إلهي؟!

لقد اختلف المحدثون حول عدد الأحاديث النبوية الصحيحة الموجودة في أمهات كتب أهل السُنّة، والرأي الراجح الذي ذهب إليه ابن حجر في «النكت على ابن الصلاح» أن جملة الأحاديث المسندة، أي الصحيحة المتصلة السند بلا تكرار، تبلغ «٤٤٠٠» حديث.

فإذا نظرنا إلى عدد الأحاديث التي كانت منتشرة بين رواة أهل السُنّة في منتصف القرن الثالث الهجري، والتي أخرج أحمد بن حنبل «ت٢٤١هـ» منها مسنده، نجدها «٧٥٠٠٠٠» حديث، والتي أخرج منها البخاري «ت٢٥٦هـ» صحيحه، وجدناها «٦٠٠٠٠٠» حديث.

فإذا أردنا معرفة نسبة الصحة في مجموع الأحاديث التي كانت منتشرة ومتداولة بين الرواة في منتصف القرن الثالث الهجري، في عصر أحمد والبخاري، وجدناها ٠.٧٪ (٤٤٠٠ / ٦٠٠٠٠٠) وهي نسبة تُسقط حجية علوم الحديث كلها من قواعدها.

ولقد اتفق المحدثون على أن البخاري «ت٢٥٦هـ»، ومسلم «ت٢٦١هـ» هما أصح الكتب المصنفة في الحديث، ثم تأتي بعدهما في المرتبة الثانية كتب السنن: سنن الترمذي «ت٢٧٠هـ»، سنن ابن ماجه «ت٢٧٣هـ»، سنن أبي داود «ت٢٧٥هـ»، سنن النسائي «ت٣٠٣هـ»، ثم بعدها تأتي المسانيد في المرتبة الثالثة وفي مقدمتها مسند الإمام أحمد بن حنبل «ت٢٤١هـ».

فهل كان أصحاب هذه الكتب السبعة، الذين عاشوا جميعا في «القرن الثالث الهجري»، يعلمون أن نسبة صحة الحديث المنسوب إلى النبي لم تصل إلى الواحد الصحيح، وإذا كانوا يعلمون، فهل يُعقل شرعا أن يقوم على هذه النسبة «مصدر تشريعي إلهي»؟!

لقد ساعد «المصدر التشريعي الثاني» على تفرق المسلمين وتخاصمهم وتقاتلهم، فكلٌ يدعي أن مصدره هو الحق الذي كان عليه السف الصالح، فإذا سألناهم وهل كان السلف الصالح سُنّة وشيعة ومعتزلة وإباضية؟! نظروا إلينا نظر المغشي عليهم من الجهل.

إن البراهين القرآنية العلمية الساطعة تشهد أن مسألة جمع الحديث كانت مسألة اجتهادية شخصية لا علاقة لها بـ «مصدر تشريعي إلهي» وإلا لأشرفت مؤسسة الخلافة على تدوين مرويات هذا المصدر وما كان لعلوم الحديث أن تولد أصلًا.

يروي ابن حجر في مقدمة فتح الباري، نقلا عن البخاري قوله: كنا عند إسحاق بن راهويه فقال: لو جمعتم كتاباً مختصراً لـ «صحيح سنة رسول الله»، فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع الجامع الصحيح، وخرجت كتابي من ستمئة ألف حديث، أحفظ مئة ألف حديث صحيح، ومئتي ألف حديث غير صحيح، وجعلت كتابي حجة فيما بيني وبين الله تعالى، وما أدخلت في كتابي حديثاً إلا بعد أن استخرت الله وتيقنت صحته، وما تركت من الصحيح أكثر.

فها هو البخاري يشهد بنفسه أن مسألة جمع وتدوين الأحاديث وتصنيفها مسألة اجتهادية شخصية فيقول «فوقع ذلك في قلبي» أي أن هذه الأحاديث لا علاقة لها مطلقا بـ «وحي إلهي» وإنما كانت رؤية شخصية لـ «إسحاق بن راهويه» أعجب بها البخاري الذي توفي عام «٢٥٦هـ» أي في القرن الثالث الهجري.

والسؤال:

على أي أساس شرعي قال البخاري إن الأحاديث التي رواها في كتابه «الجامع الصحيح» كلها صحيحة وهو الذي ولد في نهاية القرن الثاني الهجري، وهل عندما يقول «وما أدخلت في كتابي حديثاً إلا بعد أن استخرت الله وتيقنت صحته» تصبح «الاستخارة» مصدرًا تشريعيًا ثالثًا؟!

وإذا كان البخاري قد تيقن من صحة كتابه «الجامع الصحيح» بعد أن استخار الله، فلماذا ذهب يعرضه على أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وعلي بن المديني، وغيرهم، ليراجعوه، فاستحسنوه وشهدوا له بالصحة؟! (انظر ابن حجر، مقدمة فتح الباري)

وإذا كان البخاري يعتبر أحمد بن حنبل إمامًا في الحديث، وميزانا في معرفة الصحيح من الضعيف، فلماذا لم يتبعه، وإذا كان أحمد يعتبر البخاري إماما في الحديث فلماذا لم يتبعه، ثم انظر ماذا يقول أحمد بن حنبل عن مسنده:

«إن هذا الكتاب قد جمعته وانتقيته من أكثر من ٧٥٠٠٠٠ حديث فما اختلف المسلمون فيه من حديث رسول الله فارجعوا إليه، فإن كان فيه وإلا ليس بحجة» (انظر طبقات الشافعية للسبكي «ت٧٧١هـ، والمصعد الأحمد، لابن الجزري «ت٨٣٣هـ»).

ويقول عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي رحمه الله تعالى: لم كرهت وضع الكتب وقد عملت المسند، فقال: عملت هذا الكتاب إماما، إذا اختلف الناس في سنة رسول الله رجعوا إليه. (خصائص مسند الإمام أحمد، لمحمد بن عمر الأصبهاني «ت٥٨١هـ»)

فها هو صاحب المرجعية الأولى لمنظومة التدين السلفى، يذهب إلى عدم حجية كل الأحاديث التى وصلت إلى عصره والتي لم يروها في مسنده، بما في ذلك أحاديث الكتب الستة، وفي مقدمتها البخاري ومسلم.

فإذا رجعنا إلى القرن الثاني الهجري، وجدنا أن معظم أحاديث موطأ مالك «ت١٧٩هـ» لم يروها أحمد في مسنده، وأن مالكا لم يُدوّن أحاديث الموطأ خوفا من ضياع مرويات السُنّة، وإنما طُلب منه ذلك، فقد ذكر الطبري في «تاريخ الرسل والملوك» روايتين عن سبب تدوين مالك للموطأ:

الرواية الأولى:

أن الخليفة المنصور العباسي، طلب من مالك أن يُدوّن كتابا جامعا في العلم، يتجنب فيه شدائد ابن عمر، ورخص ابن عباس، وأن يوطئه للناس، ويبعث به إلى الأمصار ليوحد العمل به، فألف كتابه هذا، وسماه «الموطأ».

انظر إلى هذا الشرط الذي وضعه المنصور للإمام مالك كي يلتزم به وهو يجمع أحاديث الموطأ «تجنب شدائد ابن عمر، ورخص ابن عباس»، انظر كيف كانت الأحاديث في عصر التدوين، في القرن الثاني الهجري، تُفصّل على هوى الخلفاء.

الرواية الثانية:

قول مالك: عرضت كتابي هذا على سبعين فقيها من فقهاء المدينة فكلهم واطأني عليه، فسميته «الموطأ» ثم جاء المهدي حاجا فسمعه مني وأمر لي بخمسة آلاف دينار ولتلاميذي بألف.

والسؤال:

لقد سبق موطأ مالك «ت١٧٩هـ» مسند الإمام أحمد بن حنبل «ت٢٤١هـ»، وصحيح البخاري «ت٢٥٦هـ»، وصحيح مسلم «ت٢٦١هـ»، بقرن من الزمان تقريبا، فما موقف المسند من أحاديث الموطأ، الذي كان يعيش صاحبه في دارا لهجرة «المدينة المنورة» التي كان يعيش فيها كثير من التابعين، يقول الرامهرمزي «ت٣٦٠هـ» وهو صاحب أول كتاب في علم أصول الحديث، كتاب «المحدث الفاصل بين الرواي والراعي»:

إن أول من صنف في الحديث ورتبه على الأبواب هم:

- ابن جريج «ت١٥٠هـ» بمكة.
- معمر بن راشد «ت١٥٤هـ» باليمن.
- الأوزاعي «ت١٥٧هـ» بالشام.
- الثوري «ت١٦١هـ» بالكوفة.
- الربيع بن صبيح «ت١٦٠هـ» وغيره بالبصرة.
- مالك «ت١٧٩هـ» وغيره بالمدينة.
- ابن المبارك «ت١٨١هـ» بخراسان.

- جرير بن عبد الحميد «ت١٨٨هـ» بالري.

فإذا نظرنا إلى هؤلاء المحدثين وجدناهم جميعا في عصر واحد عصر مالك، في القرن الثاني الهجري، فلماذا لم يجتمعوا على «كتاب واحد» في الحديث وهم الأقرب لعصر الرسالة من القرن الثالث الهجري؟!

إن معظم أئمة السلف والخلف، متفقون على أن موطأ مالك هو أقدم مؤلف في الحديث وصل إلينا من القرن الثاني الهجري، الأمر الذي جعل ابن الأثير «ت٦٠٦هـ»، يقدمه على سائر المحدثين في كتابه «جامع الأصول في أحاديث الرسول»، فيقول عبد القادر الأرنؤوط محقق الكتاب:

لقد عمد فيه المؤلف إلى الأحاديث التي وعتها الأصول الستة المعتمدة عند الفقهاء والمحدثين: الموطأ، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، والتي حوت معظم ما صح عن النبي الكريم».

فإذا ذهبنا إلى الزرقاني «ت١١٢٢هـ» شارح الموطأ، وجدناه يقول في مقدمته:

«قال يحي بن سعيد القطان «ت١٩٨هـ» ويحي بن معين «ت٢٣٣هـ»: مالك بن أنس أمير المؤمنين في الحديث. وقال عبد الرحمن بن مهدي «ت١٩٨هـ»: ما بقي على وجه الأرض آمن على حديث رسول الله من مالك بن أنس، ولا أقدم عليه في صحة الحديث أحدا»

وقال القاضي أبو بكر بن العربي ت٥٤٣هـ: «الموطأ هو الأصل واللباب، وكتاب البخاري هو الأصل الثاني في هذا الباب، وعليهما بنى الجميع، كمسلم والترمذي». (عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي).

والسؤال:

لماذا اشتهر البخاري «ت٢٥٦هـ» بأنه أصح كتاب بعد كتاب الله، ولم يشتهر موطأ مالك «ت١٧٩هـ»، وهناك فريق من المحدثين يشهدون أنه هو الأصل الأول والبخاري الثاني؟!

إن ما سبق بيانه مجرد مثال يكشف حقيقة ما يسمى بـ «المصدر الثاني للتشريع»، الذي يدعي أئمة السلف والخلف من الفرق الإسلامية كلها، أنه حمل «مرويات السُنّة النبوية» واجبة الاتباع.

إن «المصدر الثاني للتشريع»، عند جميع الفرق والمذاهب المختلفة، تراث ديني مذهبي، لا علاقة له بالدين الذي أمر الله اتباعه فقال تعالى:

«وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا - فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ - وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ»

السنة النبوية حقيقة قرآنية قبل ظهور الفرق والمذاهب المختلفة

«إن الدارس لكتاب الله تعالى، يعلم علم اليقين، أن الذي بلّغ نصوص آياته، هو رسول الله محمد، ومن خلال تدبر هذه الآيات، يرى الإنسان رسول الله، وهو يقيم كل آية من آيات هذا الكتاب، سلوكا عمليا في واقع حياته، الخاصة والعامة. وإذا كانت «السنة» هي الطريقة المطردة، التي لا تتخلف، كما أجمعت على ذلك معاجم اللغة «مادة سنن»، فيجب أن تكون النصوص التي تستقى منها، أيضا حقا لا تتخلف».

بهذه الفقرة، بدأت مقدمة الجزء الأول من موسوعة «السنة النبوية حقيقة قرآنية – قبل ظهور الفرق والمذاهب المختلفة»، «عام ٢٠٠٥م»، تقديم الأستاذ/ الدكتور عبد الصبور شاهين، الذي قال في مقدمته:

«إن الجهد الذي بذله الدكتور محمد مشتهري في تأليف هذا الكتاب، طبقا لفكرته عن «تفعيل النص القرآني»، لم يسبق أن بذل مثله مؤلف صاحب فكرة بناءة كهذه الفكرة، وإنه ليستحق أن يهنأ بما حالفه من توفيق الله وعونه».

وسأهتم في هذا المقال بتحرير مصطلح «السُنّة» من كل لبس أصابه، أو انحراف عن معناه القرآني واللساني.

إن «السُنّة» طريقة أداء ثابتة، لا تتخلف، وسلوك وتصرفات عملية، تحدث في واقع الحياة، وليست نصا يُتلى على الناس، ويُدوّن في الكتب، فإذا أضيفت إلى الله تعالى فإنها تعني القوانين الثابتة التي قامت عليها فعالية الرسالات الإلهية وفعالية أسماء الله الحسنى في هذا الوجود، يقول الله تعالى:

«مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ»

«يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ، وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ، وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»

إن الله تعالى هو الذي يُبيّن للناس شريعتهم «يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ»، وهو الذي يهديهم إلي سنن الأولين «وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ»، ويستحيل أن يخترق الباطل بيان الله ويُحوله إلى «مرويات» مذهبية تخضع لتصحيحات البشر وتضعيفاتهم.

فإذا أضيفت كلمة «السُنّة» إلى «الرسول» فإنها تعني «البلاغ» الدائم الثابت لـ «رسالته» الذي يستحيل أن يخترقه الباطل ويتحول إلى روايات مذهبية في يوم من الأيام لأن «الرسول» وهو في مقام «البلاغ» عن الله يكون «معصومًا»:

يقول الله تعالى «المائدة / ٦٧»:

«يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ – بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ – وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ – وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ – إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ»

إن «الرسالة» التي أمر الله «رسوله» أن يبلغها للناس، وأمر الناس اتباعها، محفوظة بحفظ الله لها، وهذه «سنة الله» مع رسله أن يعصمهم أثناء البلاغ من الناس:

يقول الله تعالى «الإسراء / ٧٦»:

«وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ – لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا – وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا – سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا – وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا»

إن سُنّة الرسل سُنّة الله «وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا» فهل يمكن أن تتحول «سُنّة الله» ويتحول بلاغ الرسل عن الله، إلى بلاغ «المحدثين» عن الرواة؟!

فإذا أضفنا كلمة «السُنّة» إلى «النبي» فإنها تعني فعالية وحي «النبوة» مع أحداث ومواقف عصر التنزيل واكتمال الدين، هذه الفعالية المرتبطة ارتباطًا وثيقًا بـ «بشرية النبي» التي تخضع للعتاب والتوجيه والتصحيح:

يقول الله تعالى «آل عمران / ١٦١»:

«وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ – وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»

ويقول الله تعالى «الأنفال / ٦٧»:

«مَا كَانَ لِنَبِي أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى – حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ»

ويقول الله تعالى «التحريم / ١»

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ – تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ»

إن ما شاء الله أن يعلمه الناس من تشريعات ومواقف وأحداث عصر «النبوة» نزل به قرآن كان هو المرجعية التي يستقي منها «النبي» سنته المصاحبة له دوما سلوكا عمليا على أرض الواقع.

وإنه لمن الجهل والعبث بدين الله تعالى أن تُوظف الآيات القرآنية التي أمرت بطاعة الرسول واتباعه والاقتداء به والتحاكم إليه ... لصالح «مرويات» رواة الفرق المختلفة، ولإعطاء شرعية لها كمصدر ثان للتشريع:

يقول الله تعالى «النساء / ٦٥»

«فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ – حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ – ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ – وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً»

فهل يعقل أن يتساوى من عاصروا الرسول، وسمعوا حديثه منه مباشرة، مع من جاؤوا من بعده، ونقلوا كلامه شفاهة، حتى جاء عصر التدوين، فدوّن «المحدثون» هذا الكلام من على ألسنة الرواة بعد أن أصبح «روايات»؟!

هل يعقل أن يتساوى من وجد في نفسه حرجًا من حكم الرسول بعد أن سمعه منه مباشرة، مع من وجد في نفسه حرجًا من «المرويات» التي دوّنها «المحدثون» بعد وفاة الرسول بقرن من الزمن على أقل تقدير؟!

إن غياب المنهجية العلمية في التفكير، جعل أنصار الفُرقة والمذهبية يحرّفون مفهوم «السُنّة النبوية» عن معناه القرآني واللساني ليصبح كل ما صدر عن «النبي» من قول أو فعل أو تقرير، حسب آراء واجتهادات وقرار أئمة الجرح والتعديل المذهبية، هو «السُنّة النبوية» واجبة الاتباع.

واللافت للنظر أننا لو بحثنا في القرآن كله عن آية واحدة تأمر الناس باتباع كتاب تشريعي مستقل عن كتاب الله، يرثه المسلمون بعد وفاة النبي باسم «السُنّة النبوية» أو «الحديث النبوي» فلن نجد، ونجد آيات كثيرة تثبت أن المسلمين لا يرثون إلا كتاب الله وحده:

يقول الله تعالى «فاطر / ٣٢»:

«وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ – مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ – إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ – ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا»

يقول الله تعالى «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ»، ويقول أنصار ودعاة الفُرقة والمذهبية «ثم أورثنا الكتاب والسُنّة»، فإذا لم يكن ذلك تقوّلا على الله ورسوله بغير علم، فماذا يكون؟!

إنه لمن الخطر الكبير على ملة «الوحدانية»، وعلى عصمة «النبوة»، وعلى حكمة «التشريع الإلهي»، أن يتبع المسلمون مصادر تشريعية لم يتعهد الله تعالى بحفظها، ولم يشهد رسول الله تدوينها، ولم يُشرف الخلفاء الراشدون على تدوينها، ومع ذلك اعتبرها أئمة السلف من ثوابت الدين التي يحرم المساس بها، والتي يكفر من ينكرها.

طبعا، سيخرج علينا أنصار الفُرقة والمذهبية رافعين سلاح «إنكار السنة» استنادًا إلى شبهة واهية تقول إن «مرويات السُنّة» هي التي جاءت بتفصيل «أحكام الصلاة» فإذا أسقطنا «المرويات» سقط معها ركن رئيس من أركان الإسلام وهو «إقامة الصلاة»، من أجل ذلك قلت:

إن «السُنّة النبوية» ليست تراثًا روائيًا مذهبيًا تتخذه كل فرقة لتدعيم توجهاتها العقدية والفقهية المختلفة، وإنما هي «حقيقة قرآنية» قامت على تفعيل «الرسول» لـ «النص القرآني» في عصر التنزيل، وتفعيل كافة المسلمين لذات «النص القرآني» على مر العصور وفق إمكاناتهم العلمية والمعرفية.

«أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ – وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ – لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا»

عندما يدعي علماء المذهب العقدي أنهم الأمة الإسلامية

في إطار الرد على الشبهات الموجهة إلى «السنة النبوية» قامت هيئة كبار علماء فرقة من الفرق الإسلامية بالرد على الموضوع السابق «السُنّة النبوية حقيقة قرآنية قبل ظهور الفرق والمذاهب المختلفة» وقالوا في ردهم إن فحوى شبهتي تتمثل في:

أن «القرآن» هو المصدر الوحيد للتشريع، وأن «السُنّة النبوية» ليست المصدر الثاني للتشريع، وإنما هي تفعيل الرسول للنص القرآني، وهي سلوك وتصرفات عملية تحدث في واقع الحياة، وليست نصا يتلى على الناس ويُدوّن في الكتب، وأننا لو بحثنا في القرآن كله عن آية واحدة تأمر الناس باتباع كتاب تشريعي مستقل غير القرآن لا نجد، وسنجد آيات كثيرة تثبت أن المسلمين لا يرثون إلا كتابا واحدا وهو القرآن، وأن «السُنّة» لم يحفظها الله كما حفظ القرآن.

فأقول:

إن علماء المؤسسات الدينية الرسمية وغير الرسمية، للفرق والمذاهب المختلفة، يفتقدون «المنهجية العلمية» في ردهم على الشبهات الموجهة لـ «دين الإسلام».

أولًا:

إن علماء الفرق الإسلامية، الذين يقومون بالرد على الشبهات الموجهة لـ «دين الإسلام»، لا يدرسون موضوع الشبهة وفق أصول البحث العلمي وإنما وفق أصول مذاهبهم العقدية والفقهية، الأمر الذي يجعلهم يُسارعون باتهام الناس بغير علم، والحكم عليهم بالردة بدعوى مخالفة ما هو معلوم بالضرورة.

واللافت للنظر أن الذين قاموا بالرد على الموضوع السابق، من علماء أهل السُنّة، لا يعلمون أني لا أوجه الكلام إلى فرقة من الفرق الإسلامية بعينها إلا على سبيل ضرب المثل لبيان مشكلة عامة تتعلق بجميع الفرق، الأمر الذي يستلزم تشكيل لجنة من علماء الفرق الإسلامية كلها للرد على ما أكتبه.

ولذلك فإن ردي على اتهام علماء أهل السُنّة لي بـ «إنكار السُنّة» لن أوجهه لهم وإنما سيكون بيانًا لمفهوم «السُنّة النبوية» عند جميع الفرق والمذاهب العقدية والفقهية المختلفة.

ثانيًا:

إن مصطلح «إنكار السُنّة»، الذي يرفعه أتباع كل فرقة في وجه من «أنكر مروياتها»:

مصطلح هلامي لا تستطيع أن تمسك به وذلك لأن مرويات «السُنّة النبوية» ذاتها «هلامية» إذا أمسكت الضعيف منها وجدت من يخرجه من يدك بدعوى أنه يراه صحيحًا وفق مذهبه في الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف.

لقد وجه علماء أهل السُنّة لي الاتهام بـ «إنكار السنة»، لأنني أعتقد:

١- أن القرآن هو المصدر الوحيد للتشريع:

وهل هناك عالم مسلم يشك في أن القرآن، الذي بين أيدينا اليوم، هو المصدر الإلهي الوحيد للتشريع الذي ورثه المسلمون كتابًا واحدًا منذ عصر التنزيل إلى اليوم؟!

٢- وأن «السُنّة النبوية» ليست المصدر الثاني للتشريع:

وهل هناك عالم مسلم يعتقد أن المصدر الثاني للتشريع الخاص بالفرقة التي ولد فيها وتربى على يد مؤسساتها الدينية، قد جمع مرويات «السُنّة النبوية» الموجودة عند جميع الفرق الإسلامية ومنها يستنبط هذا المصدر أحكام الشريعة؟!

٣- أن «السُنّة النبوية» تفعيل الرسول للنص القرآني:

وهل هناك عالم مسلم، على دراية بعلم اللسان العربي، لا يعلم أن كلمة «السُنّة» تعني طريقة أداء وسلوكًا عمليًا، وليست نصًا يدوّن في الكتب ويتلى على الناس؟!

واللافت للنظر أن علماء أهل السُنّة استخدموا في ردهم مصطلح «السُنّة النبوية» من غير أن يبيّنوا لنا مفهومهم لهذا المصطلح والفرق بين «السُنّة النبوية» التي لا أنكرها لأنها داخل النص القرآني، وبين مرويات «السُنّة النبوية» التي أنكرها لأنها داخل مصدر روائي ظني الثبوت عن الرواة الذين نقلوها عن النبي.

ولقد وسم الرواة مروياتهم باسم «الحديث النبوي» لتأخذ قدسية في قلوب المسلمين، ثم جاء المحدثون ووثقوا هذا الوسم من غير تحقيق علمي، ودُوّنوا «مرويات» الرواة في أمهات كتب الحديث بعد قرن ونصف قرن من وفاة النبي على أقل تقدير، واتبع المسلمون مصدرًا ثانيًا للتشريع ما أنزل الله به من سلطان.

«إن الدارس لكتاب الله تعالى يعلم علم اليقين أن الذي بلّغ نصوص آياته هو رسول الله محمد، عليه السلام، ومن خلال تدبر هذه الآيات يرى الإنسان رسول الله وهو يقيم كل آية من آيات هذا الكتاب سلوكًا عمليًا في واقع عصر التنزيل، وإذا كانت «السُنّة» هي الطريقة المطردة التي لا تتخلف، كما أجمعت على ذلك معاجم اللغة مادة «سنن» فيجب أن تكون النصوص التي تُستقى منها حقًا لا يتخلف».

إن هذه الفقرة من مقدمة الجزء الأول من موسوعة «السُنّة النبوية حقيقة قرآنية – قبل ظهور الفرق والمذاهب المختلفة» الذي نشرته عام «٢٠٠٥م»، والذي بيّنت فيه مفهوم «السُنّة» حسب ورودها في كتاب الله ومعاجم اللسان العربي، والسؤال:

عندما يقول الله تعالى «الأحزاب / ٣٨»:

«مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ – سُنَّةَ اللَّهِ – فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ»

فهل يمكن أن تتحول «سُنَّةُ اللَّهِ» التي فرضها الله على النبي في القرآن، إلى «سُنّة المحدثين» التي فرضها علماء الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف على المسلمين؟!

وهل كان علماء الحديث، الذين رفضوا «مرويات» تخالف مذهبهم العقدي والفقهي، وقبلوا أخرى توافق مذهبهم العقدي والفقهي، هل كانوا منكرين لـ «السُنّة»؟!

والسؤال: لقد قلت:

«إن غياب المنهجية العلمية في التفكير، جعل أنصار الفُرقة والمذهبية يحرّفون مفهوم «السُنّة النبوية» عن معناه القرآني واللساني ليصبح كل ما صدر عن النبي من قول أو فعل أو تقري، حسب اجتهادات أئمة الجرح والتعديل ومذاهبهم العقدية والفقهية، باعتبار أنهم الذين يُقرّرون ما هو «سُنّة» وما ليس بـ «سُنّة» مما نسبه الرواة إلى النبي».

فلماذا لم يناقش «علماء أهل السُنّة» مفهوم «السُنّة النبوية» ومصادرها عند الفرق الإسلامية المختلفة، وكل فرقة تدعي أنها «الفرقة الناجية»؟!

ثالثًا:

عندما يدعي علماء كل فرقة من الفرق الإسلامية أنهم «الأمة الإسلامية»، وأنهم «الفرقة الناجية» ويقيمون على هذا الادعاء قولهم إن مصدرهم الثاني للتشريع هو الذي حمل مرويات «السُنّة النبوية» الصحيحة التي أمر الله اتباعها، أليست هذه وحدها «مصيبة عقدية كبرى» تُسقط حجية مصادرهم التشريعية الثانية كلها؟!

ألم يحذر الله المسلمين من التفرق في الدين بنص قرآني قطعي الدلالة خاطب فيه الرسول والذين آمنوا معه فقال تعالى «الروم / ٣١–٣٢»:

«وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ – مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا – كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ»؟!

ألم يقل الله تعالى لرسوله محمد «الأنعام / ١٥٩»:

«إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا – لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ – إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ – ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ»؟!

فكيف يتحدث علماء فرقة من الفرق الإسلامية باسم «الأمة الإسلامية»، وباسم «الفرقة الناجية»، وخاصة إذا كانوا ينتمون عقديًا إلى مذهب من مذاهب الفرقة الواحدة، ومثال ذلك انتماء أتباع «المذهب الأشعري» إلى فرقة «أهل السنة والجماعة»؟!

إن الذي أسس المذهب الأشعري «أبو الحسن الأشعري» الذي أمضى فترة طويلة من حياته «معتزليًا» ثم أعلن توبته من «المعتزلة» بالبصرة عام «٣٠٠هـ» وأمام الملأ، ثم إذا به ينفرد بمذهبه الأشعري.

فكيف يتحدث علماء أي فرقة من الفرق الإسلامية باسم «الأمة الإسلامية» وهم ينتمون إلى مذهب عقدي من مذاهب «الفرقة الواحدة» التي ظهرت هياكلها الدينية المختلفة بعد وفاة النبي بقرنين من الزمن على أقل تقدير، قد شهد المسلمون خلالها صراعات مذهبية دموية تُسقط حجية «مرويات» الرواة الذين اشتركوا في سفك الدماء بغير حق، واقرؤوا تاريخ الصراع العقدي الدموي بين الفرق الإسلامية بل وبين مذاهب الفرقة الواحدة؟!

كيف يجرؤ أئمة السلف وعلماء الخلف على القول بأن «مرويات السُنّة النبوية» هي الأصل الثاني للتشريع، وأن الله تعالى اختص الأمة الإسلامية «وطبعا يقصدون مذاهبهم» بحفظ دينها، فحفظت «الأمة» كتاب الله، وذبت الكذب والخلل عن «الحديث النبوي» بما وضعته من قوانين لـ «الرواية» هي أصح وأدق طريق علمي في نقل الروايات واختبارها.

والسؤال:

أين هي هذه «الأمة الإسلامية» التي «ذبت الكذب والخلل عن الحديث النبوي بما وضعته من قوانين لـ «الرواية» هي أصح وأدق طريق علمي في نقل «الروايات» واختبارها؟!

ولا أعلم إذا كان علماء الفرق الإسلامية قد اطلعوا على تاريخ ظهور هذه الفرق، وهل «الأمة الإسلامية» التي تركها النبي محمد، عليه السلام، هم أتباع كل فرقة الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، وصانوا «الحديث النبوي» من التحريف والتبديل؟!

ويقولون:

ولقد كانت عناية الأمة الإسلامية برواية الحديث النبوي وحفظه تهدف إلى صيانة هذا التراث العظيم من التحريف والتبديل فيه؛ فحاز حديث النبي من الوقاية والمحافظة ما لم يكن قط لحديث نبي من الأنبياء، فقد نقل لنا الرواة أقوال الرسول في الأمور كلها؛ العظيمة واليسيرة، بل في الجزئيات التي قد يتوهم أنها ليست موضع اهتمام، فنقلوا تفاصيل أحواله في طعامه وشرابه،

ويقظته ونومه، وقيامه وقعوده، حتى ليشعر من يتتبع «كتب السُنّة» أنها ما تركت شيئا صدر عن الرسول إلا ونقلته.

أقول:

وهل لا يعلم أئمة السلف وعلماء الخلف أزمة التخاصم والتكفير القائمة في أمهات كتب مذاهبهم بسبب علوم الحديث وفي مقدمتها علم الجرح وتعديل والتصحيح والتضعيف، والتي لم تكن لتولد لو أن حديث رسول الله دوّن في حياته وتحت إشرافه؟!

إن أصول البحث العلمي القائم على الفهم الواعي لـ «دين الإسلام» الذي حمله القرآن تفرض على علماء كل فرقة من الفرق الإسلامية تحديد موقفهم وبكل وضوح من أمهات كتب «السُنّة النبوية» التابعة للفرق الأخرى، وهل يعتبرونها «وحيًا يوحى» أم لا؟!

يقولون:

وذلك أن القرآن والسُنّة وحي من الله عز وجل، ولم يكن النبي ليقول شيئًا من عنده:

يقول الله تعالى «النجم / ٣-٤»:

«وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى - إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى»

فلماذا يتكفل الله تعالى بحفظ القرآن ولا يتكفل بحفظ السُنّة مع أن كليهما وحي من عنده سبحانه وتعالى؟

أقول:

لا يوجد مسلم على هذه الأرض يشك في تكفل الله تعالى بحفظ القرآن منذ عصر التنزيل وإلى يوم الدين، وهذه مسألة يعلمها الصغير قبل الكبير، فأين مظاهر حفظ الله تعالى لـ «مرويات السُنّة النبوية»، وعند أي فرقة من الفرق الإسلامية نجد فعالية هذا الحفظ؟!

وإذا كان علماء كل فرقة من الفرق الإسلامية يعتبرون أنفسهم «الفرقة الناجية»، ويؤسسون على ذلك قولهم بتكفل الله بحفظ «مروياتهم» التي هي «وحي يوحى»، ألا تعتبر هذه المصيبة العقدية مبررًا لاتهام علماء هذه الفرق بازدراء «دين الإسلام» لاستحالة أن تحمل نصوصه وحيًا صحيحًا وآخر ضعيفًا؟!

يقولون:

إذا كانت عناية المسلمين بالسنة والعمل بها معلومة من الدين والتاريخ والحضارة والتراث الإسلامي بالضرورة، ولا يجهل ذلك جاهل، فإن الإنسان بعد ذلك لتأخذه الدهشة والعجب

ويحار لبه في أفهام وعقول «منكري السُنّة» كيف يطعنون في حجيتها، وبأي عقل وعلى أي منطق اعتمدوا في قبولهم القرآن دون السُنّة؟!

أقول:

يقولون: إن العمل بـ «السنة النبوية» من المعلوم من الدين بالضرورة، ومعلوم أن مذاهب الفرق الإسلامية كلها تُكفر من أنكر معلوما من الدين بالضرورة، فأي عقل يقبل أن تكون «مرويات السُنّة النبوية» التي هي بحر مذهبي متلاطم الأمواج، من المعلوم من الدين بالضرورة؟!

فأي دين هذا الذي يتلاعب علماؤه بنصوصه لإثبات حجية مذاهبهم العقدية؟!

إن أحاديث «السلسلة الذهبية» التي يعتبرها «علماء أهل السُنّة» أصح درجات الحديث، نجد أن «الشيعة»، على سبيل المثال، لا يرون أنها أصح درجات الحديث، فهل المقصود بكلمة «الدين» في قولهم «من المعلوم من الدين بالضرورة» دين الفرقة أو المذهب الذي صحت عنده «مرويات السُنّة النبوية»؟!

فبأي منطق شرعي يتهم علماء الفرق الإسلامية منكري «مرويات السُنّة النبوية» بالردة لمخالفتهم «المعلوم من الدين بالضرورة» ثم يؤسسون على هذا الاتهام استتابة «منكري السُنّة» فإن تابوا وإلا قُتلوا؟!

إنه لا يوجد إمام من أئمة السلف والخلف يُنكر آية قرآنية واحدة ثم يبقى على إسلامه، فإذا كانت «مرويات السُنّة النبوية» وحيًا يوحى، فلماذا لم يُتهم أئمة الجرح والتعديل بإنكار «المعلوم من الدين بالضرورة» لإنكارهم مئات الأحاديث التي توافق هواهم المذهبي العقدي أو الفقهي؟!

ألا تتقون الله وأنتم تساوون بين حجية «القرآن» قطعي الثبوت عن الله تعالى، وحجية «المرويات» ظنية الثبوت عن الرواة والمحدثين، ثم تقولون:

إن الذين يطعنون في «السُنّة» إنما يطعنون في أخص خصوصيات هذه «الأمة» وهو الإسناد الذي ميز الله به «أمة الإسلام» وألهمها إياه، ولم يكن في أمة من قبل، لحفظ كتابه وسنة نبيه.

أقول:

فأين هذه الأمة التي تتحدثون عنها؟! لماذا لا تتحدثون باسم الفرقة التي تنتمون إليها حتى يفهم الناس أنكم لم تخدعوهم باسم «الأمة الإسلامية»؟!

ويقولون:

إنهم يريدون للأمة الإسلامية أن تكون كالذين من قبلهم، حيث طال عليهم الأمد؛ فقست قلوبهم ونبذوا دينهم وراء ظهورهم، واشتروا به ثمنا قليلا، فبئس ما يشترون، وما كان ضلال الأمم السابقة وتحريفهم لكتبهم إلا لفقدهم ما حبانا الله به من حفظ الإسناد، فهل المقصود أن نكون

مثل الذين من قبلنا فنترك ونهدم شطر الدين؛ فنضل ونحرف ونغير ونبدل كل ما ليس له تفصيل في القرآن؟!

أقول:

انظروا وتدبروا هذا الأسلوب التخاصمي التحريضي التكفيري عندما يتهمون منكري «مرويات السُنّة» بأنهم يريدون هدم شطر الدين بإنكارهم ما هو معلوم من الدين بالضرورة، فتصادر كتبهم ويدخلون السجون، ويحدث كل هذا من فرقة واحدة من الفرق الإسلامية لاستحالة أن تُجمع الفرق على هذه الاتهامات لاختلاف مرجعياتهم التشريعية.

فإذا ذهبنا إلى مذهب عقدي من مذاهب فرقة أهل السُنّة وليكن «المذهب الأشعري» الذي تنتمي إليه المؤسسة الدينية الرسمية في مصر، نجد أتباعه يصفونه بأنه المذهب الذي حمل للناس وسطية الإسلام، كيف وقد نشأ هذا المذهب في بيئة تخاصمية تكفيرية على يد «أبي الحسن الأشعري» الذي توفي في القرن الرابع الهجري «ت٣٢٤هـ».

إن استمرار أزمة التخاصم والتكفير بين المسلمين على مر العصور وإلى اليوم، وظهور الجماعات الإرهابية التي تسعى في الأرض فسادا وتسفك الدماء بغير حق، يرجع إلى اتباع المسلمين مصادر تشريعية ما أنزل الله بها من سلطان، لذلك أنصح علماء كل فرقة أن يتحدثوا باسم فرقتهم، وأنصح علماء كل مذهب عقدي أن يتحدث باسم مذهبه.

البيان النبوي لا علاقة له بالذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا

يُجمع علماء الفرق الإسلامية على أن الزعم بأن «القرآن» هو المصدر الوحيد للتشريع وأن «السُنّة النبوية» ليست المصدر الثاني للتشريع وإنما تفعيل الرسول للنص القرآني، زعم باطل لأن الله تعالى أنزل «القرآن» هداية ومعجزة لرسوله ثم أعطاه «السُنّة» مفصلة للكتاب:

يقول الله تعالى «النحل / ٤٤»:

«وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ»

فكانت «السُنّة» أصلا من أصول الدين تاليًا لكتاب الله تعالى، تؤخذ منها العقائد والأحكام والأخلاق، وغير ذلك.

أولًا:

عندما يقولون إن الله تعالى أعطى للرسول «السُنّة المفصلة للكتاب والشارحة له»، فإن السؤال الذي يفرض نفسه:

أي فرقة من الفرق الإسلامية هي التي ورثت الكتاب الذي حمل «السُنّة النبوية» المفصلة للقرآن والشارحة له؟!

فهل المفسرون والمحدثون أولى من الرسول لتكون لهم مؤلفاتهم في بيان «السُنّة النبوية» وصاحب السُنّة نفسه ليس له مؤلف باسمه محفوظ بحفظ الله يستقي منه المسلمون مباشرة سُنّته بعيدًا عن إشكاليات السند الروائي المذهبي؟!

ألم يقرأ علماء الفرق الإسلامية كتاب «الصحيح المسند من التفسير النبوي للقرآن الكريم» للشيخ أبِي محمد السيد إبراهيم بن أبي عمة، تحقيق ومراجعة الشيخ مصطفى العدوي الذي قال في مقدمته «لذلك فقد راودتنا فكرة تفسير القرآن بالسنة الصحيحة وبالأثر الصحيح»؟!

إذن حتى عصرنا، عصر الشيخ أبِي محمد السيد إبراهيم بن أبي عمة، لم يكن هناك كتاب يُعتمد عليه في «تفسير القرآن بالسنة الصحيحة وبالأثر الصحيح»، وهذا فعلا ما أثبته الواقع فلو كان النبي، عليه السلام، قد فسّر القرآن ما كان لأمهات كتب التفسير أن تولد أصلًا، فمن يجرؤ أن يُفسر القرآن بعد تفسير النبي؟!

ويقول الشيخ مصطفى العدوي: «لذلك فقد رأينا أن نضيق نطاق العمل تضييقا آخر وصورته تفسير الآيات التي فسرها النبي صراحة، والآيات التي فسرها النبي بقوله قليلة محصورة».

تدبر قول الشيخ: «والآيات التي فسرها النبي بقوله قليلة محصورة»، ثم قال بعد ذلك:

«فعهدنا بهذا العمل إلى أخينا في الله سيد بن إبراهيم أبي عمة، فقام جزاه الله خيرا بجمع «الأحاديث» التي فسر بها رسول الله الآيات، وقام بتحقيق هذه الأحاديث وانتقاء الصحيح منها وترك ما سواه».

إذن حتى عصرنا هذا، لم ينته المحققون من انتقاء الصحيح من «السُنّة النبوية».

ويقول الشيخ مصطفى العدوي:

«ولأنّ القرآن نزل على رسول الله، فلا شك أنه عليه السلام أعلم الناس بتأويله فعليه أنزل، وبلسانه تلي، وبسنته فسر، قال الله تعالى:

«وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»

ف «سُنّة» رسول الله كلها تفسير للقرآن، وبيان لمعانيه وألفاظه وأحكامه.

ثانيًا:

واللافت للنظر أن هذه الآية التي يستدل بها أئمة الفرق الإسلامية واستدل بها أيضا الشيخ مصطفى العدوي، لا علاقة لها مطلقًا بموضوع «السُنّة النبوية»، وبرهان ذلك هو ما جاء في

كتاب «الصحيح المسند من التفسير النبوي للقرآن الكريم» وقول الشيخ مصطفى العدوي إن العلماء الذين ساعدوه على إنجاز موضوعه بذلوا جهدا كبيرا حتى جنوا ثماره، فتعالوا نتعرف على هذه الثمار المتعلقة بسورة البقرة كمثال:

إن عدد آيات سورة البقرة «٢٨٦» آية، سبع «٧» آيات منها فقط هي التي وردت فيها أحاديث صحيحة مرفوعة إلى النبي، طبعا حسب شروط علماء أهل السنة، وهي:

١- «فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» (البقرة ٥٩)

٢- «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا... الآية» (البقرة ١٤٣)

٣- «أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ... الآية» (البقرة ١٨٧)

٤- «وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ.. الآية» (البقرة ١٩٦)

٥- «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ» (البقرة ٢٢٢)

٦- «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ» (البقرة ٢٣٨)

٧- «يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ» (البقرة ٢٧٦)

والذي يتدبر هذه الآيات ثم يذهب إلى أمهات كتب التفسير، عند الفرق الإسلامية كلها، ليقف على تفسيرها النبوي، الذي ورد في أصح المرويات المرفوعة إلى النبي، سيصل إلى هذه النتيجة:

إن المسلمين لو استخدموا أدوات فهم القرآن المستنبطة من ذات النص القرآني، وفي مقدمتها «اللسان العربي»، لفهموا هذه الآيات السبع بعيدًا عن كل «المرويات المذهبية» التي قيلت فيها والتي منها ما يستخدمه أعداء الإسلام لضرب القرآن خاصة ما جاء منها في الآية «٢٢٢».

ثالثًا:

إذا كان الله قد أعطى رسوله محمدا، عليه السلام «السُنّة» مفصلة للكتاب وشارحة له، استنادا إلى قوله تعالى:

«وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ»

وبذلك تكون «السُنّة» أصلا من أصول الدين تاليًا للكتاب تؤخذ منها أصول الإيمان والأحكام وغير ذلك، فلماذا لم يكتف أئمة السلف بـ «البيان النبوي» وذهبوا إلى أمهات كتب التفسير والفقه، فما أهمية هذه الكتب بعد «البيان النبوي» وشرح النبي لآيات الكتاب وأحكامه؟!

كيف تقولون إن الله «أنزل القرآن الكريم هداية بيّنة ومعجزة لرسوله» ثم تقولون «وأعطاه السُنّة مفصلة للكتاب وشارحة له»، فهل يُعقل أن ينزل الله كتابًا لا يُفهم إلا بـ «البيان النبوي» لآياته وأحكامها، ثم يحفظ الله تعالى الكتاب ويترك «البيان النبوي» يتداوله رواة الفرق والمذاهب المختلفة «شفاهة» عبر قرن ونصف قرن من الزمن، على أقل تقدير، إلى «عصر التدوين»؟!

كيف تساوون بين حجية «الكتاب» المنزل، الذي هو القرآن الذي يعلم حدوده وعدد سوره كل مسلم على هذه الأرض، بحجية «مرويات» الفرق الإسلامية المتصارعة التي لم يُجمع علماؤها إلى اليوم على عدد الصحيح منها؟!

رابعًا:

كيف تساوون بين حجية «الكتاب» المنزل، الذي ورثه المسلمون، منذ عصر الرسالة إلى يومنا هذا، محفوظا بحفظ الله له، لذلك لم يستطع رواة الفرق الإسلامية أن يضعوا بصماتهم المذهبية على نصوصه، وبين «المرويات» التي لم تُدوّن في أمهات الكتب إلا بعد أن وضع الرواة عليها بصماتهم المذهبية؟!

ولماذا لم يظهر أصح كتاب لـ «البيان النبوي» عند أهل السُّنة، إلا في القرن الثالث الهجري وهو صحيح البخاري – ت٢٥٦هـ» ولم يظهر أصح كتاب عند الشيعة إلا في القرن الرابع الهجري وهو صحيح الكافي لـ الكليني – ت٣٢٩هـ»، ولماذا لم يظهر كتاب «البيان النبوي» في حياة النبي وتحت إشرافه؟!

قالوا: خشية اختلاط «حديث النبي» بـ «حديث الله».

* أقول:

إن الذي يقول إن الرسول لم يدّون «حديثه» في حياته خشية اختلاطه بـ «القرآن» عليه إعادة الدخول في «دين الإسلام» من بابه الصحيح، ذلك أن القرآن هو كتاب الله الخاتم الذي يحمل «الآية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، من أجل ذلك تعهد الله تعالى بحفظ كلمات القرآن وتفاعلها مع «مقابلها الكوني» الذي يُذكر الناس بمعناها، والذي سماه الله تعالى بـ «الذكر».

فكيف تتساوى «الآية الإلهية» المحفوظة بحفظ الله تعالى لها، والتي عجز المكذبون عن الإتيان بمثل سورها، مع «الرواية البشرية» المحفوظة بحفظ المحدثين لها، والتي خضع رواتها للجرح والتعديل، وخضعت نصوصها للتصحيح والتضعيف بعد أن استطاع الناس أن يأتي بمثلها؟!

وعلى فرض صحة مسألة اختلاط كلام الله بـ كلام رسوله، وأن أهل اللسان العربي كانوا حديثي عهد بالإسلام، فلماذا بعد أن استطاعوا التمييز بين كلام الله وكلام رسوله، وتولى أبو بكر الصديق الخلافة، لم يُدوّن الخليفة الأول «الحديث النبوي» في كتاب مهما بلغ عدد أجزائه إذا كان «الحديث النبوي» حقًا مصدرًا تشريعيًا ثانيًا؟!

خامسًا:

وعن أدلة أئمة السلف على تكفل الله بحفظ «الحديث النبوي» قول الله تعالى «١٧-١٩»:

«إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ - فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ - ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ»

يقولون: إن هذا نص صريح يدل على أن الله قد تكفل بحفظ «السُنّة» على وجه الأصالة والاستقلال على طريق اللزوم والتتبع؛ لأنه تكفل فيه ببيان القرآن في قوله عز وجل «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ»، أي: بيان القرآن، والبيان كما يكون للنبي يكون لأمته من بعده، وهو يكون للنبي بالإيحاء به إليه ليبلغه الناس، وهو المراد من قوله عز وجل:

«وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمْ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ»

أقول:

١- وهل يُعقل أن يكون معنى «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ» أي ثم إنا علينا تفسير آياته عن طريق «مرويات» الفرق والمذاهب المختلفة التي ظهرت بعد وفاة النبي بقرن من الزمن، والتي إن صحّت عند مدرسة من مدارس الجرح والتعديل لم تصح عند أخرى؟!

إن الضمير في «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ» هو نفسه الذي في «لِتَعْجَلَ بِهِ» وهو الذي في «جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ»، وهو الذي في «قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ»، والذي يعود إلى القرآن كله من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، فأين يا أئمة السلف والخلف نجد الكتاب الجامع لـ «البيان النبوي» للقرآن كله؟!

٢- ثم ما معنى قولهم عن «البيان النبوي» للقرآن:

«وهو يكون للنبي بالإيحاء به إليه ليبلغه الناس، وهو المراد من قول الله تعالى «النحل / ٦٤»:

«وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ - إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمْ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ»؟!

إن المتدبر للآية «النحل / ٦٤»، وللسياق الذي وردت فيه، يعلم أنها لا تخاطب المؤمنين برسالة محمد، عليه السلام، وإنما تخاطب المكذبين بها، وتعالوا نستعين بعلم السياق لإثبات بطلان استدلالهم بهذه الآية، واستدلالهم بقول الله تعالى:

«وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ»

على حجية «مرويات» الفرق الإسلامية المختلفة، كشريعة إلهية وسمها أئمة السلف والخلف باسم «السُنّة النبوية» لتأخذ قدسية في قلوب أتباعهم.

٣- إن السياق القرآني الذي وردت فيه الآية «الأنبياء / ٧»:

«وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»

والسياق الذي وردت فيه الآيتان «النحل / ٤٣-٤٤»:

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ - فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ» «بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ - وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ - وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ».

لا يخاطب المؤمنين برسالة رسول الله محمد، وإنما يخاطب المكذبين بها، يبيّن لهم أن الله لم يرسل رسلًا من النساء أو من الملائكة وإنما من الرجال:

«وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ»

وإن عليهم أن يتأكدوا من هذه الحقيقة بسؤال أهل الكتب السابقة، أهل الذكر:

«فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ».

إن سياق الآيات يبدأ بقول الله تعالى «الآية ٣٩»:

«لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ - وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ»

فمن هم «المختلفون» الذين سيُبيّن لهم النبي «الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ»؟!

إنهم الكافرون المكذبون المشار إليهم في «وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ»

ثم جاءت الآية «النحل / ٦٤» تؤكد ذلك بقول الله تعالى:

«وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»

فهل بيّن الله تعالى في السياق القرآني أن صحابة رسوله اختلفوا حول القرآن، أم أن هذا الاختلاف كان بين أهل الكتب السابقة:

«إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ - وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»؟!

٤- فإذا ذهبنا إلى قول الله تعالى:

«وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»

نجد أن المقصود بكلمة «الناس» أصحاب الكتب السابقة بقرينة «مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ»، وما أفاده الاسم الموصول «مَا»، وصلته «نُزِّل»، وبيان ذلك على النحو التالي:

إن «الذِّكْرَ» المنزل على رسول الله محمد «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ» نزل ليُبيّن للمختلفين من أهل الكتب السابقة «مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ»، وليس كما فهم أئمة السلف والخلف «لِتُبَيِّنَ للمؤمنين القرآن» الذي اختلفوا فيه، وإلا لجاءت الجملة «لتُبَيّنه للمؤمنين» وليس «لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ».

والمعنى: أن «الذِّكْرَ» الذي نزل على رسول الله محمد والذي هو تفاعل «القرآن» مع «المقابل الكوني» لكلماته، جاء مبينًا لغيره من الكتب السابقة وكاشفا عما أخفوه وحرّفوه:

يقول الله تعالى مخاطبًا أهل الكتاب «المائدة / ١٥»:

«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ - كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنْ الْكِتَابِ - وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ - قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ»

٥- إن «البيان» في السياق القرآني يأتي بمعنى «الإظهار» عكس «الكتمان» نفهم ذلك من قول الله تعالى «البقرة / ١٥٩»:

«إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى - مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ - أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ - إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا - فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»

تدبر «مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ» إذًا فالذي أنزله الله تعالى مرجعيته «الكتاب» ولا كتاب غيره أو معه، وقول الله تعالى «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا» خير برهان على أن مصدر البيان الذي أخفوه وكتموه وعليهم أن يظهروه هو «كتاب الله» فقط، فأين نجد في القرآن إشارة واحدة إلى «كتب السُنّة»؟!

سادسًا:

ومن باب مخاطبة الآخر بما يؤمن به ويدافع عنه، فإن أئمة السلف يستندون في إثبات حجية «مرويات السُنّة النبوية» إلى رواية منسوبة إلى رسول الله يقول فيها:

«أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدا حبشيا فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»

فنقول لهم:

١- لقد أوصى الرسول المسلمين باتباع «سُنّته» فهل كان يقصد اتباع «مرويات السُنّة النبوية» التي دوّنها المحدثون في أمهات «كتب الحديث» بعد وفاة الرسول بقرن من الزمن على أقل تقدير؟!

٢- ولقد أوصى الرسول المسلمين باتباع «سُنّة الخلفاء الراشدين» فأين كتب «سنتهم» التي دُوّنت تحت إشرافهم في ظل الخلافة الراشدة؟!

فهل يُعقل أن تكون «الأحاديث النبوية» وحيًا إلهيًا، ومصدرًا تشريعيًا ثانيًا، ويعطيها «الخلفاء الراشدون» ظهورهم، ولا يهتمون بتدوينها في كتاب باسم «الخلافة الإسلامية»؟!

٣- فإذا ذهبنا إلى الأمر الإلهي بوجوب طاعة الرسول، فهل يتساوى من «عاصروا الرسول» وسمعوا منه «الحديث» مباشرة، مع من جاؤوا من بعده وسمعوا «الحديث» المنسوب إليه من الرواة والمحدثين، كلٌ حسب الفرقة والمذهب العقدي والفقهي الذي ينتمي إليه؟!

إنه من العبث بـ «دين الإسلام» الذي حمله «القران» أن توظّف الآيات التي أمرت بـ طاعة الرسول واتباعه والاقتداء به والتحاكم إليه لصالح توجهات الفرق الإسلامية العقدية والفقهية، بدعوى العمل بـ «كتاب الله» وبـ «سُنّة رسوله».

عندما تصبح طاعة المحدثين طاعة للرسول

هل يمكن أن يخرج رسول الله محمد، عليه السلام، على قومه قائلًا: إن الله يأمركم أن تطيعوا «كلامه» الذي حمله «القرآن»، وعجز الإنس والجن أن يأتوا بسورة من مثله، وأمركم أن تطيعوا «كلامي» الذي حملته «الأحاديث النبوية» التي ستُدوّن بعد قرن من وفاتي، كلٌ حسب مدرسته في الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف؟!

إن اللافت للنظر، أن أئمة السلف بمختلف توجهاتهم العقدية والفقهية، يتصورون أن المسلمين على مر العصور يعيشون مع النبي في عصر التنزيل، وبناء عليه يجب عليهم طاعته، وتصورهم هذا بديهة إيمانية لأننا لو كنا نعيش فعلا في هذا العصر ما وسعنا إلا أن نطيع الرسول طاعة مطلقة بعد أن آمنا بصدق «نبوته» ودخلنا في «دين الإسلام» من بابه الصحيح.

ولكننا لم نر الرسول، ولم نسمع منه حديثه مباشرة، وأقمنا إيماننا به على أساس الإقرار بصدق «آيته القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوته» والمعاصرة للناس جميعًا اليوم، وبناء على ذلك دخلنا في «دين الإسلام»، ولا علاقة لنا بما نسبه الرواة إلى الرسول ودوّنه المحدثون بعد وفاته بقرن من الزمن.

أولًا:

لقد أمر الله «الذين آمنوا» باتباع الرسول فقال تعالى «آل عمران ٣١-٣٢»:

«قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ - فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ - وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ - قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ - فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ»

والسؤال:

إلى من يوجه الله تعالى «اليوم» الأمر بطاعة رسوله محمد واتباعه، ويُحذر الذين يخالفون أمره بـ «الكفر»، هل هم أهل السنة، أم الشيعة، أم المعتزلة، أم الإباضية، هل هم الحنبلية أم الأشعرية أم الصوفية ... من مذاهب فرقة واحدة هي «أهل السنة والجماعة»؟!

واللافت للنظر والغريب حقًا أن أتباع كل فرقة، بل وكل مذهب من مذاهب الفرقة الواحدة، يعتبرون أنفسهم يتبعون الرسول، وأنهم هم الذين يحبهم الله:

«فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ»

وبناء عليه تصبح «مروياتهم» وحيًا إلهيًا واجب الاتباع، ويُصبح المحدثون من أتباع الفرق الأخرى هم الذين قال الله تعالى فيهم:

«فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ»

لأنهم تولوا عن اتباع «مرويات» الفرق الأخرى لأنها لم تصح عندهم حسب شروطهم في الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف، وبذلك يكون المحدثون أتباع كل فرقة قد تولوا عن اتباع الرسول لعدم اتباعهم «المرويات» المنسوبة إليه التي لم تصح عندهم وإن صحت عند غيرهم، ويصبح ٩٩٪ من المسلمين لا يتبعون «السُنّة النبوية» التي إن صحت عند فرقة لم تصح عند أخرى.

ثانيًا:

يقول الله تعالى «النساء / ١٣»:

«تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ - وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ - يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا - وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»

لقد جاء الأمر بالطاعة لـ «اللَّه وَرَسُولَه» باعتبار أن الله تعالى هو المشرّع ورسوله هو القائم على تنفيذ شريعة الله بين الناس، فكيف تتحول «السلطة التنفيذية» التي هي من اختصاص الرسول، إلى «سلطة تشريعية» التي هي من اختصاص الله تعالى، ثم إذا ذهبنا إلى هذه «السلطة

التشريعية» التي جعلوها للرسول وجدناها «مرويات السُنّة النبوية» التي ما أنزل الله بها من سلطان.

ثم يقول الله تعالى «النساء / ١٤»:

«وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ – وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ – يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا – وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ»

فهل يعقل أن يكفر المؤمن ويدخله الله النار «خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ» لعدم اتباعه «مرويات» الفرقة التي ولد فيها وتربى على مائدتها الدينية؟!

١– عندما يقول الله تعالى «أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ»:

يعني أطيعوا الله منزل الكتاب والرسول لأنه الذي يبلغ الكتاب، ولم يخص الله الرسول بطاعة مستقلة لبيان أن «التنزيل» لا ينفصل عن «البلاغ» في وجوب الطاعة.

٢– وعندما يقول الله تعالى «أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ»:

فهنا أعطى الله تعالى الرسول طاعة مستقلة لأنه «السلطة التنفيذية» القائمة على تنفيذ «الشريعة الإلهية»، ومن «السلطة التنفيذية» أولوا الأمر، يقول الله تعالى «النساء/ ٥٩»:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ – أَطِيعُواْ اللّهَ – وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ – فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ»

ولم يقل الله تعالى «وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ – وَأَطِيعُواْ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ» لأن طاعة أولي الأمر من طاعة الرسول باعتبارها طاعة واحدة لـ «السلطة التنفيذية».

إذًا فلابد من التفريق بين نوعين من الطاعة:

(أ): طاعة تتعلق بـ «السلطة التشريعية»:

«أَطِيعُوا اللَّهَ»: وهذه لله تعالى وحده.

(ب): طاعة تتعلق بـ «السلطة التنفيذية»:

«وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ»: وهذه للقائمين على تنفيذ «أحكام القرآن» وإدارة شؤون البلاد.

وعند التنازع «فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ»:

– «إِلَى اللهِ»: إلى «كتاب الله»، إلى «السلطة التشريعية».

– «وَالرَّسُولِ»: إلى «السلطة التنفيذية» القائمة على تنفيذ «كتاب الله».

ولذلك لم يقل الله تعالى هنا في سياق الرد عند التنازع «وإلى الرَّسُولِ» حتى لا يُفهم أن للرسول شريعة مستقلة عن «الشريعة الإلهية»، ولذلك جاءت «وإلى الرَّسُولِ» في سياق آخر يتعلق بـ السلطة التنفيذية» فقال تعالى «النساء / ٦١»:

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ – وَإِلَى الرَّسُولِ – رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً»

فقول الله تعالى «إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ» يمثل «السلطة التشريعية»، وقوله تعالى «وَإِلَى الرَّسُولِ» يمثل «السلطة التنفيذية» القائمة على تنفيذ الشريعة المنزلة «إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ» بين الناس.

٣– وعندما يقول الله تعالى «وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»:

فهذه الآية «النور / ٥٦» هي الوحيدة التي ذُكر فيها الأمر بـ «طاعة الرسول» من غير ذكر «طاعة الله»، وللوقوف على السبب لابد أن ندرس السياق من أوله، بداية بالآية «٤٧» فنجد أنه يتحدث عن المنافقين حيث يقول الله تعالى:

(أ): «وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا – ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ – وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ – إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ»

إن قول الله تعالى «لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ» خير برهان على أن:

– «السلطة التشريعية» في «دين الإسلام» سلطة واحدة هي «الله تعالى».

– «السلطة التنفيذية» في «دين الإسلام» سلطة واحدة هي «رسول الله».

– أن «السلطة التنفيذية» لا علاقة لها مطلقًا بـ «التشريع» وإلا لجاءت الآية «ليحكما بينهم» وليس «لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ»، وهذا ما يبينه كثير من الآيات منها:

قول الله تعالى «آل عمران / ٢٣»:

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ – يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ – لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ – ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ»

ومما لا شك فيه أن «الْكِتَاب» لا يحكم وإنما المقصود تنفيذ الرسول لأحكام الكتاب، ولذلك قال الله تعالى بعد ذلك «ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ» أي تولوا عن حكم رسول الله.

قول الله تعالى «النور / ٥١»:

«إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ – إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ – لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ – أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»

إن «السلطة التنفيذية» هي التي تحكم بين الناس على أرض الواقع وليس «السلطة التشريعية» المختصة بـ «التشريع» ولقد كانت السلطة التنفيذية في عصر الرسالة في يد رسول الله محمد وولاة الأمور، لذلك أمر الله المؤمنين بطاعتهم، وحذر من معصيتهم.

(ب): ثم بعد بيان كذب المنافقين في ادعائهم أنهم يطيعون الرسول «الآية ٥٣» تحول الخطاب إلى «الذين آمنوا»، يُبيّن لهم «شرط» استخلافهم في الأرض وتمكين دينهم وتحقق أمنهم، وهذا «الشرط» هو «النور / ٥٥»:

«يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا»

وحذر الله تعالى المؤمنين من الكفر إذا هم لم يلتزموا بهذا الشرط:

«وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ»

ونلاحظ هنا أن الخطاب لـ «الذين آمنوا»:

«وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»

ومع ذلك حذرهم من «الكفر» إذا هم «أشركوا بالله» ما لم ينزل به سلطانا.

(ج): وبعد بيان أنه لا استخلاف ولا تمكين ولا أمن بمعزل عن إقامة مجتمع «الذين آمنوا» على أرض الواقع بقيادة رسول الله محمد بصفته القائم على إدارة شؤون هذا المجتمع، قال الله تعالى «النور / ٥٦»:

«وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ – وَآتُوا الزَّكَاةَ – وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ – لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»

أي «وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ» القائم على إقامة «مجتمع الإيمان والعمل الصالح» الذي يستحيل أن يقوم على قاعدة الشرك بالله ««يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا»، فمن أين جاء أئمة السلف والخلف أن «وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ» أي في «مرويات السُنّة النبوية»؟!

ثالثًا:

يقول الله تعالي «النساء / ٦٥»:

«فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ – حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ – ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ – وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا»

فهل معنى «يُحَكِّمُوكَ» أي يحكموا «مرويات السُنّة النبوية»؟!

١– إن ضمير الخطاب يتوجه في هذه الآيات إلى رسول الله مباشرة، من غير واسطة من رواة ومحدثين:

«ثُمَّ جَاءُوكَ – فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ – وَعِظْهُمْ – وَقُلْ لَهُمْ – وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ الرَّسُولُ»

وتكتمل الصورة إذا ذهبنا إلى السياق قبلها «النساء / ٦٣»:

«أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ – فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ – وَعِظْهُمْ – وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا»

فكيف يُعرض رسول الله عن المنافقين بعد وفاته، وكيف يكون المعرض عن «الأحاديث» التي نسبها الرواة إلى الرسول معرضًا عن رسول الله في حياته، هل يمكن أن يحل علماء الجرح والتعديل محل الرسول ويمتد ضمير الخطاب إليهم في «يُحَكِّمُوكَ – قَضَيْتَ»، وعلى أتباع الفرق والمذاهب العقدية والفقهية المختلفة ألّا يجدوا في أنفسهم حرجا مما حكم به علماء الجرح والتعديل «وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا»؟!

٢– يقول أئمة السلف في تفسير هذه الآية إن الذي قضى به الرسول «مِّمَّا قَضَيْتَ» لا يتعلق بهذه الآية وإنما يتعلق بـ «وحي السُنّة» التي هي «تشريع الرسول».

أقول:

تستند الجماعات الإرهابية في حجية تطرفها وإرهابها إلى «مرويات السُنّة النبوية» بدعوى أنها «وحي يوحى» وأن «علماء الحديث» هم ورثة الأنبياء الذين يحكمون نيابة عن النبي محمد بعد وفاته، وأن الضمير في «يُحَكِّمُوكَ» يعود إليهم:

«فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ – حَتَّى يُحَكِّمُوكَ – فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ»

فإذا ذهبنا إلى «أحكام القرآن» لا نجد مطلقًا دليلًا يبيح لهؤلاء الإرهابيين عملياتهم الإرهابية، واللافت للنظر أن من بينهم «علماء حديث» يعلمون جيدًا أن هذا المصدر الذي يدّعون أنه «وحي يوحى» قد آتاه الباطل من بين يديه ومن خلفه.

٣– لقد جاء الأمر بـ «طاعة الرسول» في السياق القرآني يخاطب المعاصرين للرسول الذين يسمعون حديثه منه مباشرة، يقول الله تعالى «الأنفال / ٢٠»:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا – أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ – وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ – وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ».

إن قول الله تعالى «وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ» هو البرهان قطعي الدلالة على أن الأمر بـ «طاعة الرسول» خطاب للمعاصرين له لأنه لا يُعقل أن يكون المعنى وأنتم تسمعون المحدثين، فغاب ذلك عن أئمة السلف وعن المحدثين، وراحوا يفترون على الله ورسوله الكذب، ويقولون وأنتم تسمعون «مرويات السُنّة النبوية».

فكيف يطيع المرء من لم يسمعه، وما معنى شرط السماع المتعلق بـ التولي «وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ – وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ»، فهل يمكن أن يكون المعنى ولا تولوا عن المحدثين، ثم أين نذهب بقول الله تعالى عن صفات المؤمنين «النور / ٥١»:

«إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ – لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ – أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا – وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»؟!

فهل السمع والطاعة لـ «حكم الله ورسوله» أم لـ «حكم المحدثين» كلٌ حسب مذهبه في الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف؟!

رابعًا:

ويتهم أئمة السلف والخلف، على مستوى الفرق الإسلامية كلها، من ينكر «مرويات السُنّة النبوية» بإنكار القرآن بدعوى أن القرآن هو الذي أمر باتباع الرسول وطاعته، ونهى عن مخالفته وعصيان أمره، وهذا الاتهام معناه الحكم على من ينكر «مرويات السُنّة النبوية» بالردة، أي بالقتل إذا لم يتب من ردته.

١– إن إنكار «مرويات السُنّة النبوية» ليس معناه إنكار لـ «القرآن» ولا لـ «نبوة» رسول الله محمد ولا لـ «أصول الإيمان»، وإنما إنكار لمصدر تشريعي، عندما اختلف أئمة السلف حول صحة نسبته إلى الله، قالوا إنه ظني الثبوت عن رسول الله.

٢– والغريب أن الذين يتهمون منكري «مرويات السُنّة النبوية» ويحكمون عليهم بـ «الردة» هم الذين عصوا الله تعالى وخالفوا أمر الاعتصام بحبله وأعطوا ظهورهم لتحذير الله لهم من الشرك يقول الله تعالى مخاطبًا رسوله والذين آمنوا معه «الروم / ٣١–٣٢»:

«وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ – مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا – كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ»

٣– عندما يقول أئمة السلف والخلف إن القرآن حث على التمسك بـ «السُنّة النبوية» نقول لهم أين هي هذه الآية القرآنية التي حثت على التمسك بـ «مرويات السُنّة النبوية» والاعتصام بها؟! إن الخلاف يا أهل القران ليس حول «السُنّة النبوية» التي لا يُنكر مسلم فعاليتها في عصر التنزيل، وإنما حول «مرويات السُنّة النبوية» التي لم يكن لها وجود أصلا في عصر التنزيل، وإلا فقولوا لنا عند أي فرقة من الفرق الإسلامية نجد «السُنّة النبوية» التي حث القرآن على التمسك والاعتصام بها؟!

عندما تكون مخالفة مذهب من المذاهب كفرًا وضلالًا مبينًا

إن قضية إنكار «مرويات السُنّة النبوية» ليست قضية الفرق الإسلامية وإنما تمتد لتشمل مذاهب الفرقة الواحد، وكأن رسول الله محمد، عليه السلام، قد وزع «سُنّته» على الفرق الإسلامية، وأمر أئمة كل فرقة أن يوزعوا على مذاهبهم نصيبهم من هذه «السُنّة».

ولغياب أصول البحث العلمي عن قلوب أئمة السلف والخلف، نراهم عند الحديث عن إنكار «السُنّة النبوية» يتركون عصر التنزيل حيث الفعالية الحقيقية لهذه السُنّة، ويذهبون إلى مذاهبهم العقدية والفقهية التي ظهرت بعد قرن من الزمن على أقل تقدير ويأتون بآراء أئمة المذهب في مسألة إنكار «السُنّة النبوية» ولا يقولون «مرويات السُنّة النبوية».

أولًا:

فتعالوا نضرب مثالًا يتعلق بمذهب من مذاهب فرقة أهل السُنّة، وتحديدًا «المذهب الأشعري» لنرى كيف أن أتباع هذا المذهب يتعاملون معه باعتباره «الفرقة الناجية» التي حملت «دين الإسلام» و«السُنّة النبوية» الصحيحة و«الفهم الواعي» لآيات التنزيل الحكيم وأحكامها.

١- يعتبر أتباع «المذهب الأشعري»، كغيره من المذاهب العقدية، أن «القرآن» هو المصدر الأول للتشريع و«السُنّة النبوية» هي المصدر الثاني للتشريع، وأنه لا يمكن لـ «دين الله» أن يكتمل، ولا لشريعته أن تتم إلا بالأخذ بالمصدرين.

٢- ويقولون إن رسول الله محمد لو يعلم أن «سُنّته» سيصيبها تحريف أو تبديل، أو يصعب تمييز صحيحها من سقيمها، ما طالب أمته التمسك بها من بعده، فهي مما لا شك فيه محفوظة بحفظ الله لها.

فأقول:

إنهم يقصدون بـ «سُنّته» المصدر الثاني للتشريع، لفرقة أهل السنة والجماعة، المبين والمكمل لأحكام القرآن، كما يزعم أتباع الفرق الإسلامية كلها، ثم نراهم يستخدمون مصطلحات علم الحديث مثل الحديث الصحيح والضعيف ويقولون «أو يصعب تمييز صحيحها من سقيمها» وهم بذلك يعترفون أن الله تعالى لم يحفظ هذه «السُنّة» بدليل اختلاط الصحيح بـ السقيم إلا أن جهابذة علم الحديث استطاعوا تمييز الصحيح من السقيم، كلٌ حسب مذهبه العقدي والفقهي، وحسب مدرسته في الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف.

ثانيًا:

ويستندون إلى قول الله تعالى «الحشر / ٧»:

«وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ – وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا – وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ»

في وجوب معاقبة منكري «مرويات السّنُة النبوية» الذين يقولون «القرآن وكفى».

١– عندما غابت المنهجية العلمية عن دراسة وتدبر آيات الذكر الحكيم، قام أئمة السلف والخلف بتوظيف الآيات القرآنية لصالح مذاهبهم العقدية والفقهية، وأخرجوها من سياقاتها، واستنبطوا منها أحكامًا ما أنزل الله بها من سلطان، دفاعًا عن «مرويات السُنّة النبوية» التي إن صحت عند فريق منهم لم تصح عند آخر.

٢– فإذا ذهبنا إلى الآية «الحشر / ٧» لا نجد فيها مطلقًا ما يدل على وجوب طاعة الرسول في «مرويات» الرواة والمحدثين التي وسموها باسم «مرويات السُنّة النبوية» بعد قرن من وفاة الرسول، لتأخذ قدسية في قلوب أتباع المذهب، وإنما نجد أمرًا بطاعة الرسول فيما آتاهم، وأن ينتهوا عما نهاهم، في مسألة محددة تتعلق بموضوع «توزيع الفيء».

٣– فإذا بأئمة السلف يخرجون من هذا المأزق بقولهم إن «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» فإذا سألناهم هل هذه القاعدة على إطلاقها قالوا نعم، قلنا فماذا عن الآيات التي يُفهم منها «الخصوصية» ولا يمكن تعميمها، أو يُفهم منها «العمومية» ولا يمكن تخصيصها، وذلك حسب السياق الذي وردت فيه؟! قالوا اعطونا مثالًا واحدًا على ذلك.

٤– قلنا إن هذه الآية «الحشر / ٧» نفسها، خير برهان على أن هذه القاعدة ليست على إطلاقها، ذلك أن المتدبر لسياق الآية يجد أنه يتحدث عن خلاف نشب بين المهاجرين والأنصار حول توزيع الرسول لـ «الفيء» فنزل القرآن يُبيّن حقيقة هذا الخلاف.

و«الفيء»: هو ما استولى عليه المسلمون من أموال العدو من غير قتال:

يقول الله تعالى «الحشر / ٩»:

«وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ – يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ – وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا – وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ – وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ»

فإذا سلمنا لأئمة السلف بقاعدة «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»، وأن فعل «الإيتاء» لا يشمل فقط «الفيء» وإنما أيضًا «مرويات السُنّة النبوية» التي لم تكن قد ولدت بعد، فهذا معناه أن المهاجرين كانوا يتهمون الأنصار بأن «فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا» من «مرويات السُنّة النبوية»، فنزل القرآن يدافع عن الأنصار ويبين أنهم «لا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا» من «مرويات السُنّة النبوية»، فهل هذا كلام يقبله منطق سليم؟!

٥- إن المتدبر للسياق القرآني يعلم موقف المنافقين من توزيع رسول الله للصدقات، فإذا رأوها توزع على غيرهم طعنوا ولمزوا، وهذا ما بينه الله تعالى في «التوبة / ٥٨»:

«وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ - فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا - وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا - إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ - وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ - وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ - سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ - إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ»

فانظر وتدبر فعل «الإيتاء» الذي ورد في توزيع «الفيء» في «الحشر / ٧»:

«وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ»

وفي توزيع الصدقات في «التوبة / ٥٨»:

«مَا آتَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»

لتعلم أن قول الله تعالى مخاطبا الذين آمنوا:

«وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا»

لا علاقة له مطلقًا بـ «مرويات السُنّة النبوية» التي لم تكن قد ولدت بعد.

ثالثًا:

ويذهب أئمة السلف والخلف إلى أن «الذكر» الذي تعهد الله بحفظه فقال تعالى «الحجر / ٩»:

«إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ - وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»

يشمل «آيات الكتاب» و«مرويات السُنّة النبوية» باعتبار أن «الكتاب والسُنّة» هما رسالة الله تعالى للناس جميعًا، فكان لابد أن يتكفل الله بحفظ «السُنّة» فقيض لـ «مروياتها» رجالًا يحفظونها ويرعونها جيلا بعد جيل، من عصر التنزيل مرورا بعصر الصحابة والتابعين إلى وصولًا إلى عصر التدوين.

١- فمن هم «الرجال» الذين قيضهم الله تعالى لحفظ «مرويات السُنّة النبوية» إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، هل هم «رجال» فرقة أهل السُنّة أم رجال الشيعة أم رجال المعتزلة أم رجال الإباضية؟!

٢- وإذا كان الله تعالى قد حفظ «مرويات السُنّة النبوية» من عصر التنزيل إلى عصر التدوين فلماذا قام علم الحديث والجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف على قواعد مذهبية حسب المذهب العقدي والفقهي لعلماء كل فرقة؟!

٣- ألم تحمل «مرويات السُنّة النبوية» الإسرائيليات التي مازال علماء الخلف يعملون على تنقيتها إلى اليوم؟!

٤- أليس «رجم» الزانية والزاني، و«قتل» المرتد، من «مرويات السُنّة النبوية» التي حفظها جهابذة «علم الحديث» وليس للعقوبات التي حملتها هذه المرويات أصل في كتاب الله؟!

٥- هل يمكن أن يخرج النبي، عليه السلام، على قومه قائلا إن الله قد أوحى إليّ مصدرًا ثانيًا للتشريع يُفسر القرآن ويستكمل أحكامه، وهو «سُنّتي» التي استقلت بـ «التشريع» ومن هذه الأحكام «رجم» الزانية والزاني و«قتل» المرتد؟!

٦- فماذا لو قال له أحد من قومه يا محمد إن القرآن الذي تدعي أنه كلام الله قال في مطلع سورة النور «النور / ١»:

«سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا - وَفَرَضْنَاهَا - وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ - لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»

ونحن أهل اللسان العربي نعلم أن الآيات «البَيِّنَات» لا تحتاج إلى من يُبيّنها أو يستكمل أحكامها، فكيف يقول ربك بعد ذلك «النور / ٢»:

«الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي - فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا - مِئَةَ جَلْدَةٍ»

وأنت تقول إن ربك فوّضك في تشريع «الرجم» بشريعة من خارج القرآن، تأتي بعقوبة أشد من «الجلد» تسفك بها الدماء، وتقول إنها أيضا «وحي يوحى»، ونحن عندما شكّكنا في حجية القرآن وفي صحة نسبته إلى ربك نزلت الآية «البقرة / ٢٣»:

«وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا - فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ»

فأين البرهان الإلهي على أن «كلامك» الذي نعرفه ونعرف أسلوبه وتعودنا على سماعه من قبل بعثتك، مما أنزله عليك ربك باسم «السُنّة النبوية»؟!

رابعًا:

وعندما يقول الله تعالى «الأحزاب / ٣٦»:

«وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ - إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا - أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ - وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ - فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا)»

يقول أئمة السلف والخلف إن هذه الآية تبيّن أن من عصى الرسول وخالف «سُنّته» فقد ضل ضلالًا مبينًا، وطبعا مصيره جهنم خالدًا فيها.

أقول:

١- إن الآيات التي أمرت بطاعة الرسول ونهت عن معصيته ومخالفة أمره كثيرة، ولو كنت أنا شخصيًا أعيش مع رسول الله في عصر الرسالة، ولم أمتثل إلى قضائه، فقد كفرت به وبرسالته لقول الله تعالى:

«وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ - فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا»

ولقول الله تعالى «النساء / ١٤»:

«وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ - وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ - يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا - وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ»

ولكن الحقيقة غير ذلك، فلا أنا ولا علماء وفقهاء ودعاة الفرق الإسلامية نعيش مع رسول الله في عصر التنزيل، وإنما نعيش بين أمهات كتب «الأحاديث» التي نسبها الرواة إلى رسول الله ودوّنها المحدثون بعد وفاته بقرن من الزمن على أقل تقدير.

٢- وهل الآية القرآنية التي تحدثت عن قضاء الرسول «إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا»، تأخذ نفس حجية قضاء المحدثين وحكمهم على «المرويات» التي نسبها الرواة إلى الرسول بعد وفاته كلٌ حسب مذهبه العقدي وشروطه في الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف؟!

والغريب أن نجد أن أئمة السلف والخلف، للفرق والمذاهب الإسلامية، يقولون نعم تأخذ «مرويات السُّنة النبوية» نفس حجية «حديث الرسول» في عصر التنزيل، ودليلهم على ذلك أن جهابذة علم الحديث هم الذين قاموا بتنقية وغربلة هذه مرويات الرواة، وفصلوا الصحيح منها عن الضعيف والموضوع، حتى وصلوا إلى «أحاديث الرسول» الصحيحة، وهذا الكلام لا يقبله قلب سليم.

٣- فما حكم أئمة السلف والخلف على مَنْ قال إن الله تعالى حفظ «الكتاب»، أي آيات الذكر الحكيم، ولم يحفظ «السُنّة»، أي مرويات رواة الفرق الإسلامية؟!

يحكمون عليه بـ «الردة»، ويُستتاب فإن لم يتب يقتل، لأنه عصى رسول الله ولم يتبع «سنّته»، والذي لا يتبع «السُنّة النبوية» قد ضل ضلالًا مبينًا ومصيره جهنم خالدًا فيها:

ليبقى السؤال قائما:

هل اجتمع أئمة السلف والخلف على كتاب واحد يحمل «أحاديث النبي»، كما اجتمعوا على «كتاب الله» ليصبح من أنكر حديثًا واحدًا من «كتاب الأحاديث» كمن أنكر آية واحدة من «كتاب الله»، فيكون في هذه الحالة مرتدًا؟!

والجواب:

لم ولن يجتمع أئمة السلف والخلف على كتاب واحد يحمل «أحاديث النبي» إلا إذا أعلن «إبليس» عن انتحاره.

٤- إن قضية «التكفير» لم تسلم منها فرقة من الفرق الإسلامية، ولا مذهب من مذاهبها العقدية والفقهية، وذلك لأنهم يعملون جميعًا داخل «منظومة التفرق في الدين»، فرقة تُكفّر من أثبت لله من الصفات ما نفته هي، وفرقة تحكم بـ الردة» على من أنكر «مرويات» هي باطلة عند فرقة أخرى، ومن منطلق أزمة التخاصم العقدي الفقهي سُفكت الدماء بغير حق.

خامسًا:

إن تاريخ الصراع العقدي والفقهي بين الفرق الإسلامية، حول مسائل الأسماء والصفات الإلهية، كتبت فيه المجلدات ومتاحة على شبكة الإنترنت، ألا يُعتبر هذا الصراع الدموي من أكبر الكبائر التي تُخرج الذين اشتركوا فيه من ملة الإسلام؟!

١- هل لم يقرأ أئمة السلف والخلف يومًا قول الله تعالى «النساء / ٩٢»:

«وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَأً»؟!

لقد بدأ الله تعالى الآية بـ «وَمَا كَانَ» لبيان أنه ما كان لمؤمن أن يوجد أصلًا، هذا الذي يقتل مؤمنًا إلاّ في حال الخطأ، ذلك أن صفة الإيمان تُسلب تماما من القاتل الذي تعمَّد القتل، لقول الله تعالى بعد ذلك «النساء / ٩٣»:

«وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا - فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا»

٢- ثم يستدلون على جواز سفك المؤمنين دماء بعضهم بعضا بقول الله تعالى «الحجرات / ٩»:

«وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا»

فأقول:

إن الآية تتحدث عن اقتتال بدأ بين طائفتين من المؤمنين ولم يصل إلى سفك الدماء، بدليل قول الله تعالى: «فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا»، ثم توجه الخطاب إلى طرف ثالث هو «السلطة الحاكمة» لتقوم بدورها تجاه المعتدي الباغي:

«فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى - فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي»

وهنا، وفي حالة البغي «تنتفي» صفة الإيمان عمن قتل مؤمنًا «متعمدًا» استنادا إلى الآية:

«وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا - فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا»

ولكن أئمة السلف والخلف نسوا أو تناسوا أن هناك طرفًا ثالثًا في المعادلة وهو «الخلافة الإسلامية» أو «السلطة الحاكمة».

٣- فإذا ذهبنا إلى «موقعة الجمل» نجد أنها بين طائفتين فقط لأن الطرف الثاني هو «الخلافة الإسلامية» نفسها، أي أن الطرف الأول يحارب «السلطة الحاكمة»، فلا وجه مطلقا للاستدلال بالآية «الحجرات / ٩» على جواز أن يسفك المؤمنين دماء بعضهم بعضا.

إن فرقة «الخوارج» فرقة من الفرق الإسلامية، حسب تصنيف أمهات كتب الملل والنحل، ومع ذلك هناك من أئمة السلف من كفروهم وأخرجوهم من ملة الإسلام لأنهم خرجوا على خليفة المسلمين «عليّ بن أبي طالب» وسفكوا الدماء عمدًا مع سبق الإصرار والترصّد، في معركة النهروان «٣٨هـ».

٤- واليوم هناك من العلماء والفقهاء من يقولون إن «داعش» خوارج العصر، مع أنها طائفة من طوائف فرقة «أهل السنة والجماعة»، ويستدلون على ذلك بـ «رواية» متفق عليها بين البخاري ومسلم، تقول:

«سَيَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ أَحْدَاثُ الْأَسْنَانِ - سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ - يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ - يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ - يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ - فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ - فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»

صحيح إن القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد كبيرة من الكبائر تفعلها «داعش» كل يوم، وبناء على هذه الرواية يحل قتلهم، فلماذا ذهب أئمة وعلماء من «فرقة أهل السُنّة» إلى عدم تكفير «داعش»؟!

يقولون: إننا لا نستطيع تكفيرهم لأنهم يُقرّون بـ «أصول الإيمان» وإن ارتكبوا فظائع وكبائر الدنيا كلها.

٥- أقول:

نعم إن ٩٩٪ من المسلمين يُقرون بـ «الوحدانية» وبـ «أصول الإيمان»، ولا قيمة لهذا الإقرار عند الله تعالى إلا بـ «العمل» بـ «مقتضيات» الوحدانية، و«العلم» بـ مقتضيات الإيمان، فليس «داعش» فقط هي التي لم تعمل بـ «مقتضيات» الإقرار.

إن التطرف الديني، والتخاصم المذهبي العقدي، والإرهاب الدموي الذي أصبح ظاهرة تنذر بخطر عظيم، لا سند له من كتاب الله، وإنما من «مرويات السُنّة النبوية» التي وسموها باسم «المصدر الثاني للتشريع» الذي يدّعي أئمة كل فرقة، وأئمة كل مذهب عقدي وفقهي من مذاهب الفرقة الواحدة، أنه المصدر المبيّن والمفسّر لآيات الذكر الحكيم، والمكمل لأحكامها.

إن التطرف الديني، والإرهاب الحقيقي، في أن تحكم «الرواية» البشرية «الآية» الإلهية.

القواصم التي قصمت ظهر المذاهب

لقد خالف أئمة السلف والخلف أصول البحث العلمي عندما اعتبر أتباع كل فرقة أنهم «الأمة الإسلامية» التي حملت «السُنّة النبوية» الصحيحة، وكأنهم يعيشون مع رسول الله في عصر التنزيل واكتمال الدين، يعلمون من الذي أطاع الرسول ومن الذي عصاه وخالف أمره، وبناء عليه يحكمون على من خالف «المرويات» التي صحت عندهم بـ «الردة» فإذا ذهبنا إلى تاريخ ظهور الهياكل التنظيمية لهذه الفرق الإسلامية نجده بعد عصر التنزيل بقرن من الزمن على أقل تقدير.

لقد خالف أئمة السلف والخلف أصول البحث العلمي عندما جعلوا «السند الروائي» الخاص بكل فرقة، وشروط عدالة وضبط «الراوي»، وصحة وضعف «المتن»، هو الذي يحدد إذا كان «النبي» قال هذا الحديث أم لم يقُله، وهي في الحقيقة مسألة احتار فيها جهابذة الجرح والتعديل، ومع ذلك يُصدرون أحكام التكفير على من يطعن في «السند الروائي» الذي صح عندهم.

أولًا:

يقول أئمة السلف والخلف: إن الذين يطعنون في السُنّة إنما يطعنون في أخص خصوصيات هذه الأمة وهو «الإسناد» الذي ميز الله به «أمة الإسلام» وألهمها إياه، وحفظ به كتابه وسُنّة نبيه، فلم يكن «الإسناد» في أمة من قبل.

١- ما معنى قولهم: «الإسناد الذي ميز الله به أمة الإسلام وألهمها إياه»؟!

لقد توقفت كثيرا عند هذه الجملة خاصة وأني أعلم قدرًا لا بأس به مما يُسمى بـ «علم الحديث»، وشعرت أن الذين يكتبون هذا الكلام يجب أن يقدموا للمحاكمة بتهمة «التدليس والتلبيس» على العامة من المسلمين الذين يجهلون ما هو «علم الحديث».

إن أئمة الفرق الإسلامية عندما يتحدثون عن «الإسناد» لا يجب أن يتحدثوا باسم «الأمة الإسلامية» وتقول كل فرقة إن الله ميزها بهذا «الإسناد» وألهمها إياه، والحقيقة أنها تتحدث عن فرقتها ومذهبها العقدي الذي تنتمي إليه وتقاتل في سبيله، فعن أي «إسناد» تتحدث؟!

٢- إنهم عندما يتحدثون عن «الإسناد» باسم «الأمة الإسلامية» فإنهم يجعلون «الحديث» الذي صح في مذهبهم يأخذ في ذهن السامع حجية «إجماع الأمة» التي لا وجود لها أصلًا، فإذا روى إمام من أئمة فرقة من الفرق «حديثًا» يحرض أتباعه على عمل إرهابي فإنهم يشعرون بوجوب القيام بهذا العمل لأنهم الأمة الإسلامية التي تحمل «الإسناد» الصحيح لهذا «الحديث».

٣- إن إمام أي مسجد إذا قال للمصلين إن بينكم شخصًا يُنكر «السُنّة النبوية» وأشار إليه فإنهم قد يقتلونه في مكانه، ولقد شهدت كثير من البلاد في مساجدها مثل هذه الأزمة الدينية

بين أتباع المذاهب المختلفة إذا اجتمعوا في مسجد واحد، وكل طائفة ترفع سلاح التكفير وإنكار السنة في وجه الطوائف الأخرى بسبب ثقافة الجهل والتخاصم المذهبي والتقليد الأعمى.

ثانيًا:

إن سبب ادعاء المحدثين أن الله تعالى حفظ «الإسناد» هو إعطاء قدسية لـ «مرويات السُنّة النبوية» بادعاء أن الرواة الذين نقلوا «الحديث» هم الذين نقلوا «القرآن»، وعليه فإن الطعن في سند «الحديث» طعن في سند «القرآن» لأن الناقل لهما واحد.

١- وهذه مصيبة من المصائب التي تمس ملة الوحدانية، عندما يوجد من يعتقد أن تعهد الله تعالى بحفظ الذكر يشمل حفظ «الآيات» التي أثبت الواقع حفظها، كما يشمل حفظ «المرويات» التي لم يشهد الواقع حفظها، لا من الذين نقلوها ولا من الذين دوّنوها.

٢- إن أقصى ما يمكن أن يتوصل إليه «علم الإسناد» هو إثبات صحة ما نَسَبَه الرواة إلى الرسول، ومعلوم أن حجية دين الله لا تثبت بصحة نسبة الدين إلى «الرسل»، وإنما بصحة نسبته إلى «الله» عن طريق البراهين «الآيات» الإلهية التي يؤيد الله بها رسله.

٣- إذًا فـ صحة نسبة «المرويات» إلى الله تعالى تحتاج إلى «برهان» من الله وليس من المحدثين، وهذا «البرهان» يستحيل أن يكون «السند الروائي المذهبي» الذي ما أنزل الله به من سلطان.

وصحة نسبة «القرآن» إلى الله تعالى تحتاج إلى «برهان» من الله وليس من رسوله، وهذا «البرهان» هو «الآية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد التي حملها هذا «القرآن» والقائمة بين الناس إلى يوم الدين.

٤- إن الدراس لـ «علم الحديث» يعلم أن «السند الروائي» أخذ ينمو وينمو حتى توقف عند عصر تدوين المحدثين وعلماء الجرح والتعديل لكتبهم بعد ما يزيد عن قرنين من الزمن من وفاة النبي، عليه السلام، فلماذا لم يتوقف «السند الروائي» عند خليفة المسلمين الأول؟!

لماذا لم يُدوّن الخلفاء الراشدون «الأحاديث» تحت إشراف «الخلافة الإسلامية»، ولو أنهم فعلوا لورث المسلمون كتابًا واحدًا لـ الحديث بـ «سند» الخلافة الإسلامية، وما كان لعلم الحديث أن يولد أصلًا؟!

٥- لقد غاب عن أئمة السلف والخلف أننا عندما نريد الاستدلال بـ «كلام الله» نقول: قال الله تعالى ونقرأ الآية دون إسنادها لأحد من البشر ولو كان الرسول نفسه فلا نقول يروي الرسول عن الله تعالى لأن الذي يحتاج إلى «سند» هو الشيء المائل الذي لا يقوم إلا به وكلام الله تعالى لا يحتاج إلى «سند»، فقولهم إن رواة القرآن هم رواة السُنّة فكما قبلنا رواة القرآن علينا أن نقبل رواة السُنّة قول باطل من جذوره.

ثالثًا:

عندما خرج رسول الله محمد على قومه بكلام غير الذي اعتادوا سماعه منه، وهو آيات الذكر الحكيم اتهموه بالضلال والغواية فنزل القرآن يُبيّن لهم أن الذي نطق به الرسول ليس كلامه وإنما كلام الله الذي أنزله جبريل على قلب الرسول فقال تعالى «النجم / ١-٥»:

«وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى - مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى - وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى - إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى - عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى»

١- فكيف يجرؤ مسلم أن يقول إن اتهام الرسول بالضلال والغواية كان بسبب ما نطق به من كلام الله ومن كلام الرسول «أي حديثه» الذي كان يعرفه قومه من قبل بعثته؟!

ثم عندما يقول الله تعالى «عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى» الذي هو جبريل الذي كان ينزل بالقرآن على قلب رسول الله محمد «البقرة / ٩٧»:

«قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ - فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ - بِإِذْنِ اللَّهِ - مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ - وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ»

٢- فهل هناك آية واحدة تشير إلى أن جبريل علّم رسول الله نصوص وحي ثاني باسم «الأحاديث النبوية»، وهل يمكن أن يعود الضمير «هو» في قول الله تعالى «إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى» إلى كل ما كان ينطق به الرسول سواء كان كلام الله أو كلام الرسول؟!

إن الضمير «هو» في قول الله تعالى «إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى» يستحيل أن يعود إلى غير «الذكر» الذي تعهد الله تعالى بحفظه، وهو تفاعل «الكلمة القرآنية» مع «مقابلها الكوني» الذي يُذكر الناس بمعناها، فبأي منطق شرعي يجعله أئمة السلف والخلف يعود إلى «كلام الرواة» الذي وسموه باسم «السُنّة النبوية» ليأخذ قدسية في قلوب المسلمين؟!

٣- ومع كل ما سبق بيانه نجد أن من علماء الخلف من يُصرّون على أن الله تعالى حفظ «مرويات السُنّة النبوية» بدعوى أن رواة القرآن هم رواة السُنّة، وهم بذلك يساوون بين «كلام الله» و«كلام الرواة» ويعطون ظهورهم إلى حقيقة علمية واقعية وهي أن «كلام الله» قد وصل إلينا بطريق واحد محفوظ بحفظ الله له، و«كلام الرواة» وصل إلينا بمئات الطرق المذهبية.

٥- والإشكالية الأكبر أنهم يقولون إن «حفظ الذكر» في قول الله تعالى:

«إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»

لا يقتصر على القرآن وحده بل المراد به شرع الله ودينه الذي بعث به رسوله محمدا وهو أعم من أن يكون قرآنا أو سُنّة.

فماذا يقصدون بهذا الكلام الهلامي «وهو أعم من أن يكون قرآنا أو سُنّة»؟!

يقولون: إن «الذكر» يأتي بأكثر من معنى، فيأتي بمعنى «الرسالة – الشريعة – السُنّة – التذكرة – الشرف – العبادة – رسالة الرسول».

ثم يختارون من بين هذه المعاني معنى «رسالة الرسول» التى تشمل «الكتاب والسُنّة» ويقولون إن الرسول لم يكن ليقول شيئًا من عنده «إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يُوحَى» فكيف يتكفل الله بحفظ «القرآن» ولا يتكفل بحفظ «السُنّة» مع أن كليهما وحي من عنده سبحانه وتعالى؟!

٦- ويقولون إنه لا خلاف بين أحد من أهل اللغة والشريعة في أن كل وحى نزل من عند الله تعالى فهو «ذكر منزل» محفوظ بحفظ الله له، واللافت للنظر أن قولهم هذا لا علاقة له بأصل الإشكال الذي هو أننا لا نختلف معهم في تكفل الله تعالى بحفظ «الذكر المنزل» وإنما في هل يمكن لهذا «الذكر المنزل» أن يتحول خلال قرن من الزمن إلى «مرويات» إن صحّت عند فرقة من الفرق الإسلامية لم تصح عند أخرى؟!

والسؤال:

إذا كان الرواة الذين نقلوا «السُنّة» هم الذين نقلوا «القرآن» فلماذا لم يمس علم الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف «القرآن» بأي سوء، ومس «مرويات السُنّة النبوية» بكل سوء؟!

رابعًا:

إن كلمة «الذكر» تأتي في القرآن بأكثر من معنى حسب السياق، فإذا جاءت في سياق الحديث عن آيات الذكر الحكيم فإنها تعنى تفاعل «الكلمة القرآنية» مع «مقابلها الكوني» الذي يُذكر الناس بمعناها والموجود خارج القرآن.

١- يقول الله تعالى «الأنبياء /٥٠»:

«وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ – أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ»

ويقول الله تعالى «ص /١»:

«ص – وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ»

ويقول الله تعالى «فصلت /٤١-٤٢»:

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ – وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ – لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ – تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»

ويقول الله تعالى «يوسف / ١٠٤»:

«وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ – إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ»

ويقول الله تعالى «الحجر / ٦»:

«يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ – إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ»

٢– لقد قالوا لرسول الله محمد «إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ» فهل كان السبب هو «الذكر» الذي هو «الآيات» التي كانت تتنزل على رسول الله محمد، أم الذي هو «الروايات» التي ولدت بعد وفاة الرسول بقرن من الزمن؟!

٣– وهل الظالم الذي سيعض على يديه يوم القيامة ويقول «الفرقان / ٢٨–٢٩»:

«يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً – يَا وَيْلَتا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً – لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي – وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً»

يقصد بـ «الذكر» الكتاب والسُنّة كلٌ حسب الفرقة التي ينتمي إليها وقد قال الله تعالى بعد ذلك «الفرقان / ٣٠»:

«وَقَالَ الرَّسُولُ – يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي – اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً»؟!

فلماذا لم يهجر قوم الرسول «السُنّة»، هل لأنهم قبلوها وعلموا بها، وكانت أزمتهم مع القرآن فقط؟!

٤– إن منهج التفكير العلمي يفرض على علماء السلف والخلف، عند حديثهم عن طاعة الرسول أو معصيته أن ينطلقوا من «عصر التنزيل» وأن يعتبروا أنفسهم يعيشون مع رسول الله يسمعون أحاديثه منه مباشرة، ولا ينطلقون من «عصر التدوين» يوم دوّنت كل فرقة أمهات كتبتها في التفسير والحديث والفقه استنادًا إلي «مرويات الرواة» التي اعتبرها المحدثون «أحاديث نبوية» قام علماء الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف بتقسيمها إلى:

«حديث صحيح – حسن – ضعيف – مرفوع – موقوف – موصول – مرسل – مقطوع – منقطع – معضل – معلق – مدلس – غريب – شاذ – منكر – مضطرب – موضوع ... إلى آخره»

٥– وليس هذا التقسيم ثابتًا عند الفرق كلها، فكل هذه الصور من الأحاديث تنقلب رأسًا على عقب عند مذهب عقدي أو فقهي آخر، فيجعل الصحيح ضعيفًا، ويجعل الضعيف صحيحًا ... وأمهات كتب الجرح والتعديل خير شاهد على ذلك، فإذا ذهبنا إلى موسوعة الحديث لـ «الشيخ الألباني» نجده صحّح فيها ما ضعّفه أئمة السلف، وضعّف ما صححوه، ثم جاء «الشيخ حسن بن علي السقاف» فهدم منهج الألباني في التصحيح والتضعيف وكتب كتبًا في تناقضات الألباني.

والسؤال:

أين نجد «طاعة الرسول» وسط هذه المنظومة «الحديثية» الهلامية؟!

لا توجد آية واحدة في كتاب الله تحدثت عن طاعة الرسول أو عن معصيته إلا وكانت تخاطب «المعاصرين» للرسول فقط فكيف يُطاع الرسول وهو ميت؟!

يقول الله تعالى عن صفات المؤمنين «النور / ٦٢-٦٣»:

«إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ – الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ – وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ – لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ...»

ثم يعطي أئمة السلف والخلف ظهورهم لقول الله تعالى بعد ذلك:

«فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ – أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ – أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»

الذي هو خير برهان على أن الأمر بـ «طاعة الرسول» خاص بمن «عاصروه» واستمعوا حديثه منه مباشرة، وإلا فما معنى «وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ»؟!

فيا علماء الخلف، يا من تقولون إن رواة القرآن هم رواة السُنّة وإن حفظ الله للقرآن قد شمل حفظ السُنّة وحفظ مصادرها التشريعية الثانية:

اتقوا الله في دينكم وفي المسلمين، الذين يتبعون مذاهبكم، وهم يظنون أنهم يتبعون «السُنّة النبوية»، والحقيقة أنهم يتبعون سُنّة مذاهبكم العقدية والفقهية.

عندما تحرف القراءات العصرية مفهوم «النبوة»

لقد جاءت الآية الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد آية عقلية تشاهدها القلوب بآليات التفكر والتعقل والتدبر والنظر..، ولا تنتهي فعاليتها بوفاته وتظل قائمة بين الناس إلى يوم الدين، وعندما يحمل القرآن الآية الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، ويطلب الله من الناس جميعا التحقق من صدق «الآية» ومن صدق «النبوة»، ويخاطبهم بقول تعالى:

«وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ – مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا – فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ – وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ – إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ»

ولا يستطيعون إلى اليوم أن يأتوا بسورة من مثله، فهذا خير برهان على أن القرآن الذي بين أيدي الناس اليوم هو كلام الله تعالى يقينًا و«آيته» الدالة على صدق «نبوة» رسوله محمد، عليه السلام.

لقد عَزَلَ أصحاب القراءات القرآنية المعاصرة بعض الآيات عن سياقاتها، وجعلوها البرهان على أن الناس جميعًا سيدخلون الجنة وإن لم تتبعوا رسول الله محمد، ويكفيهم الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح استنادًا إلى الآيات التالية:

قول الله تعالى «البقرة /٦٢»:

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ»

قول الله تعالى «المائدة /٦٩»:

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ»

قول الله تعالى «الحج /١٧»:

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»

ولبيان حقيقة هذه الشبهة والرد عليها علينا أن نتدبر السياق الذي وردت فيه هذه الآيات الثلاث.

أولًا:

قول الله تعالى «البقرة / ٦٢»:

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ»

١- لقد جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن بني إسرائيل وكيف قابلوا نعم الله بالكفر فاستحقوا الذلة والمسكنة والغضب:

يقول الله تعالى «الآية ٦١»:

«وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ ... وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ، بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ»

ثم قال تعالى «الآية ٦٢»:

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ»

٢- ثم يستكمل السياق الحديث عن بني إسرائيل فيقول بالله تعالى بعد ذلك «الآية ٦٣»:

«وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ... ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ... وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ ...»

ونلاحظ أن «الآية ٦٢»:

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ ...»

جاءت وسط سياق يخاطب ذرية بني إسرائيل، الموجودين في عصر الرسالة، المعاصرين لرسول الله محمد، عليه السلام، وهذا السياق يبدأ بـ «الآية ٤٠»، وقول الله تعالى:

«يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ»

إذًا فهذا النداء «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ» ليس موجهًا إلى الموجودين في عصر موسى، عليه السلام، وإنما إلى ذريتهم المعاصرين لرسول الله محمد، يذكرهم بمواقف أسلافهم من الرسل، وكفرهم بنعم الله عليهم لعلهم يراجعون أنفسهم ويؤمنون بالنبي الخاتم محمد ويتبعون رسالته.

٣- إن «الَّذِينَ آمَنُوا» و«الَّذِينَ هَادُوا» و«النَّصَارَى» و«الصَّابِئِينَ» هم الذين اتبعوا رسلهم، كلٌ في عصره، ثم تمسكوا بعد وفاة الرسل بأصول الإيمان، ولم يشركوا بالله شيئا وعملوا الصالحات حتى بعث الله لهم رسولًا فهؤلاء هم الذين وعدهم الله بقوله:

«فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ»

ولقد بعث الله رسوله محمدًا، عليه السلام، للناس جميعًا:

يقول الله تعالى «المائدة / ١٥»:

«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ - قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا - يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ - وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ - قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ»

٤- فالذين خاطبهم الله تعالى في هذا السياق بـ «قَدْ جَاءَكُم» هم أتباع الرسل السابقين الذين أمرهم الله تعالى باتباع رسوله محمد.

ويقول الله تعالى «المائدة / ١٩»:

«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ - قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا - يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ - أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ - فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ - وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»

فالذين خاطبهم الله تعالى في هذا السياق بـ «أَن تَقُولُوا» وبـ «فَقَدْ جَاءَكُم» هم أتباع الرسل السابقين الذين أمرهم الله تعالى باتباع رسوله محمد.

ثانيًا:

قول الله تعالى «المائدة / ٦٩»:

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ»

١- لقد جاءت هذه الآية في سياق يبدأ بـ «الآية ٦٨»:

«قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ - لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ - حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ - وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ - وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً - فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ»

ثم قال الله تعالى «الآية ٦٩»:

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ»

ثم «الآية ٧٠»:

«لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ - وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً -كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ - فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ»

٢- أي أن «المائدة / الآية ٦٩» جاءت أيضا في سياق تذكير أهل الكتب السابقة بما فعله أسلافهم مع رسلهم وقتلهم الأنبياء بغير حق ...، فيرجع إلى ما قلناه في «البقرة / ٦٢»:

ثالثًا:

قول الله تعالى «الحج / ١٧»:

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»

١- ولقد جاءت هذه الآية في سياق يبدأ بـ «الآية ١٥»:

«مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ - فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ - ثُمَّ لِيَقْطَعْ - فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ»

ثم قال الله تعالى «الآية ١٦»:

«وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ – وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ»

ثم جاءت «الآية ١٧»:

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»

ثم قال الله تعالى بعد ذلك «الآية ١٨»:

«أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ – مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ – وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ – وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ – وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ – وَمَنْ يُهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ – إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ»

٢– وهنا نلاحظ أن السياق الذي وردت فيه الآية «الحج / ١٧» جاء مختلفًا عن سياق آيتي البقرة والمائدة، فهنا يتحدث عن تأييد الله ونصره للمؤمنين أتباع الدين الحق، ويُبيّن أن الفصل بين أهل الملل المختلفة سيكون يوم القيامة، وأضاف إلى الملل المجوس والمشركين، ولم يذكر جملة:

«مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً»

التي ذُكرت في آيتي البقرة والمائدة، ذلك أن المجوس والمشركين لا يؤمنون بـ «الوحدانية» ولا بـ «اليوم الآخر»، فـ «المجوس» يعبدون إلهين إلهًا للخير وإلهًا للشر، و«المشركون» يشركون بالله ما لم ينزل به سلطانًا.

٢– كما لم تذكر الآية جملة:

«فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ»

ذلك أن سياق الآية لا يتحدث عن الشروط الواجب توافرها للنجاة في الآخرة، وإنما عن الفصل بين الملل المختلفة يوم القيامة، لذلك فهي خارج موضوع آيتي البقرة والمائدة.

رابعًا:

١– وحسب ما يقتضيه علم «السياق القرآني» كان علينا أن نتوقف عند قول الله تعالى:

«وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ»

الذي ورد في آية سورة البقرة، وقول الله تعالى:

«فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ»

الذي ورد في آية سورة المائدة، وعلاقتهما بسياق سورة البقرة، الذي يخاطب الله تعالى فيه أهل الكتب السابقة، والذي يبدأ بالآية «البقرة / ٤٠»:

«يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ – اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ – وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ – وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ – وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ – وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ – وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً – وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ»

نتدبر قول الله تعالى:

«وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ – مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ»

إذًا فـ «الَّذِينَ هَادُوا»، مأمورون بالإيمان بالكتاب الخاتم، القرآن الكريم، واتباع النبي الخاتم، رسول الله محمد، عليه السلام.

٢– ثم بعد بيان جانب من قصة بني إسرائيل مع رسولهم موسى، عليه السلام، وضع الله القانون العام للحساب في الآخرة، فقال تعالى «البقرة / ٦٢»:

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ»

ثم استكمل السياق قصة بني إسرائيل، وأنهم افتروا على الله الكذب، وقولهم «الآية ٨٠»:

«وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً – قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ – أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ»

٣– ثم ذكر الله القانون العام للحساب في الآخرة، فقال تعالى «الآية ٨١ –٨٢»:

«بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً – وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ – فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ – هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ – وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ – أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ – هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»

ونلاحظ أن «الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» هم الذين آمنوا بالرسل، كلٌ في عصره، ثم بالنبي الخاتم، رسول الله محمد، عليه السلام، كما بيّنت الآية «البقرة / ٤٠».

ثم يستكمل السياق قصة بني إسرائيل وموقفهم من رسلهم، فيقول الله تعالى «البقرة / ٨٧ – ٨٨»:

«وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ – وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ – وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ – وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ – أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمْ – اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ»

«وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ – بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ – فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ»

٤– تدبر قول الله تعالى:

«أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمْ»

فهو البرهان على أن أتباع الرسل السابقين مأمورون أن يؤمنوا بكل رسول يرسله الله إليهم، وأن عليهم اتباع رسالته، ولقد كان القرآن آخر الرسالات، وهذا ما بيّنه الله تعالى بعد ذلك بقوله «البقرة / ٨٩-٩١»:

«وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ - مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ - وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا - فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا - كَفَرُوا بِهِ - فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ»

«بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ - أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ - بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ - فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ - وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ»

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ - قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا - وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ - وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ - قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ - إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ»

٥- ويستكمل السياق قصة بني إسرائيل، ويؤكد على وجوب الإيمان برسول الله محمد واتباع رسالته، فيقول الله تعالى «البقرة / ٩٩-١٠١»:

«وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ»

«أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ»

«وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ - نَبَذَ فَرِيقٌ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ -كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ»

٦- ثم ينتقل السياق للحديث عن ملل الكفر التي كانت موجودة في عصر الرسالة، فيقول الله تعالى «البقرة / ١٠٥»:

«مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ - أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ - وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ - وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ»

ثم يبين السياق كيف كانت هذه الملل تفتري على الله الكذب فيقول الله تعالى «البقرة / ١١١»:

«وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى - تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ - قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ - إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ»

٧- ثم يضع الله ميزان الحساب في الآخرة فيقول تعالى «البقرة / ١١٢»:

«بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ - فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ - وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ»

وعند هذه الآية نكون قد وصلنا إلى ما نريد بيانه وهو أن هذا الوعد:

«وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ»

يقوم على قاعدة إسلام الوجه لله تعالى:

«بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ»

فهل الملل التي وعدها الله بهذا الوعد في «البقرة / ٦٢»، و«المائدة / ٦٩» ظلت متمسكة بإسلام الوجه لله تعالى بعد وفاة الرسل؟!

خامسًا:

فما معنى «إسلام الوجه لله» في السياق القرآني؟!

١- يقول الله تعالى «آل عمران / ١٩ -٢٠»:

«إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ - وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ - وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ»

«فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ، وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا، وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ»

تدبر قوله تعالى: «فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ»

٢- ثم بيّن الله بعد ذلك ما يجب أن تفعله الملل التي كانت موجودة في عصر التنزيل بقول تعالى:

«فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا»

إذًا فـ «إسلام الوجه لله»، بعد وفاة رسول الله محمد وإلى يوم الدين، يقوم على الإيمان به واتباع كتابه الذي أنزله الله عليه:

«فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا»

وهذا ما بينته بعد ذلك الآيات آل عمران / ٨٤ - ٨٥»:

«قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ - وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا - وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ - وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ - لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ - وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»

تدبر قول الله تعالى:

«وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»

ثم قول الله تعالى بعدها:

«وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا - فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ - وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ»

٣- ولقد وردت الآية «آل عمران / ٨٤» في سياق مشابه للآية «البقرة / ١٣٦» التي قال الله تعالى بعدها «البقرة / ١٣٧»:

«فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ - فَقَدِ اهْتَدَوا - وَّإِن تَوَلَّوْا - فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ - فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ - وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»

وبمقابلة الآيتين نعلم، وبالدلالة القطعية أن الله تعالى أمر جميع الملل والنحل، التي كانت موجودة في عصر التنزيل، بـ الإيمان برسوله محمد واتباع رسالته، وهذا ما جاءت الآية «النساء / ١٧٠» تؤكده بقول الله تعالى:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ - قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ - فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ - وَإِنْ تَكْفُرُوا - فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ - وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً»

٤- والسؤال:

إذا كان الناس جميعًا، الذين خاطبهم الله بهذه الآية في عصر التنزيل، مأمورين بالإيمان برسول الله محمد:

«فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ»

واتباع رسالته:

«قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ»

وبناء على ما سبق:

فإن أي مسلم يدعي الإيمان بـ «الوحدانية»، وبصدق «النبوة»، وأن القرآن «كلام الله»، ثم يقول إن دخول الجنة لا يُشترط فيه الإيمان بـ رسول الله محمد واتباع رسالته، فهو مسلم منافق لم يدخل الإيمان أصلًا قلبه.

عندما تتخلف خير أمة أخرجت للناس

إننا نعيش أمام شاشة عرض كبيرة تشمل كل ذرة من ذرات هذا الكون، تشهد بـ الوحدانية، وأن هذا القرآن الذي بين أيدينا اليوم هو كتاب الله وآيته الدالة على صدق «نبوة» رسوله محمد، القائمة بين الناس إلى يوم الدين.

إن أفضل كتاب يحدثنا عن الله وعن دلائل الوحدانية بأسلوب علمي سهل لا تكلف فيه ولا تعقيد هو هذا القرآن الذي يحتاج إلى تفعيل آليات عمل القلب، آليات التفكر والتعقل والتفقه والنظر للوقوف على تفاعل كلماته مع «مقابلها الكوني» في الآفاق والأنفس، كما فعل إبراهيم، عليه السلام، عندما استخدام منهج الاستدلال العقلي للتعرف على خالقه:

يقول الله تعالى «الأنعام / ٧٤-٧٩»:

«وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ - أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً - إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ»

«وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ - وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ»

ووسط الآلهة المزيفة التي كانت تُعبد من دون الله، خرج إبراهيم، عليه السلام، يبحث عن الإله الحق خالق السماوات والأرض، وأخيرا اتخذ قراره:

«إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا - وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ»

لقد أقام إبراهيم، عليه السلام، إيمانه بالوحدانية على الحجة والبرهان، فقال لقومه «الأنعام / ٨١»:

«وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ - وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ - مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً - فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ»

ويقول الله تعالى عن وجوب أن تقوم الوحدانية على الحجة والبرهان «النمل / ٦٤»:

«أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ - وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ - أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ - قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ - إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ»

وفي سياق الحديث عن المحرمات يقول الله تعالى «الأعراف / ٣٣»:

«قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ - مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ - وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ - وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا - وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ»

إن «دين الإسلام» قائمٌ على الحجة والبرهان:

- «أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً»
- «قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ»
- «وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ»

أولًا:

إن «الحجة والبرهان» الطريق العلمي الموصل إلى «الوحدانية»، ولا طريق غيره، ففي سياق بيان تفاعل كلمات القرآن مع «مقابلها الكوني» في الآفاق والأنفس، نتدبر هذه الآيات من سورة «فاطر / ١١-٢٨»:

١- «وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ»

٢- «وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ»

٣- «وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»

٤- «يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ، وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ»

٥- «وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ، وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ، وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ»

٦- «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا، وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ»

٧- «وَمِنْ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ»

ثم يختم الله هذه المجموعة من الآيات ببيان قيمة «العلم» القائم على «الحجة والبرهان» فيقول تعالى:

«إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ - إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ»

ثانيًا:

إن ما سبق بيانه من تفاعل كلمات القرآن مع آيات الآفاق والأنفس، والذي تقف عليه التخصصات العلمية المختلفة، تكتب فيه المجلدات، والذي يهمنا بيانه في هذا السياق هو قول الله تعالى:

«إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ»

١- فأين هم العلماء المسلمون، أصحاب التخصصات العلمية المختلفة، الذين تشربت قلوبهم «خشية الله» نتيجة تفعيل آليات عملها، آليات التفكر والتعقل والتدبر والنظر، للوقوف على سنن الله الكونية في الآفاق والأنفس، والاستفادة منها نحو حياة أفضل خالية من الملوثات الفكرية والبيئية، استنادا إلى آيات الذكر الحكيم، فقال الله تعالى بعد ذلك «فاطر / ٣١»:

«وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ - مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ - إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ»

إن البرهان على أن هذا الكتاب حق، هو المقابل الكوني لمنظومة آياته السابق ذكرها، والتي يكشف العلماء الذين يخشون ربهم عن كنوزها وعطاءاتها، فلماذا ترك علماء المسلمين هذه المهمة لغير المسلمين؟!

٢- ثم يقول الله تعالى بعد ذلك «فاطر / ٣٢»:

«ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ»

لقد تخلى المسلمون الذين ورثوا الكتاب عن شرف اصطفائهم ليكونوا رواد التقدم الحضاري ولم يحيطوا علمًا بمنظومة الآيات الكونية ولم يسبروا أغوارها، ظاهرها وباطنها، وها هم يعيشون اليوم في ذيل التقدم الحضاري عالة على الأمم المتقدمة.

لقد تخصص أئمة وعلماء المسلمين، منذ تفرقوا إلى مذاهب عقدية وفقهية، في العلوم شرعية التي صنعوها بأيديهم وجعلوها مصادر تشريعية ثانية حاكمة على فهم القرآن واستنباط أحكامه، فاتسعت دائرة التقول على الله بغير علم اتساعًا كبيرًا في غياب نور القرآن الهادي إلى صراط الله المستقيم، فخرج المسلمون من النور إلى الظلمات.

إن قول الله تعالى:

«ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا»

خير برهان على أن أئمة السلف والخلف افتروا على الله الكذب بقولهم إن الله تعالى أنزل على رسوله محمد مصدرين للتشريع «الكتاب» و«السُنّة»، فأين البرهان على أن «السُنّة النبوية» قد جمعها رسول الله محمد في كتاب؟!

ثالثًا:

كلما ابتعد الزمن عن عصر الرسالة الإلهية ازداد التحريف والتبديل لها، واختلط ما هو بشري بما هو إلهي، ولولا تعهد الله بحفظ رسالته الخاتمة لحدث لها مثل ما حدث للرسالات السابقة من تحريف وتبديل.

لقد قست قلوب المسلمين كما قست قلوب السابقين، فتفرقوا واختلفوا وتخاصموا وتقاتلوا، والمصيبة أن يحدث هذا بين «أهل القرآن» الذي أمرهم بالاعتصام بحبل الله وحذرهم من التفرق في الدين، فقال الله تعالى مخاطبا الذين آمنوا «آل عمران / ١٠٢-:

١- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ - اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ - وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم - مُّسْلِمُونَ»

٢- «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا - وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ - إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ - فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا - وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا»

٣- «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ - لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»

«لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» فهل اهتدى أتباع الفرق والمذاهب المختلفة إلى نعمة تأليف القلوب، فأصبحوا بها إخوانًا، بعد أن أمرهم الله تعالى بالاعتصام «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا» ونهاهم عن التفرق «وَلَا تَفَرَّقُوا»؟!

٤- إن القلب عندما يقسو يخرج من الدين الذي ارتضاه الله للناس، إلى الدين الذي ارتضاه إبليس لهم، وهو دين التقليد الأعمى والاتباع بغير علم، فكيف يقف المقلد على الحق الذي أنزله الله وهو يجهل الطريق إليه، والله تعالى يقول «سبأ / ٦»:

«وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ - الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ - وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ»

إن «الإسلام» دين العلم، والذين أوتوا العلم، ودرسوا آيات الذكر الحكيم، اهتدوا إلى صراط الله المستقيم، وعرفوا الحق واتبعوه:

والسؤال:

لماذا لم يعتصم أتباع الفرق والمذاهب المختلفة بحبل الله، ولم ينبذوا الفُرقة والمذهبية والتفرق في الدين، ولم يجتمعوا حول الحق المنزل من ربهم؟!

الجواب:

لأن إبليس لا يريدهم أمة واحدة، يريدهم داخل دائرة «التدين الوراثي المذهبي» لا يخرجون منها إلَّا معه على جهنم، ولذلك يُعطون ظهورهم للآيات التي تحذرهم من اتباع الآبائية الضالة والتدين الوراثي المذهبي، كقول الله تعالى «البقرة / ١٧٠»:

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ - قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا - أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا - وَلَا يَهْتَدُونَ»؟!

رابعًا:

لقد خلق الله الإنسان بآليات التفكر والتعقل والتفقه والنظر، آليات عمل القلب، ليكون مسؤولًا أمام الله عن تديّنه هو، وليس عن تديّن غيره واتباعه بغير علم:

يقول الله تعالى «الإسراء /٣٦»:

«وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ - إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ - كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً»

١- وعندما تكون المسؤولية الدينية فردية، يُصبح كل إنسان مسؤولًا عن تدينه، وعن تحصيل العلم الذي يقيم على أساسه تدينه، وفي مقدمة العلوم العلم بـ «الوحدانية» والعمل بـ «مقتضياتها»:

يقول الله تعالى «آل عمران /١٨»:

«شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ – وَالْمَلائِكَةُ – وَأُوْلُوا الْعِلْمِ – قَائِماً بِالْقِسْطِ – لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»

٢– إن «الجاهل» يضل الناس بغير علم، لأنه يعلم علمًا يخالف الحقيقة، وغروره بعلمه يجعله يعتقد أنه على الحق، فتراه يُقحم نفسه في مسائل علمية لا يملك أداة واحدة من أدوات فهمها:

إن الجاهل لا يعلم، يقول الله تعالى «الأنعام / ٩٧»:

«قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ – لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»

وغير المتعلم لا يسمع، يقول الله تعالى «يونس / ٦٧»:

«إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ – لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ»

وغير المتعلم لا يعقل، يقول الله تعالى «الرعد / ٤»:

«إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ – لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»

وغير المتعلم لا يُفكر، يقول الله تعالى «الروم / ٢١»:

«إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ – لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ»

وغير المتعلم لا يتدبر، يقول الله تعالى «محمد / ٢٤»:

«أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ – أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا»؟!

٣– إن القرآن «آية عقلية» تتحرك فعالية نصوصها على مر العصور، ولقد أمر الله تعالى «الذين آمنوا» بتفعيل نصوص هذه «الآية القرآنية العقلية» بين الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، الأمر الذي يستلزم خبرات من كافة التخصصات العلمية:

والسؤال:

فلماذا لم يُخرج «الذين آمنوا» الناسَ من الظلمات إلى النور؟!

والجواب:

كيف يُخرجون الناس من الظلمات إلى النور، وهم لم يعملوا بكتاب الله، الذي قال الله تعالى فيه لرسوله «إبراهيم / ١»:

«الَر – كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ – لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ – بِإِذْنِ رَبِّهِمْ – إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ»

والذي قال الله تعالى فيه «آل عمران / ٧٩»:

«مَا كَانَ لِبَشَرٍ – أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ – ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ – وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ – بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ – وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ»

٤– إن القرآن مدرسة علمية تربوية يتخرج منها «الربانيّون» ليكونوا شهداء على الناس بتفعيل آيات الذكر الحكيم في حياتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فأين هم «الربانيّون» هل هم أهل السُنّة والجماعة أم الشيعة أو المعتزلة أم الإباضية؟!

كيف يُخرج المسلمون الناس من الظلمات إلى النور وهم يعيشون أصلًا في الظلمات، ظلمات شرك التفرق في الدين وظلمات الهوى والشهوات، يخاطبون أنفسهم على منابر الدعوة ووسائل الإعلام المختلفة، ويحسبون أنهم مهتدون:

يقول الله تعالى «الكهف / ١٠٣–١٠٦»:

«قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً – الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً»

«أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ – فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ – فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً»

«ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا – وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً»

ولا يصح القول بأن هذه الآيات لا تخص المسلمين وإنما تخص الكافرين الذين اتخذوا آيات الله والرسل هزوًا، بدعوى أن المسلمين لا يتخذون الآيات والرسل هزوا، فأقول:

صحيح أن المسلمين لم يتخذوا آيات الله والرسل هزوًا بـ «قلوبهم» و«أقوالهم»، وإنما اتخذوهما هزوًا بـ «أعمالهم» على أرض الواقع، فهم يُقرّون بقلوبهم بـ «أصول الإيمان» ولا يعملون بـ «مقتضياتها» التي تفرض عليهم الاعتصام بحبل الله جميعًا وعدم التفرق والاختلاف في الدين، فأعطوا ظهورهم لهذه المقتضيات واتبعوا أهواءهم، والله تعالى يقول «الجاثية / ٢٣»:

«أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ – وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ – وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ – وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً – فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ – أَفَلَا تَذَكَّرُونَ»

خامسًا:

إن من شروط الالتحاق بـ «مدرسة الربانيّين» أن تكون حاصلًا على شهادة الإقرار بصدق «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، والتي يجب أن تكون صادقة بتفعيل آليات عمل القلب، آليات التفكر والتعقل والنظر، وليس بالإقرار بصدق الكتاب فقط ذلك أن حجية «الكتاب» لا تثبت إلا بعد ثبوت حجية «الآية» الدالة على صدق «النبي» المبلغ لـ «الكتاب».

١- لقد نزل القرآن على قلب رسول الله محمد، عليه السلام، بـ لسان قومه:

يقول الله تعالى «إبراهيم / ٤»:

«وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رّسُولٍ - إِلاّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ - لِيُبَيّنَ لَهُمْ»

ولقد كان هذا اللسان «لسانًا عربيًا مبينًا»:

«وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ - نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ - عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ - بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ»

ذلك أن هذا «اللسان العربي المبين» هو اللسان الوحيد بين ألسن الشعوب والقبائل الذي يمكن أن يحمل نصوص رسالة الله الخاتمة «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، والتي عجز الإنس والجن أن يأتوا بمثل سورها.

٢- ليصبح هذا «اللسان العربي المبين» هو الباب الوحيد لدراسة القرآن وتدبر آياته للدخول في «دين الإسلام» من بابه الصحيح، ولكن لماذا سمى الله تعالى «اللغة» التي كان ينطق بها قوم رسول الله محمد بـ «اللسان»؟!

والجواب في قول الله تعالى «الروم / ٢٢»:

«وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ - وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ - إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ»

فلم يقل الله تعالى «وَاخْتِلاَفُ لُغَاتِكُم» لأن الحديث عن آيات الآفاق والأنفس، «وَمِنْ آيَاتِهِ»، فجاء بـ «اللسان» لبيان أنه «آية» فمع اختلاف لغات شعوب العالم فإن الذي ينطق بهذه اللغات «لسان واحد» من حيث الصورة والتركيب:

يقول الله تعالى «البلد / ٨-٩»:

«أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ - عَيْنَيْنِ - وَلِسَاناً - وَشَفَتَيْنِ»

٣- ولم تكن القضية في أن يأتي أهل اللسان العربي بمثل الكلمات والجمل التي تحملها سور القرآن، وإنما أن يخلقوا «المقابل الكوني» لهذه الكلمات ذلك أن الكلمات وحدها لا تحمل أي معنى، وبما أن «المعنى» يحمله «المقابل الكوني» للكلمة، وأن هذا المقابل من خلق الله تعالى، يصبح عليهم أن يأتوا بمثل الكلمة و«مقابلها الكوني» فعجزوا، وقد قال الله تعالى لهم من قبل أن يعجزوا «البقرة / ٢٤»:

«فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ - وَلَن تَفْعَلُواْ - فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ - أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ»

لم يفهموا أن الله الذي خاطبهم في أول السياق بقول تعالى «البقرة / ٢١»:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ:

اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ – الَّذِي خَلَقَكُمْ – وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ – لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»

هو الله تعالى الذي قال لهم «وَلَن تَفْعَلُواْ» لأنهم يستحيل أن يخلقوا ذبابة «الحج / ٧٣-٧٤»:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ:

ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ – إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ – لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ – وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً – لاَ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ – ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ»

«مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ – إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ»

٤- إن القرآن كلام الله الذي نزل بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، وقال تعالى «فصلت / ٤٢»:

«لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ – مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ – تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»

وكلمة «مُبِينٍ» في الجملة القرآنية «بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» تعني أنه لا يحتاج إلى من يُبيّنه لأنه «مُبِينٍ» بذاته، فكيف يدّعون أن «مرويات السُنّة النبوية» التي صنعوها بأيديهم «وحيٌ يوحي» من الله تعالى؟!

ويستحيل أن يكون المقصود بـ «مُبِينٍ» كلام رسول الله محمد، ذلك أن كلامه كان معروفًا لقومه من قبل بعثته، والفرق بين كلام الله وكلام رسوله أن كلام الله وحيٌ يوحى:

يقول الله تعالى «الكهف / ١١٠»:

«قُلْ – إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ – يُوحَى إِلَيَّ»

فهجر المسلمون، أتباع الفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة، «اللسان العربي» وراحوا يُعلّمون أبناءهم «اللسان الأعجمي»، وأوقفوا فاعلية آليات عمل قلوبهم، فكيف يحققون الشهادة على الناس، ويخرجونهم بـ «هذا القرآن» من الظلمات إلى النور، تنفيذا لقول الله تعالى لرسوله محمد، عليه السلام، «إبراهيم / ١»:

«الَر – كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ – لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ – إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ»؟!

٥- لقد أرسل الله رسوله محمدًا رحمة للعالمين، يقول الله تعالى «الأنبياء / ١٠٧»:

«وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ»

وتعهد الله تعالى بحفظ «الذكر» إلى يوم الدين، والذي هو تفاعل «الكلمة» القرآنية مع «مقابلها الكوني» الذي يُذكر الناس بـ «معناها»، فكيف يقوم المسلمون بتفعيل هذه «الرحمة» المشار إليها

في قول الله تعالى لرسوله «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ» وهم يجهلون لغة القرآن العربية وأساليبها البيانية؟!

إن المسلمين في أشد الحاجة إلى الارتفاع إلى مستوى العمل بـ «مقتضيات» أصول الإيمان التي يؤمنون بها ولا يقومون بتفعيلها سلوكًا عمليًا في حياتهم، خاصة وأنهم يحملون «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسولهم محمد، يحملونها في وجه كل كافر بـ «نبوته»، وفي وجه كل مسلم يلحد في أحكامها، إنها حجة الله تعالى على العالمين إلى يوم الدين.

٦- إن بدعة «تجديد الخطاب الديني»، أو «تنقية أمهات كتب التراث الديني»، يستحيل أن تقيم الشهادة على الناس وتخرجهم من الظلمات إلى النور، ذلك أنها تنطلق من قاعدة «التراث الديني المذهبي» الخاص بكل فرقة من الفرق الإسلامية، والذي لا علاقة له أصلًا بـ «دين الإسلام»، ينادون بذلك وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا «الكهف / ١٠٣-١٠٦»:

«قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً - الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا - وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً»

«أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ - فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ - فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً - ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا - وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً»

وكما أقول وأكرر: احذر أن تقول إن هذه الآيات نزلت في الكافرين المكذبين بـ «نبوة» رسول الله محمد، لأن الحساب يوم القيامة لن يكون على إقرار القلب بـ «أصول الإيمان» فقط، وإنما على العمل بـ «مقتضيات» أصول الإيمان، والمسلمون لم يعملوا بها.

لقد ضيّع أئمة وعلماء ودعاة الفرق الإسلامية قرونًا من الزمن من حياتهم في الدفاع عن «فتنة الآبائية» التي خرجوا من بطون أمهاتهم فوجدوها أمامهم، كلٌ حسب الفرق التي ولد فيها وتربى على مائدتها الدينية، وتشربت ذريتهم هذه الفتنة وظلت تسري في دمائهم إلى يومنا هذا.

لقد غاب «نور القرآن» عن قلوب المسلمين وعن حياتهم، فيكف يُخرجون الناس من الظلمات إلى النور؟!

بيان من رسول الله إلى المسلمين اليوم

إن الدور الذي تقوم به الآبائية في تحريف الرسالات الإلهية وتحويلها إلى تراث ديني دور كبير وخطير، ولولا حفظ الله رسالاته في حياة الرسل، وحفظ رسالته الخاتمة إلى يوم الدين، لتحول القرآن إلى قصص وروايات وأساطير، يتبعها أئمة السلف على أساس أنها من الدين الإلهي واجب الاتباع، ولقد ضرب الله المثل على تحريف الرسالات برسالة عيسى عليه السلام:

يقول الله تعالى «المائدة / ١١٦-١١٧»:

«وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ – أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ – اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ»

«قَالَ سُبْحَانَكَ – مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ...»

«مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ – أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ – وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ»

«فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي – كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ – وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»

لقد سبقت رسالة عيسى رسالة محمد، عليهما السلام، فماذا يعني قول الله تعالى مخاطبًا عيسى:

«أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ»؟!

إن الله تعالى يبيّن أن مسؤولية الرسل عن أقوالهم تكون في حياتهم، فهل قال عيسى للناس:

«اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ»؟!

لذلك جاء رد عيسى الفوري:

«مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ»

أولًا:

١– إن الضابط الحاكم على تراث الأنبياء والرسل هو ما أمرهم الله به في حياتهم «إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ»، الأمر الذي يستحيل التعرف عليه إلا من خلال الحجة والبرهان:

(أ): «وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ»

(ب): «فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ»

لقد توفي عيسى، عليه السلام، ولم يتعهد الله بحفظ رسالته، وبعث الله رسوله محمدًا، عليه السلام، وتعهد بحفظ رسالته، ولم يتعهد الله بحفظ أقواله مع قومه وصحبه الذين آمنوا معه:

يقول الله تعالى مخاطبا رسوله محمدًا «الحج / ٥٢»:

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ – مِنْ رَسُولٍ – وَلا نَبِيٍّ – إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى – أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ – فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ – ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ – وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»

٢– لقد حاول الشيطان أن يكون له دور في تحريف رسالة النبي الخاتم وأقواله عن طريقين:

الطريق الأول:

إلقاء الشبهات حول القرآن، فنزل الوحي يرد على هذه الشبهات، بالإضافة إلى حفظ الله لآياته القرآنية، وأغلق الله هذا الطريق تماما أمام الشيطان:

«فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ – ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ – وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»

الطريق الثاني:

استغلال «الشيطان» ما كان يتنزل من تشريعات خاصة بأحداث عصر الرسالة، وما أجمله القرآن من أحكام العبادات التي لم يأت القرآن بتفصيلاتها، كـ «الصلاة»، وراح يثير حولها الشبهات، ويجعل «أقوال النبي» مع قومه وصحبه في هذه الفترة من التنزيل «شيئًا مقدسًا»، ونجح أن يفتن بها الذين في قلوبهم مرض من الرواة والقصاصين.

ولقد ترك الله لـ «الشيطان» هذا الطريق الثاني مفتوحًا لمن يريد أن يسير فيه من مرضى القلوب، فقال تعالى «الحج / ٥٣»:

«لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ – فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ – وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ – وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ»

ولم يستطع الشيطان أن يخترق قلوب «الراسخين في العلم» لأنهم أهل علم وحجة وبرهان يستطيعون التفريق بين الحق والباطل، هؤلاء الذين وصفهم الله تعالى بعد ذلك بقوله «الحج / ٥٤»:

«وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ – أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ – فَيُؤْمِنُوا بِهِ – فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ – وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا – إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ»

٣– وحتى نقف على الدور الذي قام به الرواة والقصاصون في تحريف مفهوم «المرجعية الإلهية» ليصبح نصفها قطعي الثبوت عن الله، والنصف الآخر ظني الثبوت عن رسول الله، تعالوا نفترض أن محمدًا لم يكن هو النبي الخاتم، وأن الله أرسل نبيًا بعده برسالة جديدة، فماذا نتوقع أن يقول الله لرسوله محمد في هذه الرسالة، كما قال لرسوله عيسى، عليهما السلام؟!

(أ): نتوقع أن يقول الله لرسوله محمد في هذه الرسالة الجديدة:

أأنت قلت لـ «الذين آمنوا» اتخذوا مع القرآن مصدرًا تشريعيًا قوليًا باسم «الأحاديث النبوية» وكان مرجعك في ذلك الآية «الحشر / ٧»:

«وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ – وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»؟!

فيقول الرسول: ما قلت لهم إلا ما أمرتني به:

«كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ – فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ – لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ»

«اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ – وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ»

وكُنتُ عليهم شهيدا ما دمت فيهم:

«فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي – كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ – وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»

(ب): فإذا تدبرنا قول الله تعالى:

«كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ»، ثم قول الله تعالى «اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم»

نعلم أن «الأمر» جاء باتباع «الكتاب» فقط، ثم جاء «النهي» عن اتباع أشخاص وليس عن اتباع كتب «وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ»، وهذا ما وقع فيه أتباع الفرق والمذاهب الإسلامية قدّسوا واتبعوا أصحاب كُتب التراث الديني المذهبي بدعوى أنها تحمل نصوص المصدر الثاني للتشريع المبيّن لـ «أحكام القرآن».

والسؤال:

هل من حق الرسول أن يُشرّع أحكامًا خارج حدود الكتاب الذي أنزله الله عليه؟!

والجواب:

يقول الله تعالى «فاطر / ٣١-٣٢»:

«وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ - مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ - إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ»

«ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا - فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ - وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ - وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ - ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ»

(ج): فماذا يعني قول الله تعالى: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ»؟!

هل يعقل أن تكون كتب «مرويات السُنّة النبوية» من «دين الإسلام» واجب الاتباع، ولا يشير الله تعالى إليها في القرآن، بآية تفيد أن المسلمين يرثون بعد وفاة النبي بقرن من الزمن كُتبًا تحمل «مرويات» هذه «السُنّة النبوية»؟!

ثانيًا:

يستند أتباع فرقة «أهل السُنّة» في إثبات حجية «مرويات السُنّة» إلى رواية:

«تركت فيكم أمرين - لن تضلوا ما تمسكتم بهما - كتاب الله - وسُنّة رسوله»

ويستند أتباع الشيعة في إثبات حجية «مرويات السُنّة» إلى رواية:

«إني تركت فيكم - ما إن أخذتم به - لن تضلوا - كتاب الله - وعترتي أهل بيتي»

والعامل المشترك بين الروايتين «كتاب الله»، الأمر الذي يؤكد أن «الرواة» هم الذين أضافوا «السُنّة» إلى «الكتاب» كلٌ حسب الفرقة التي ينتمي إليها.

والسؤال:

ما الذي دوّنه المحدثون في أمهات «كتب الحديث»:

هل دوّنوا «سُنّة النبي» أم «سُنّة رواة» الفرق والمذاهب العقدية والفقهية؟!

١- إن «المرويات» التي نسبها الرواة إلى رسول الله محمد، وخضعت لمدارس الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف بعد أن آتاه الباطل عقودًا من الزمن، ومع ذلك قالوا إنها «الأحاديث النبوية» لتأخذ قدسية في قلوب المسلمين، هذه «المرويات» يستحيل أن تتعدى حدود «التراث الديني» للفرق والمذاهب المختلفة، الذي ليس بحجة في «دين الإسلام».

٢- فإذا بأئمة السلف والخلف، يقولون إن اختلاف المسلمين حول مرويات السُنّة «رحمة»، ويستندون في زعمهم هذا إلى قول الله تعالى «هود / ١١٨-١١٩»:

«وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ - لَجَعَلَ النَّاسَ - أُمَّةً وَاحِدَةً - وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ - إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ - وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ - وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ - لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ - مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»

فأي رحمة هذه التي يراها أئمة السلف والخلف في «شرك التفرق في الدين» قبل الحديث عن اختلافهم حول «مرويات السُنّة»؟!

إن «الرحمة» التي وردت في سياق قول الله تعالى:

«وَلَا يَزَالُونَ - مُخْتَلِفِينَ- إِلَّا - مَن رَّحِمَ رَبُّكَ»

جاءت استثناءً من الاختلاف، بقرينة «إِلَّا»، ويستحيل أن يكون الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، وأعطوا ظهورهم لتحذير الله لهم من شرك التفرق في الدين، أن يكونوا من «المرحومين» في الدنيا والآخرة.

٣- لو بعث الله تعالى اليوم رسوله محمدًا ليطلع على مدى التزام المسلمين بـ «أحكام القرآن» ليُصدر بيانًا بعد ذلك يُبيّن فيه، ما شاهده من تدين المسلمين على أرض الواقع، كما قال عيسى عليه السلام لربه:

«وَكُنتُ عَلَيْهِمْ - شَهِيداً - مَّا دُمْتُ فِيهِمْ»

مما لا شك فيه، أن الرسول سيقول في بيانه:

(أ): إن المسلمين إذا ماتوا على حالهم هذا، مصرين على «شرك التفرق في الدين»، فإن مصيرهم جهنم وبئس المصير، لأنهم اتخذوا القرآن مهجورًا، ولم يقوموا بتفعيل آليات عمل قلوبهم، للوقوف على التفاعل القائم بين كلمات القرآن و«مقابلها الكوني» في الآفاق والأنفس، ويختم بيانه بقول الله تعالى «الفرقان / ٣٠-٣١»:

«وَقَالَ الرَّسُولُ - يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي - اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا»

«وَكَذَلِكَ – جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ – عَدُوّاً مِنْ الْمُجْرِمِينَ – وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً»

(ب): ويعلن الرسول براءته من ٩٩٪ من المسلمين الذين فعلوا مثل ما فعل أتباع الرسل السابقين وتفرقوا في الدين وكانوا شيعًا، كما بيّن الله تعالى ذلك بقوله «الأنعام / ١٥٩»:

«إِنَّ الَّذِينَ – فَرَّقُوا دِينَهُمْ – وَكَانُوا شِيَعًا – لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ – إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ – ثُمَّ يُنَبِّئُهُم – بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ»

(ج): ويعلن الرسول براءته من الـ ١٪ المسلمين الملحدين، الذين أصيبوا بـ «فيروس الغباء الديني» فإذا بهم يقولون:

إن القرآن «تبيانٌ وتفصيلٌ» لكل شيء، وعليه اخترعوا شعائر تعبدية، وكفروا بـ «الصلوات الخمس»، وبـ «صلاة الجمعة»، وبـ صيام شهر رمضان بدعوى أنه ليس شهر الصيام يتبعون في ذلك «نسيء الجاهلية» الذي حرّمه الله تعالى بنص قطعي الدلالة «التوبة / ٣٧»:

«إِنَّمَا النَّسِيءُ – زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ – يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ – يُحِلِّونَهُ عَاماً – وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً – لِّيُوَاطِئُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللّهُ – فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللّهُ – زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ – وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ»

فقال المسلمون الكافرون بهذه الآية، التي جاءت مباشرة بعد الآية «التوبة / ٣٦»:

«إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ – عِندَ اللهِ – اثْنَا عَشَرَ شَهْراً – فِي كِتَابِ اللهِ – يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ – مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ»

ليبيّن الله تعالى استحالة عودة «نسيء الجاهلية» مرة أخرى في حياة الناس وإلى يوم الدين، والبرهان على أن هؤلاء المسلمين «كافرون مغفلون غافلون» أنهم يؤدّون «فريضة الحج» إلى بيت الله الحرام استنادًا إلى قول الله تعالى «البقرة / ١٩٧»:

«الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ – فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ – الْحَجَّ»

والقرآن من أوله إلى آخره، لم يبيّن للناس أسماء هذه الأشهر، في الوقت الذي يقول السياق إنها «مَّعْلُومَاتٌ».

(د): يقول الله تعالى «فصلت / ٤٠-٤٢»:

«إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا – لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا – أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ – أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ – اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ – إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ – وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ – لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ – مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ – تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»

لقد جاء «دين الإسلام» الذي حمله القرآن بـ «حرية الكفر» وبـ «حرية الإلحاد» ... فإذا دخل المرء في هذا الدين لم يعد حرًا لأنه أصبح يتحرك داخل حدود «أحكام القرآن» حيث لا حرية ولا اجتهاد في فهمها والعمل بها.

إن تعدد زوايا الرؤى في فهم النص القرآني أمر ممدوح، لإحداث التطور والترقي في اكتشاف كنوز القرآن وعطاءاته المستدامة، فمع تطور فهم الإنسان حقائق الكون وفعالية السنن الإلهية، تنبع رؤى جديدة تتناسب مع المستوى الفكري والعلمي لكل عصر، ولكن بشرط:

أن تنطلق الرؤى المتعددة من قاعدة الفهم الواعي لـ «أحكام القرآن»، بعد أن يكون المرء قد دخل في «دين الإسلام» من بابه الصحيح، وأن تكون هناك مؤسسة تجمع التخصصات العلمية المختلفة، تقوم على إدارة هذه الرؤى، في إطار «منهجية علمية» تحمل «أدوات» لفهم القرآن مستنبطة من ذات «النص القرآني».

فتنة علم الحديث قادتنا إلى المذهبية العشوائية

إن الدارس لأمهات كتب المؤرخين والمحدثين يعلم أن الأخبار التاريخية والأحاديث النبوية المنسوبة إلى النبي، قد أُخذت من أفواه الإخباريين والرواة، بعد أن مزقت الفُرقة والمذهبية الأمة الإسلامية تمزيقا، ولم تكن هناك مدونات موثقة يُرجع إليها للتأكد من صحة المنقول حتى منتصف القرن الثاني الهجري وبداية عصر التدوين.

لقد كان من الطبيعي أن يختلف المؤرخون والمحدثون حول ما صح وما لم يصح من مرويات الإخباريين والرواة التي وصلت إليهم عن طريق قنوات الاتصال الشفهية والتي ظهر بوضوح تعصبها العقدي والفقهي عند تدوين كل فرقة أمهات كتب تراثها الديني.

* الإخباري: هو من أخذ عنه «المؤرخ».

* الراوي: هو من أخذ عنه «المحدث».

أولًا:

يقول شيخ المؤرخين والمحدثين الطبري في مقدمة كتابه «تاريخ الملوك»، والذي يعتبر المصدر الأساس للتاريخ الإسلامي عند فرقة أهل السُنّة:

«فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين، مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجها في الصحة ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أُدي إلينا»

فهذا كلام الطبري، الذي ولد «٢٢٤هـ» وتوفي «٣١٠هـ»:

- حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين.

- صلى بالناس وهو ابن ثماني سنين.

- كتب الحديث وهو ابن تسع سنين.

لقد كان في شبابه ورشده إمامًا عاصر كبار المحدثين، وفي مقدمتهم البخاري «ت٢٥٦هـ» ومسلم «ت٢٦١هـ»، فهل عندما يقول:

«إنما أدينا ذلك - على نحو - ما أُدي إلينا»

فإن هذا يعني أن الذي سيتحمل مسئولية «إشكاليات المرويات» التي دونها في كتبه هم الذين نقلوها إليه، ونفهم من ذلك غياب «المنهجية العلمية» في التوثيق، ويصبح السؤال الذي يفرض نفسه: على أي أساس أصبح الطبري إماما؟!

ثانيًا:

فإذا تركنا القرن الرابع الهجري، وذهبنا إلى القرن السابع، نجد أن «ابن الأثير - ت٦٣٩هـ» يقول في مقدمة كتابه «الكامل في التاريخ» عن المصادر التي استقى منها مروياته:

«إنني قد جمعت في كتابي هذا، ما لم يجتمع في كتاب واحد، فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنفه الإمام أبو جعفر الطبري، إذ هو الكتاب المعول عند الكافة عليه والمرجوع عند الاختلاف إليه، فأخذت ما فيه من جميع تراجمه، لم أخل بترجمة واحدة منها»

ثم قال «ابن الأثير»:

«فلما فرغت منه، أخذت غيره من التواريخ المشهورة، فطالعتها وأضفت منها إلى ما نقلته من تاريخ الطبري ما ليس فيه، إلا ما يتعلق بما جرى بين أصحاب رسول الله، فإني لم أضف إلى ما نقله أبو جعفر شيئا، وإنما اعتمدت عليه من بين المؤرخين، إذ هو الإمام المتقن حقا، الجامع علما وصحة اعتقاد وصدقا»

أقول:

١- إن «ابن الأثير» هو نفسه صاحب كتاب «جامع الأصول في أحاديث الرسول» الذي جمع فيه أحاديث «الكتب الستة» المعتمدة عند فرقة أهل السُنّة وهي:

«موطأ مالك - صحيح البخاري - صحيح مسلم - سنن أبي داود - سنن الترمذي - سنن النسائي»

وكان «ابن الأثير» يرى أن «موطأ مالك» أصح من «صحيح البخاري» لذلك كان يقدمه على «البخاري» كما هو مدون على غلاف كتابه.

٢- و«ابن الأثير» هو صاحب كتاب «النهاية في غريب الحديث والأثر»، وصاحب كتاب «أسد الغابة في معرفة الصحابة»، فهو مؤرخ ومحدث:

والسؤال:

لماذا جعل ابن الأثير «الطبري» المرجع الأساس له في التاريخ؟!

الجواب:

لأن وجهة نظر «الطبري» في الأحداث التاريخية تتماشى مع وجهة نظر «ابن الأثير» خاصة في ما يتعلق بـ «أحداث الفتن الكبرى» لذلك قال في كلامه السابق:

- «إلا ما يتعلق بما جرى بين أصحاب رسول الله»
- «فإني لم أضف إلى ما نقله أبو جعفر شيئا»
- وإنما اعتمدت عليه من بين المؤرخين»
- «إذ هو الإمام المتقن حقا»
- «الجامع علما وصحة اعتقاد وصدقا»

لقد اعتمد «ابن الأثير» على شيخه الطبري في «مرويات» أحداث الفتن الكبرى لاعتقاده أن «الطبري» محدثٌ ومؤرخٌ وأمامٌ لا شك في علمه وصدقه، وعليه فهو المسؤول عن «مروياته»، فهل كان «ابن الأثير» يعلم أن «الطبري» استقى معظم «مروياته» من إخباريين متهمين بـ «التشيع» و«الزندقة» و«سوء الحفظ»؟!

إذًا فقد أراح «الطبري - ت٣١٠هـ» نفسه وحَمّل «الإخباريين» المسؤولية.

وأراح «ابن الأثير - ت٦٣٩هـ» نفسه وحَمّل «الطبري» المسؤولية.

وأراح «ابن خلدون - ت٨٠٨هـ» نفسه وحَمّل الطبري المسؤولية وقال في مقدمته:

«هذا آخر الكلام في الخلافة الإسلامية، وما كان فيها من الردة والفتوحات والحروب ثم الاتفاق والجماعة، أوردتها ملخصة عيونها ومجامعها، من كتاب محمد بن جرير الطبري:

- «وهو تاريخه الكبير»
- «فإنه أوثق ما رأيناه في ذلك»
- «وأبعد عن المطاعن والشبه في كبار الأمة وأخيارها»

- «وعدولها من الصحابة والتابعين»

والسؤال:

لماذا ذهب «ابن خلدون» إلى القرن الرابع الهجري ليتخذ «الطبري» مرجعا، وترك «ابن كثير - ت٧٧٤هـ» الأقرب إليه:

- «وهو الإمام المؤرخ صاحب كتاب البداية والنهاية»
- «والمحدث صاحب كتاب جامع السنن والمسانيد»
- «والمفسر صاحب كتاب تفسير القرآن العظيم»
- «وهو الأشهر بين أهل السُنّة»؟!

الجواب:

لاختلاف التوجهات العقدية والفقهية بين أئمة السلف وخاصة في مسائل «الأسماء والصفات» المتعلقة بذات الله تعالى والتي سُفكت بسببها الدماء على مر العصور، وتعالوا نلقي نظرة على آراء أئمة الجرح والتعديل في «الطبري»:

فمن خلال كتاب «المعجم الصغير لرواة الإمام ابن جرير الطبري» ذكر الشيخ أكرم بن محمد الأثري آراء أئمة الجرح والتعديل في كل الرواة الذين ذكرهم «الطبري» في كتبه المسندة المطبوعة، من تفسير وتاريخ وتهذيب الآثار وصريح السُنّة، وقال في خلاصة البحث:

(أ): بلغ عدد الرواة الذين روى عنهم «الطبري» في سائر كتبه نحو «٧٢١٤»، وهو قريب من مجموع عدد رجال «الكتب الستة» مجتمعين، حيث بلغ مجموع رجال «الكتب الستة» المترجمين في «تهذيب الكمال «٨٦٤٠».

ثم قال: وأكثر رواة «الطبري» من الشيوخ الذين روى عنهم أصحاب الكتب الستة أيضا يقصد:

- البخاري «ت٢٥٦هـ» - مسلم «ت٢٦١هـ» - الترمذي «ت٢٧٠هـ» - ابن ماجة «ت٢٧٣هـ» - أبو داود «ت٢٧٥هـ» - النسائي «ت٣٠٣هـ».

والسؤال:

إذا كان أكثر رواة «الطبري» من الشيوخ الذين روى عنهم أصحاب «الكتب الستة»، فلماذا لم يأخذ «الطبري» مكانته العلمية وسط هؤلاء؟!

(ب): كثرة الأخبار والآثار الضعيفة والموضوعة رغم كثرة طرقها وشواهدها ومتابعاتها ورغم أن لـ «الطبري» منهجه الخاص في تصحيح الأحاديث الضعيفة والموضوعة أيضا.

أقول:

فهل كان السبب وراء عدم أخذ الطبري مكانته العلمية بين أصحاب الكتب الستة أنه كان صاحب منهجًا خاصًا في تصحيح الأحاديث الضعيفة والموضوعة ولم يلق هذا المنهج قبولًا من المحدثين فأسقطوه كـ «محدث» وحصروا إمامته في التاريخ والتفسير، ثم ما الفرق بين الطبري مؤرخًا والطبري محدثا ومنهجه في التحقيق العلمي واحد؟!

(ج): كثرة المبهمين الذين يبهمهم من رجاله في مواضع، ويصرح بهم أو لا يصرح بهم في مواضع أخرى من كتبه، وقد بلغ مجموعهم «٥٥٠» مبهما.

ثالثًا:

إن أكبر فتنة ابتلي بها المسلمون بعد «الفتن الكبرى» هي «فتنة الحديث» الذي نسبه الرواة إلى رسول الله ليأخذ قدسية في قلوب المسلمين، ثم جاء المحدثون ودوّنوه في كتبهم باعتباره المصدر الثاني للتشريع في «دين الإسلام»، وما اتُهم به الطبري كـ «محدث» اتهم به أئمة الحديث على مستوى الفرق الإسلامية كلها، ولكن «الجُهّال» لا يعلمون.

١- إن الإشكالية لا تخص الطبري وحده، ذلك أن الباحث إذا عرف الرواة أو لم يعرفهم وكانوا مبهمين، فإن القضية في الميزان المذهبي الذي قام عليه «علم الجرح والتعديل»، وهل هو ميزان أهل السُنّة أم الشيعة أم المعتزلة أم الإباضية، لأن قيمة «الموزون» ستختلف خاصة إذا علمنا أن كل فرقة من هذه الفرق قد انقسمت إلى مذاهب عقدية وفقهية مختلفة.

٢- فماذا تكون نتيجة هذا «الميزان المذهبي» والرواة ينقسمون من وجهة نظر «علماء الجرح والتعديل» إلى:

«ثقة فقيه عابد رُمِيَ بالتشيع - صدوق رُمِيَ بالقدر وكان يدلس - رُمِيَ بالنصب - رُمِيَ بالرفض - فقيه صدوق سني - صدوق تُكُلِمَ فيه لبدعة الخوارج - أول من تكلم في الإرجاء - صدوق كثير الخطأ والتدليس - متروك الحديث وكان صالحا في نفسه - مقبول - ضعيف - ضعيف جدا - مجهول - منكر الحديث - كان يكذب - سكت عنه البخاري - لا بأس به»

٣- فهل هذا العلم المسمى بـ «علم الحديث»، القائم على مذاهب علماء الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف، يمكن أن يكون من «دين الإسلام»، الذي حمله «القرآن» الذي يحمل «الآية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد؟!

٤- لقد اتخذ المحدثون «مرويات الرواة» مصدرًا تشريعيًا إلهيًا ثانيًا ووسموه باسم «السُنّة النبوية» المبينة للقرآن والمكملة لأحكامه، فماذا كانت النتيجة؟!

كانت النتيجة أن تساوت «الآية» مع «الرواية» من حيث الحجية في دين الله، وأصبح من ينكر «الرواية» منكرًا لـ «الآية»، وأصبحت عقوبة الزنى في «الرواية» الرجم، وهي في «الآية» الجلد ... إلى آخر الأحكام التي استقلت بها «الرواية» وليست من دين الله في شيء.

عندما تحمي كل فرقة مروياتها بـ علم الجرح والتعديل

لا يشك مسلم أن الله تعالى رضي عن المؤمنين من صحابة رسول الله الذين أخلصوا دينهم لله، وبايعوا الرسول على ذلك، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وأن الله حذر الرسول من المنافقين من أهل المدينة ومن الأعراب الذين مات الرسول وهو لا يعلم من هم، يقول الله تعالى:

«وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ»

ولا شك أن المنافقين «مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ» كانوا من صحابة رسول الله محمد وتعامل معهم على أساس أنهم «مؤمنون»، إذًا فعلى أي أساس «شرعي» أقام علماء «الجرح والتعديل» علمهم بـ أحوال الرواة من جرح وتعديل، وهم «الصحابة» الذين حملتهم الحلقة الأولى من «السند الروائي» الذي يسقط «علم الحديث» كله بفقدها؟!

١- لقد دوّن علماء «الجرح والتعديل» كتبهم في أحوال الرواة، على مستوى الفرق الإسلامية كلها، على أساس «عقدي مذهبي» وليس على أساس «ديني شرعي» فكانوا لا يقبلون من الراوي روايته إلا إذا كان مذهبه العقدي والفقهي يوافق مذاهبهم.

٢- فإذا علمنا أن أول وأكبر إشكال واجه علماء «الجرح والتعديل» هو غياب مدونات القرن الأول الهجري، القرن الذي حمل الحلقة الأولى من «السند الروائي»، وهي حلقة الصحابة والتابعين، خاصة وأن توثيق الرواة خلال هذه الفترة كان يتم شفاهة.

٣- فإذا ذهبنا إلى مدونات «القرن الثاني الهجري» وجدنا الذهبي يذكر قائمة بأسماء جمع من المؤلّفين قيل إن لهم مدونات، وعند التحقيق العلمي لم يعثر إلا على صحف «منسوبة» إلى الإمام مالك «قيل» إنها «الموطأ» وأصحاب هذه المدونات هم:

ابن جريج «ت١٥٠هـ» - أبو حنيفة «ت١٥٠هـ» - ابن اسحاق «ت١٥٢هـ» - سعيد بن عروبة «ت١٥٦هـ» - الأوزاعي «ت١٥٧هـ» - سفيان الثوري «ت١٦١هـ» - حماد بن سلمة «ت١٦٧هـ» - الليث بن سعد «١٧٥هـ» - مالك بن أنس «ت١٧٩هـ» - ابن المبارك «ت١٨١هـ» - ابن وهب «ت١٩١هـ».

يقول الذهبي: ومن هذا يُعرف أنّ «عمدة التدوين» انّما وقعت في «القرن الثالث» من الهجرة.

أقول:

فإذا ذهبنا إلى القرن الثالث الهجري، عصر النهضة الحديثيّة، الذي ظهر فيه أصحاب أصح وأشهر أمهات كتب الحديث عند «أهل السُنّة» وهي الكتب الستة، نجد أهم كتب تراجم الصحابة كتاب «ابن سعد – صاحب الطبقات الكبرى – ت٢٣٠هـ».

٤– لقد قسّم «ابن سعد» المصادر التي استقى منها تراجمه إلى قسمين:

قسم لم يصرّح فيه بمصادره، وهو القسم الأكثر من كتابه.

وقسم أفصح فيه عن مصادره وعددها ثمانية وقد ضعف المحدثون كثيرا منها وسأذكر منها ثلاثة:

(أ): محمد بن إسحاق «ت١٥٢هـ»:

صاحب كتاب السيرة النبوية، اتهمه بعض أهل الحديث بالزندقة، وأنه أدخل في السيرة النبوية روايات منكرة منقطعة، نقل عنه زياد البكائي «ت١٨٣هـ» أخبار السيرة، ثم نقل ابن هشام «ت١٨٢هـ» عن زياد هذه السيرة بعد أن نقحها واختصرها وسماها «سيرة ابن هشام».

إن معظم المسلمين يعلمون أن سيرة ابن هشام، «ت١٨٢هـ»، هي المرجع الأساس والصحيح لـ «السيرة النبوية» والأكثر شهرة، ولكنهم لا يعلمون أن صاحب هذا الكتاب أصلا هو «ابن إسحاق – ت١٥٢هـ» المتهم من قبل أئمة «الجرح والتعديل» بالزندقة.

(ب): هشام بن محمد الكلبي الكوفي «ت٢٠٦هـ»:

من كبار الإخباريين «الشيعة» الأُوَل، جرحه «أهل السُنّة» لأنه انتقد الأمويين واعتبرهم المسئولين عن الفتنة الكبرى، وأيد العلويين والعباسيين، واعتمد «الطبري» في تاريخه على «روايات الكلبي» في الأحداث التي تخدم موقفه من الفتنة الكبرى ولم ينظر إلى مسألة تشيعه.

(ج): محمد بن عمر الواقدي «ت٢٠٧هـ»:

اتُهم بـ «التشيع»، وانفرد بروايات وأخبار وأحاديث غير معروفة، بلغ عددها «٣٠٠٠٠ حديث» وقد تباينت آراء المحدثين في درجة توثيقه، واعتبره البعض «متروكًا لتشيعه»، وتبدو ميوله «العلوية» واضحة في رواياته، فقد أيد علي بن أبي طالب في مواجهته لجيش السيدة عائشة وطلحة والزبير، وكذلك جيش معاوية، وانتقد بشكل حاد سياسة عثمان.

والسؤال:

لقد رمي علماء «الجرح والتعديل» الكلبي والواقدي بـ «التشيع» فمتى علموا بـ «تشيعه»؟!

الجواب:

بعد أن اخترق رواة «الشيعة» مرويات «أهل السُنّة»، وبعد أن دونها المؤرخون والمحدثون في كتبهم، ثم بعد عقود من الزمن اكتشفوا هذا الاكتشاف العظيم.

٥- لقد أثبت محمد جعفر الطبسي في كتابه «رجال الشيعة في أسانيد السُنّة الصحاح الستة» اختراق «١٤٠» من رجال الشيعة أسانيد «أهل السُنّة» في أصح كتبها مع الإشارة إلى تشيعهم، ومن هؤلاء:

(أ): سليمان بن صرد الخزاعي «ت٦٥هـ»:

ورد في صحيح البخاري وصحيح مسلم، وقال ابن الأثير في أسد الغابة: كان خيّرا فاضلا له دين وعبادة، وقال الذهبي: من شيعة علي ومن كبار أصحابه.

(ب): ظالم بن عمرو الدؤالي «ت٦٩هـ»:

ورد في صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وعده يحيى بن معين من الثقات، وكذلك ابن حجر، وقال الذهبي: كان من وجوه الشيعة.

(ج): فضيل بن مرزوق «ت٧٠هـ»:

ورد في صحيح مسلم، وقال سفيان الثوري: ثقة، وقال الذهبي: كان معروفا بالتشيع من غير سبّ.

فهذه صورة من الصراع المذهبي الذي كان يحكم قلوب رواة الفرق والمذاهب المختلفة قبل عصر تدوين أمهات الكتب الدينية من تفسير وحديث وفقه وسيرة.

فتدبر: «كان معروفا بالتشيع من غير سبّ»، لتعلم أن مسألة «سب الصحابة» سواء كانوا من السُنّة أو من الشيعة، مسألة لها جذورها التاريخية، وأن علماء «الجرح والتعديل» أقاموا على هذه المسألة ميزان الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف.

(أ): فمن فضّل عليّ بن أبي طالب على عثمان قالوا عنه «متشيع».

(ب): ومن فضل عليّا على أبي بكر وعمر قالوا عنه «رافضي».

(ج): ومن نال من معاوية ومن بني أمية فهو «متشدّد في التشيّع».

(د): ومن نال من أبي بكر وعمر فهو «مغال في الرفض».

لقد قام «علم الجرح والتعديل» على أسس وشروط عقدية تحمي كل فرقة بها مروياتها من أن تُخترق من رواة الفرق الأخرى، ومع ذلك حدث الاختراق، ومازال موجودا في الكتب إلى يومنا هذا، ولم يستطع المتأخرون من علماء الحديث أن يحذفوا حرفا منه، لأنهم لو فعلوا هدموا مكانة المتقدمين العلمية، ولذلك اكتفوا بالتنبيه في هذه الكتب على أن هذا الراوي صفته كذا وكذا:

والسؤال:

هل هذا العلم المسمى بـ «علم الحديث» يمكن أن يحمل «السُنّة النبوية» التي يكفر منكرها؟!

والجواب:

إنه أمر طبيعي أن يكون تراث الأمم ظنيًا في ثبوته عن أصحابه، وظنيًا في دلالة مروياته، فلا توصف مروياته بالقطعية بأي حال من الأحوال.

أما دين الله تعالى فقطعي الثبوت عن الله، فلماذا يصر أئمة السلف أن يجعلوا الظني الثبوت عن «البشر» حاكما على القطعي الثبوت عن «الله»؟!

٦- ووسط هذه البيئة المذهبية التخاصمية:

(أ): ولد محمد بن إسماعيل البخاري «١٩٤-٢٥٦هـ» صاحب أصح كتاب من كتب الحديث عند «أهل السُنّة».

(ب): وولد محمد بن يعقوب الكليني عام «٢٥٢هـ - ٣٢٩هـ» هو صاحب «كتاب الكافي» أصح كتاب من كتب الحديث عند «الشيعة».

لقد عجز «إبليس» عن اختراق «كتاب الله» فراح وصنع للمسلمين «منظومة روائية مذهبية» وجعلها تحكم أحكام «كتاب الله» بدعوى أنها «السنة النبوية» وأنها «المصدر الثاني للتشريع» الذي يحكمون على منكره بـ «الكفر» لحماية مصادرهم التشريعية التي ما أنزل الله بها من سلطان.

(ج): فإذا سألت علماء المسلمين، على مستوى الفرق الإسلامية كلها: هل عقوبة الرجم من الشريعة الإسلامية؟! قالوا: نعم ... وهل هي في كتاب الله؟! قالوا: لا ... أو ليس في هذه العقوبة سفك للدماء بغير حق تجعل القاتل يُخلد في جهنم؟! قالوا: كيف يُخلد في جهنم وهو يتبع «السُنّة النبوية» التي أوحاها الله لرسوله؟!

٧- والسؤال الذي يفرض نفسه دائما:

(أ): لماذا لم يهتم صحابة الرسول بتدوين «وحي الأحاديث» في كتاب كما اهتموا بتدوين «وحي القرآن» إذا كانت هذه «الأحاديث» حقا شريعة إلهية واجبة الاتباع؟!

(ب): وإذا كان «الحديث» قد دُوّن في القرن الأول الهجري، كما يدعي أهل الحديث، فأين الكتاب الجامع لهذه «الأحاديث» والذي كان يجب أن يكون أوثق وأشهر من مدونات القرنين الثاني والثالث الهجري؟!

(ج): ثم لماذا لم تتول «الخلافة الراشدة»، بمؤسساتها الحكومية المختلفة، مسؤولية تدوين «الحديث النبوي» في كتاب واحد يتوارثه المسلمون جميعا مع كتاب الله تعالى؟!

هل أمر الله باتخاذ السلف مرجعًا في دين الإسلام؟!

لقد ذُكرت كلمة «السلف»، في القرآن الكريم في موضع واحد من سورة الزخرف في سياق بيان قصة هلاك فرعون وقومه:

«فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ»

لقد جعل الله مصير فرعون وقومه «سَلَفاً» ومثلا ليأخذ الخلف منه العبرة وليعلموا أن انتقام الله سينالهم إن هم ساروا في طريق سلفهم بغير علم، وعملوا عملهم، فهل أخذ المسلمون العبرة من هذه الآية، وسلكوا طريقًا غير الطريق المذهبي الذي وجدوا عليه آباءهم، وهو طريق «التفرق في الدين»:

«الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا – كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ»؟!

أولًا:

عندما تحدث القرآن عن «السلف الصالح» ذكر إبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه، وأمر المسلمين أن يتأسوا بهم في قضية محددة وهي «ملة الوحدانية» فقال الله تعالى «الممتحنة / ٤»:

«قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ – فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ»

ثم بيّن الله تعالى بعد ذلك موضوع الأسوة:

«إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ – إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ – وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ»

١- يقول الله تعالى «البقرة / ١٣٣»:

«أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ – إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي – قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ – إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ – إِلَهًا وَاحِدًا – وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»

ثم بيّن الله تعالى أن الناس لا يسألون عن أعمال سلفهم الصالح أو الطالح، موحدين أم مشركين، وإنما يسألون عن أعمالهم هم، فقال الله تعالى «البقرة / ١٣٤»:

«تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ – لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ – وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ»

٢- ولأهمية بيان أن المسؤولية يوم القيامة مسؤولية فردية كرر السياق هذه الآية مرة أخرى «البقرة/١٤١» لبيان أن «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ» مضت وخلا منها المكان والزمان، وأن من خلت

منهم الأرض «الموتى» لن ينفعوا «الأحياء» الذين عليها، إلا من باب التأسي وأخذ العبر والعظات، ولذلك ختم الله الآية بقوله «وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

هذا عن تحرير مصطلح «السلف»، حسب وروده في السياق القرآني واللسان العربي، فكيف استطاع أئمة السلف تحريفه وتوظيفه لخدمة توجهاتهم المذهبية؟!

ثانيًا:

لقد ظهرت «السلفية السُنيّة» في القرن الثالث الهجري على يد «أحمد بن حنبل – ت٢٤١هـ» ثم جاء «ابن تيمية – ت٧٢٨هـ» بعد ما يقرب من خمسة قرون وقام بإحيائها وتجديدها، وعاش «أهل السُنّة» خلال هذه القرون وإلى اليوم داخل هذه «السلفية السُنيّة» يفهمون الدين كما فهمه السلف، يأكلون ويشربون كما فعل السلف، ويختلفون كما اختلف السلف، ويتخاصمون كما تخاصم السلف، ويسفكون الدماء بغير حق أسوة بالسلف.

١– لقد تشكلت المرجعية السلفية لفرقة «أهل السّنُة والجماعة» على مرحلتين:

الأولى:

على يد «أحمد بن حنبل – ت٢٤١هـ».

الثانية:

على يد «أبي الحسن الأشعري – ت٣٢٤هـ»

ومنذ القرن الثالث الهجري و«أهل السنة والجماعة» لا يعلمون شيئًا عن «دين الإسلام» إلا من خلال المذهبين: الحنبلي والأشعري.

٢– ولم يستطع «المذهب الحنبلي» الانتشار كـ «المذهب الأشعري» لأن الأول كان أكثر المذاهب تشددا وإشعالا لأزمة التخاصم والتكفير بين المسلمين، استنادا إلى اجتهادات أئمته المغلقة والمفرطة خاصة في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثم جاء العصر الذهبي لـ «المذهب الحنبلي» على يد «محمد بن عبد الوهاب النجدي – ت ١٢٠٦هـ» الذي استطاع توفير الوسائل المختلفة التي ساعدت على انتشار «المذهب الحنبلي» حتى أصبح وقتها الأكثر شهرة.

٣– عندما اختلف أئمة السلف في تعريف من هم «السلف»، فقالت طائفة هم رسول الله وصحبه، وأضافت أخرى الخلفاء الراشدين والتابعين، وجاءت ثالثة وقالت هم أئمة القرون الثمانية الأولى، ثم حصر «الحنابلة» السلفية في أئمة القرون الثلاثة الأولى استنادا إلى رواية البخاري ومسلم، عن عبد الله بن مسعود:

«خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يجئ أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته».

قال النووي في شرح هذه الرواية: الصحيح أن قرنه الصحابة والثاني التابعون والثالث تابعوهم.

٤- لقد اعتبر الحنابلة أن وفاة «أحمد بن حنبل في القرن الثالث الهجري - ت٢٤١هـ» يعني أن مذهبهم هو خير المذاهب «العقدية» باعتبار أن الحنفية والمالكية والشافعية مذاهب «فقهية» وهم لا يعلمون أن هناك من سيأتي في القرن السابع الهجري ليحيي مذهبهم ويجدده ويكون هو الأكثر تأثيرا في عقائد المسلمين، وهو «ابن تيمية - ت ٧٢٨هـ» ومن بعده «محمد بن عبد الوهاب - ت ١٢٠٦هـ»:

فلماذا لم ترتبط «السلفية»:

(أ): بمذهب «أبي حنيفة: ٨٠ -١٥٠هـ».

(ب): بمذهب «مالك: ٩٣-١٧٩هـ» وهو إمام دار الهجرة.

(ج): بمذهب «الشافعي: ١٥٠-٢٠٤هـ» الذي عاصر «أحمد بن حنبل: ١٦٤-٢٤١هـ»

وهذه ليست مذاهب فقهية فقط وإنما تكلمت أيضا في العقائد، وقد عدّها البعض من المذاهب الكلامية التي تبحث في صفات الله؟!

ثالثًا:

لقد ذكر البغدادي، في كتابه «الفرق بين الفرق» أن أول المتكلمين من «أهل السُنّة» هما أبو حنيفة والشافعي، اللذان تحدثا عن القضاء والقدر والجبر والاختيار وعن الذات الإلهية وغيرها من القضايا الكلامية نقلا عن بعض الصحابة والتابعين، فإذا أردنا اليوم تحرير مصطلح «السلفية» من كل لبس أو تحريف مذهبي شابه فهل نستطيع؟!

١- إننا أمام حديث متفق عليه بين البخاري ومسلم، أي في أعلى درجات الصحة، تستند إليه «المنظومة السلفية» في خيرية أئمة القرون الثلاثة الأولى على سائر الأئمة، ولكن هذه «السلفية» التي تربى عليها المسلمون من «أهل السُنّة» هي سلفية «ابن تيمية - ت ٧٢٨هـ» وسلفية «محمد بن عبد الوهاب - ت ١٢٠٦هـ» وهما خارج القرون الثلاثة الأولى:

٢- والسؤال: ما موقف أنصار ابن تيمية والوهابية من رواية البخاري ومسلم، وهل هذه الخيرية التي خص بها الرسول «القرون الثلاثة الأولى» كانت قاصرة على فرقة «أهل السُنّة والجماعة» وبذلك يكون هذا الحديث دليلًا صريحًا على أن «الفرقة الناجية» هي فرقة أهل السُنّة والباقي في النار؟!

٣- ثم كيف تشمل الخيرية «القرن الأول الهجري» الذي حدثت فيه «الفتن الكبرى» التي شارك فيها الصحابة وسفكت فيها الدماء بغير حق، وقام فيه الملك العضوض بقيادة الخلافة الأموية؟!

(أ): لقد ظهرت المذاهب العقدية المتصارعة في «القرون الثلاثة الأولى» واحتدم الصراع بينها، فـ «أحمد بن حنبل - ت٢٤١هـ» اتهم «أبا حنيفة - ت١٥٠هـ» بالقول بـ «خلق القرآن» وكل من قال بـ «خلق القرآن» فهو «جهمي» وكل «جهمي» في نظر «الحنابلة» كافر.

(ب): وكان «أحمد بن حنبل» يؤمن بوجوب طاعة الحكام وإن فجروا وظلموا، وهو موقف السلفية بشكل عام، فكان يُحرّم الخروج على خلفاء عصره من العباسيين، وهذا ما جعله يُخرج «أبا حنيفة» من أئمة السلف لأنه لم يقبل الخضوع لـ «أبي جعفر المنصور» ثاني خلفاء بني العباس «ت١٥٨هـ»، ووقف مع آل البيت في مواجهة ظلم المنصور، وعندما دعاه ليتولى منصب قاضي القضاة امتنع، فحبسه إلى أن توفي في بغداد عام «١٥٠هـ».

(ج): وكان لـ «الحنابلة» مواقف تخاصمية تكفيرية على مر العصور، فقد كفروا الأشاعرة، ورفضوا المذهب «المالكي» ونهوا السلفيين عن تقليده، وسبوا «الشافعي» وطعنوا في إمامته وترصدوا لأتباعه في الطرقات، وما حدث من «فتن ببغداد» بين الشافعية والحنابلة، وبين الحنابلة والأشعرية وما يعرف بفتنة «ابن القشيري - الأشعري» التي وقعت في القرن الخامس الهجري ... إلى آخر ما هو مفصل في تاريخ الفرق والمذاهب العقدية.

(د): سأل أحد المصلين الشيخ عبد الله الهروي «ت٤٨١هـ» وهو أحد شيوخ الحنابلة، وصاحب كتاب «ذم الكلام»:

هل تجوز الصلاة خلف صاحب عقيدة مخالفة لـ «أهل السنة والجماعة» كـ «الأشعري» مثلا؟!

الجواب:

«الحاصل أن الصلاة تصح خلف مبتدع بدعة لا تخرجه عن الإسلام، أو فاسق فسقا ظاهرًا لا يخرجه من الإسلام، لكن ينبغي أن يولى صاحب السُنّة».

فانظر إلى قوله: «لكن ينبغي أن يولى صاحب السُنّة»، أي أنه يعتبر «الأشعري» ليس من «أهل السُنّة» لأنه مبتدع من وجهة نظر السلفية.

٤- لقد اعتبر «ابن تيمية» وتلميذه «ابن قيم الجوزية» الأشعري جبريًا، ثم جاءت «الأشعرية» وأفتوا بسجن «ابن تيمية» لأنه ذهب إلى التجسيم والتشبيه، وقالوا إن من كان على دين «ابن تيمية» حلال الدم.

فهل يعقل أن تكون القاعدة التي قام عليها تدين معظم المسلمين هي «منظومة السلفية» بإمامة «أحمد بن حنبل: ١٦٤-٢٤١هـ» يقابلها «منظومة الأشعرية» بإمامة «أبي الحسن الأشعري: ٢٦٠ -٣٢٤هـ» والمنظومتان ضربتا أسوأ المثل في تاريخ الصراع العقدي المذهبي؟!

لقد أصبحت الحدود الجغرافية للبلاد حدودا «دينية سلفية» تهتم بـ «الهوية الدينية» فينظر السني إلى الشيعي نظرة ريبة، وينظر الشيعي إلى السني نظرة ريبة، ويدافع كل منهما عن هويته الدينية أكثر من دفاعه عن أرضه، وهم يرفعون شعار أن دين الدولة الإسلام، وأن «الكتاب والسُنّة» المصدران الرئيسيان للشريعة الإسلامية، والله تعالى يقول «البقرة / ٧٩»:

«فَوَيْلٌ - لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ - ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ - لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا - فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ - وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ»

واللافت للنظر أن أتباع هذه الفرق الإسلامية جميعهم من الذين أعطوا ظهورهم لقول الله تعالى «الروم / ٣١-٣٢»:

«مُنِيبِينَ إِلَيْهِ - وَاتَّقُوهُ - وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ - وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ - مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ - وَكَانُوا شِيَعًا - كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ»

فمتى يتعلم المسلمون الدرس، وأن «دين الإسلام» الذي حمله القرآن لا يعرف فُرقة ولا مذهبية، ولا سلفية حنبلية ولا وهابية ولا أشعرية، ولا شيعية ولا معتزلية ولا إباضية، وإنما يعرف شيئًا واحدا فقط وهو قول الله تعالى «العنكبوت / ٥١»:

«أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ - أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ - يُتْلَى عَلَيْهِمْ - إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً - وَذِكْرَى - لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»

عبثية أن يحكم فقه الرواية فقه الآية

لقد أغلق الله تعالى جميع أبواب المرجعيات الدينية ببعثة رسوله الخاتم محمد، عليه السلام، واصطفى أمته لتحمل «آيته القرآنية» بين الناس وتخرجهم من الظلمات إلى النور، وتتحمل مسؤوليتها في الشهادة عليهم على مر العصور، كما تحمل رسول الله مسؤوليته فكان شهيدًا على عصره:

يقول الله تعالى «البقرة / ١٤٣»:

«وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً - لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ - وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا»

لقد كانت شهادة رسول الله وصحبه الذين رضي الله عنهم، شهادة بلاغ وتفعيل لنصوص «الآية القرآنية» بين الناس، كانت شهادة «أمة واحدة» لم تعرف تفرقًا مذهبيًا ولا تخلفًا حضاريًا، ولقد

عرف المسلمون هذه الأمة، التي هي خير أمة أخرجت للناس، من خلال نصوص «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد:

والسؤال: أين ذهبت «خير أمة» أخرجت للناس؟!

أولًا:

هل تأسى المسلمون برسولهم محمد، كما أمرهم الله تعالى، وأقاموا الشهادة على الناس، وأخرجوهم من الظلمات إلى النور سلوكًا عمليًا في واقع الحياة، في عصر الاتصالات العالمية، والتقنيات الرقمية، وثورة الإنترنت، والليزر، والفيمتو ثانية، والنانو تكنولوجي، والميكروسكوب الإلكتروني؟!

لقد تخلى المسلمون عن مسؤولية الشهادة على الناس مخالفين «السُنّة النبوية» وهم سعداء بتفرقهم وتخاصمهم وبتعميق أزمة التخاصم والتكفير بينهم من خلال منابر الدعوة المذهبية التخاصمية المحلية والفضائية.

لقد تفرق المسلمون إلى فرق وأحزاب وجماعات متصارعة، وانشغلت كل طائفة بـ «تراثها الديني» الذي جعلته حاكمًا على فاعلية نصوص «الآية القرآنية العقلية»، ففقدوا خيريتهم وشرف شهادتهم على الناس، وغضب الله تعالى عليهم ولعنهم وأعد لهم عذابًا عظيمًا.

١- هل عندما خرج المسلمون من بطون أمهاتهم وجدوا آباءهم يتعاملون مع القرآن وحده باعتباره الكتاب الإلهي الوحيد في هذا العالم الذي يحمل في ذاته «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسولهم محمد، أم وجدوا «الكتاب» الذي أنزله الله على رسوله محمد، القرآن الكريم، ومعه «كتب» تحمل روايات نسبها المحدثون إلى الرسول، كلٌ حسب مذهبه العقدي والفقهي، بدعوى أنها «السُنّة النبوية»؟!

٢- لقد غاب «فقه الآية» عن واقع الناس، وتوقف عطاؤها المتجدد مع كل عصر، وحضر «فقه الرواية» والتخاصم والتكفير وسفك الدماء بغير حق، فخرج المسلمون من النور إلى الظلمات، والسبب في قول الله تعالى «البقرة / ٢٥٧»:

«اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ - يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ»

«وَالَّذِينَ كَفَرُواْ - أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ - يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ»

«أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ - هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»

٣- ولذلك يستحيل أن يعرف أئمة وعلماء الفرق الإسلامية طريقهم إلى «نور الآية القرآنية العقلية» وهم يُصرّون على أن يكون «فقه الرواية» حاكمًا «فقه الآية»، كلٌ حسب مذهبه العقدي والفقهي، وبرعاية المؤسسات الدينية الرسمية وغير الرسمية.

إن «دين الإسلام»، الذي حمله «القرآن»، ليس «علمًا» من علوم الدنيا يُدرس للحصول على شهادة علمية في تخصص معين، يؤهل صاحبه للعمل في مجال هذا التخصص، وإنما هو المنهج والنظام والقانون الذي أنزله الله تعالى ليحكم حياة الناس جميعًا إلى يوم الدين.

ثانيًا:

إن رسالة الله الخاتمة، التي حملت «الآية القرآنية العقلية»، ليست تراثًا بشريًا مذهبيًا يرثه علماء الفرق والمذاهب العقدية والفقهية، كلٌ حسب مدرسته في التفسير والتأويل والجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف، لم يولد إلا بعد وفاة رسول الله محمد بقرن من الزمن على أقل تقدير.

١- إن أي إنسان يملك أدوات البحث العلمي، يقوم بحصر الخلافات العقدية والفقهية القائمة بين علماء الفرق الإسلامية، وخاصة المتعلقة بفتاوى التطرف واستباحة الدماء بغير حق، يجد أن معظمها قائم على «المرويات» التي نسبها الرواة والمحدثون إلى رسول الله محمد وكانت سببًا رئيسًا في غياب الفهم الواعي لآيات الذكر الحكيم، انطلاقا من ثقافة التخاصم والتكفير التي تشربتها قلوب «الرواة» الذين نقلوا هذه «المرويات» لتعميق أزمة الخلاف الفقهي بين المسلمين.

٢- ومادام السابقون واللاحقون قد اختلفوا فقهيًا نتيجة اختلافهم في صحة وعدم صحة «المرويات» التي يستقون منها فقههم المذهبي، ففريق يقول بـ «الحل» في مسألة استنادًا إلى ما صح عنده من مرويات الرواة، وآخر يقول بـ «الحرمة» في نفس المسألة استنادًا إلى ما صح عنده من مرويات الرواة:

فلماذا نشغل المسلمين بـ «فقه السلف» المدون في آلاف المجلدات لنصل في النهاية إلى أن الحكم في مسألة بـ «الحل» أو «الحرمة» سواء؟!

٣- لماذا لم تقتصر أبواب الفقه الإسلامي على ما اتفق على تحريمه فقهاء الفرق والمذاهب المختلفة في عصر معين، ويعاد النظر في هذه الأحكام حسب مقتضيات وإمكانات كل عصر؟!

فهل يعقل أن تعرض أحكام الشريعة الإسلامية على شعوب العالم بهذه الصورة المذهبية المؤسفة فمذهب يقول بـ «الحل» وآخر يقول بـ «الحرمة»، وفي مسألة واحدة، والمفتون أتباع فرقة واحدة ومذهب عقدي واحد؟!

٤- لماذا ظل «الفقه الإسلامي» يتحرك قرونا من الزمن في حراسة أئمة المذاهب الفقهية المختلفة، ثم يأتي الخلف ويتبع ما قاله السلف من غير تحقيق علمي، خاصة إذا كانت المسألة تتعلق بطبيعة العصر الذي يعيش فيه المفتي والتحديات التي يواجهها من الملحدين والكافرين بـ «نبوة» رسول الله محمد؟!

ثالثًا:

وإذا كانت «المرويات» المنسوبة إلى رسول الله هي «كلام النبي» المبيّن للقرآن والمكمل لأحكامه، فلماذا احتاجت هذه «المرويات» هي أيضا إلى بيان وشرح علماء الحديث، فهل يُعقل أن يحتاج المبيِّن إلى من يبينه بـ أمهات كتب التفسير والفقه؟!

١- لقد زادت وتوسعت اجتهادات وشروح أئمة الفرق والمذاهب المختلفة قبل «عصر التدوين»، ثم أضيف لها الحواشي على الشروح، ثم الهوامش على الحواشي، إلى أن أُغلق باب الاجتهاد:

والشروح:

لتوضيح ما غمض من المتون، وهي رسائل صغيرة خالية من الاستطراد والشواهد والأمثلة، وتفصيل ما أُجمل منها، وتتراوح بين الطول والقصر والسهولة والعسر، وفيه الوجيز والوسيط والبسيط.

والحواشي:

إيضاحات مطولة دعت إليها ظاهرة انتشار المتون والشروح، بقصد حل ما يستغلق من الشرح، وتيسير ما يصعب فيه، واستدراك ما يفوته، والتنبيه على الخطأ والإضافة النافعة وزيادة الأمثلة والشواهد.

فأين نجد «الحديث النبوي» بكلماته وحروفه التي خرجت على لسان النبي، وسط هذه المنظومة المذهبية، وبين هذه الشروح والحواشي، وهذه الاجتهادات الفقهية العشوائية التي قامت على اختلاف المحدثين وعلماء الجرح والتعديل في تصحيح وتضعيف المرويات التي أقام عليها كل فريق مذهبه؟!

٢- إن ٩٩٪ من المسلمين اليوم أعضاء في «منظمة الآبائية المذهبية» يواجهون خطر محو هويتهم الإسلامية، هذا الخطر الذي لا يراه إلا أصحاب البصيرة، والذي يتحمل مسؤوليته المسلمون أنفسهم بإصرارهم على التفرق في الدين وانشغال أئمتهم بـ الخلافات المذهبية وفتاوى التخلف وثقافة الهزيمة، وعقد المؤتمرات، وإصدار بيانات الشجب والإدانة، وأتباع كل فرقة يعتبرون أنفسهم هم «الفرقة الناجية».

٣- إن «الرباني» الذي درس القرآن، ووقف على فعالية «الآية العقلية» التي يحملها، ودخل في «دين الإسلام» من بابه الصحيح، لم يعد في حاجة إلى إثبات عدم حجية ما يُسمى بـ «المصدر الثاني للتشريع» الذي يدّعي أئمة السلف والخلف أنه يحمل «السُنّة النبوية»، ذلك أن المرء قبل دخوله في «دين الإسلام» يكون قد خلع ثوب تراثه الديني كله بعد أن آمن بأن الكتاب الوحيد واجب الاتباع في «دين الإسلام» هو كتاب الله الذي أمر الله تعالى الناس جميعًا ابتاعه:

يقول الله تعالى «النساء / ١٧٤-١٧٥»:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ - قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ - وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً - فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللهِ - وَاعْتَصَمُواْ بِهِ - فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ - وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيمًا»

فهل شكر المسلمون ربهم على نعمة النور المبين، وتحملوا مسؤوليتهم على الوجه الذي يرضى الله تعالى، بعد أن علموا أن «المرويات» التي استحلت الدماء بغير حق، ظنية الثبوت عن رسول الله، وإن صحت عند فرقة لم تصح عند أخرى؟!

٤- وطالما أن الذي يُفجر نفسه، وسط المخالفين له في الملة أو المذهب، يُصبح شهيدًا يدخل الجنة من غير حساب، فلماذا لا يكون أئمة وعلماء ودعاة كل فرق من الفرق الإسلامية، في مقدمة هذه القنابل البشرية، ويدخلون الجنة بهذه الطريقة السهلة التي لا تحتاج إلى مناورات عسكرية ولا إلى إعداد القوة المرهوبة؟!

رابعًا:

إن الأمة الإسلامية المقطعة الأوصال لم تحظ بأي تأييد إلهي ينصرها على عدوها السالب لخيراتها وكرامتها المحطم لعزتها، فلماذا لم يُمكّن الله تعالى دينه الذي ارتضاه لـ «الذين امنوا» من هذه الأمة في مواجهة التحديات التي تسعى لمحو هويتهم الإسلامية، ألم يقل الله تعالى لهم «النور / ٥٥»:

«وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ - لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ - وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ - وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً - يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً - وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ»

١- لماذا لم يبدل الله خوف المسلمين أمنا؟!

٢- هل المشكلة في وعد الله أم في الموعودين؟!

٣- هل يمكن أن يخلف الله وعده، أم أن إيمان الموعودين ذهب ولم يعد؟!

لقد أنزل الله تعالى كتابه الخاتم يحمل «آية قرآنية عقلية» تخرج الناس من الظلمات إلى النور:

يقول الله تعالى «إبراهيم / ١»:

«الَر - كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ - لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ - بِإِذْنِ رَبِّهِمْ - إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ»

فهل أقام المسلمون تدينهم على الفهم الواعي لمكانة هذه «الآية القرآنية العقلية» وفاعلية نصوصها وقيمها الحضارية ومقاصدها العليا؟!

أم أقاموا تدينهم على الفهم غير الواعي لنصوص هذه «الآية القرآنية العقلية»، وعلى افتراء الكذب على الله تعالى بادعاء وجود مصدر تشريعي غير القرآن أنزله الله باسم «السُنّة النبوية» لتفسير القرآن واستكمال أحكامه، فتخلفوا عن ركب التقدم الحضاري؟!

لقد حكم إسلام «الرواية البشرية» إسلام «الآية الإلهية»، وحكم فقه «الرواية» فقه «الآية»، وحكم الهوى «لغة القرآن» وحكمت العشوائية «علم السياق»، وحكمت الفُرقة والمذهبية «المؤسسات الدينية» الرسمية وغير الرسمية، وحكم الإلحاد والقراءات الشاذة للقرآن «قلوب كثير من المسلمين»، وعاد المسلمون إلى عصر «الجاهلية الأولى» بعد أن أنقذهم الله تعالى منه:

يقول الله تعالى «آل عمران / ١٠٢-١٠٨»:

«... وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا - كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ - لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ... وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ - مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ - وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»

حجية خبر الواحد وإشكالية تجديد الخطاب الديني

إن المحور الأساس الذي تدور حوله إشكالية تجديد الخطاب الديني عند الفرق والمذاهب الإسلامية كلها، هو مساواة حجية «الآية الإلهية» بحجية «الرواية البشرية» التي نسبها «الرواة» إلى رسول الله محمد ثم دوّنها «المحدثون» بعد وفاته بقرن من الزمن، ويدّعون أنها «السّنُة النبوية» واجبة الاتباع.

والذين قالوا إن مرويات الرواة «وحي إلهي» حمل للمسلمين مصدرا تشريعيا مستقلا عن كتاب الله، هم الذين أسّسوا ونظّروا وقعّدوا لـ «منظومة التطرف الديني» الذي وظفته المنظمات والجماعات الإرهابية لصالحها، منذ عصر التدوين وإلى اليوم، الأمر الذي يستلزم ثورة علمية «لتأصيل» هذا الخطاب الديني وليس لـ «تجديده».

أولًا:

يقوم «تأصيل» الخطاب الديني على قاعدة «الحجيات» استنادًا إلى قول الله تعالى «النمل / ٦٤»:

«قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ»

١- حجية كتاب الله:

وهي ثابتة ثبوت تفاعل كلماته مع «مقابلها الكوني» في الآفاق والأنفس، وثبوت صدق «الآية القرآنية العقلية» التي حملها والدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد القائمة بين الناس إلى يوم الدين، ولذلك عندما طلب الكافرون أن ينزل الله على رسوله «آيات حسية» مثل التي أيد بها الرسل السابقين، قال تعالى «العنكبوت / ٥١»:

«أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ – أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ – إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً – وَذِكْرَى – لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»

٢– حجية حديث النبي:

ثابتة ثبوت بعثته، عليه السلام، وحياته بين قومه الذين كانوا يسمعون كلامه بـ «لفظه وحرفه» منه مباشرة ويتفاعلون معه، ومن الطبيعي أن يتوقف هذا «الحديث النبوي» بوفاة النبي، ويُصبح كل ما «نقله» الصحابة والتابعون عن النبي هو «رواية» عن النبي، وليس «حديث» النبي.

٣– ولقد حفظ الله تعالى «حديث النبي» في عصر التنزيل، وهو الذي حملته الآيات التي أمره الله تعالى فيها بـ «قل»:

(أ): «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ – قُلْ ...»

(ب): «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ – قُلْ ...»

(ج): «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ – قُلْ ...»

(د): «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ – قُلْ ...»

ثانيًا:

إن حجية «السُنّة النبوية» ثابتة ثبوت تفعيل «النبي» للنص القرآني في حياته «الخاصة» و«العامة»، وثبوت كيفية أداء ما أجمله النص القرآني من أحكام، والتي تناقلتها الأجيال بالتقليد والمحاكاة محفوظة عبر «منظومة التواصل المعرفي» بحفظ الله تعالى للنص القرآني.

١– ولا علاقة بين هذه «السُنّة النبوية» التي كان لها فعالية في عصر التنزيل، وبين ما يُسمى بـ «مرويات السُنّة النبوية» التي لم تكن لها أي فعالية في عصر التنزيل، وخير برهان على ذلك أن هذه «المرويات» ما كان لها أن تولد من غير «سند روائي» يحمل «سلسلة الرواة» من يوم تدوينها، روى فلان عن فلان عن فلان ... وصولًا إلى عصر التنزيل بعد وفاة النبي بقرن من الزمن على أقل تقدير.

٢- والغريب، الذي يدعونا إلى التوقف كثيرًا، ونحن أمام مصدر تشريعي تسفك بمروياته وبفتواه الدماء بغير حق، أن حجية هذه «المرويات» قامت على ما يُسمى بـ «خبر الواحد»، أو بـ «حديث الآحاد»، فمن أين جاء هذا المصطلح؟!

لقد كان «الصحابة» يتداولون ما سمعوه من النبي «شفاهة»، فلم يشهد عصر الرسالة ولا عصر الخلافة الراشدة أي «مدونة» لهذه المرويات، ثم نقل «التابعون» عنهم مروياتهم، واستمرت عملية النقل من راوٍ إلى آخر عقودًا من الزمن حتى جاء «عصر التدوين» وسُمح بالتدوين فدوّن «المحدثون» هذه المرويات كما وصلت إليهم.

٣- ثم جاء عصر تتبع فيه «المحدثون» هذه المرويات لمعرفة أحوال رواتها، فنتج عن هذا التتبع تقسيم هذه المرويات إلى:

(أ): متواترة:

وهي الرواية التي نقلها عدد كثير يستحيل اتفاقهم على الكذب، عن مثلهم، عن مثلهم، إلى آخر «السند الروائي».

(ب): آحاد:

وهي الرواية التي لا تنطبق عليها شروط «التواتر».

(ج): المشهور:

ثم جاء «أبو حنيفة» وأضاف قسمًا ثالثًا سماه بـ «المشهور»، وهي الرواية التي كانت في أصلها «آحادا» ثم نقلها بعد ذلك جمع كثير.

مثال لـ «المشهور»:

رواية عمر بن الخطاب «إنما الأعمال بالنيات»، لم يروها عنه خلال «القرن الأول» إلا «يحيى بن سعيد الأنصاري»، ثم نقلها عنه في «القرن الثاني» العدد الكثير.

٤- وجاء من قام بتقسيم «رواية الآحاد» إلى أقسام:

«غريب - عزيز - مشهور..»

(أ): فلم يكن غريبًا أن نجد المحدثين، على مستوى الفرق الإسلامية، يختلفون اختلافًا كبيرًا حول أقسام «الرواية» وأن ما أطلقوا عليه «المتواتر» يندر بل ينعدم وجوده لأن أصله هو «خبر الواحد» كما سبق بيانه بالنسبة لرواية «إنما الأعمال بالنيات»، قالوا:

(ب): إن من لوازم القول بعدم حجية خبر الواحد ألا يُكْتَفَى بقول واحد من علماء الحديث بـ «تواتر» حديث ما، وذلك لأن قوله هذا عن تواتر الحديث هو «خبر آحاد» ويتعذر إثبات شهادة جميع علماء الحديث بتواتر الحديث.

(ج): لذلك وجب «قبول» خبر الواحد المتخصص في علم الحديث، وإلا «سقط» علم الحديث كله لأن أكثر الأحاديث النبوية آحادٌ، والمتواتر منها قليل.

هذه فكرة عامة وسريعة عن إشكاليات «المرويات» التي قام عليها تدين ٩٪ من المسلمين أتباع الفرق والمذاهب الإسلامية، وقام عليها ما يُسمى بـ «المصدر الثاني للتشريع»، وقامت عليها التوجهات العقدية والفقهية للقائمين على إدارة المؤسسات الدينية الرسمية وغير الرسمية، محليا ودوليا.

ثالثًا:

فإذا ذهبنا إلى «السلفية الوهابية» وجدنا موقفهم من حجية العمل بـ «خبر الواحد» في العقائد والأحكام يختلف مع كثير من المذاهب العقدية الأخرى كـ «المعتزلة» و«الأشاعرة»، فيقولون لا فرق بين رواية الآحاد والرواية المتواترة بدعوى إذا صحت «الرواية» فهي حجة بنفسها في العقائد والأحكام معا.

١- في عام «١٩٩٩م» جمعني لقاء بأحد شيوخ السلفية الوهابية، الذي كان له «عام ٢٠١٣م» دور كبير في دفع المسلمين للجهاد في سوريا، وكان على رأس القيادات السلفية الإرهابية التي دعت إلى مؤتمر نصرة الشعب السوري، وقد كان هذا اللقاء لمناقشة مشروعي الفكري، وفيه بيّنت البراهين الدالة على أن مستقبل تدين المسلمين في خطر بسبب هذا المصدر الثاني للتشريع، الذي يحمل مرويات وفتاوى التخاصم والتكفير وسفك الدماء بغير حق ... وانتهى اللقاء باتهامي بـ «إنكار السُنّة».

٢- وفي أكتوبر عام «١٩٩٩م» كان الموسم الثقافي السنوي الذي يعقد في «مسجد العزيز بالله» بحي الزيتون القاهرة، ويحضره مئات السلفيين، وفيه تحدث الشيخ عن حجية «السُنّة النبوية» وحجية «خبر الواحد» ثم قال والحديث مسجل ومنشور على موقعي:

«إن فريقا من أهل العلم ذهبوا إلى أن خبر الآحاد قطعي الثبوت، فسواء قلنا قطعي الثبوت أو ظني الثبوت فليُعلم أن أهل السُنّة اتفقوا، واتفاقهم حجة، على أن خبر الآحاد يُعمل به سواء كان ذلك في العقائد أو في الأحكام، أقول مرة أخرى في العقائد أو في الأحكام، هذا هو مذهب أهل السُنّة».

وقال:

«إن الأمة أجمعت على أن جحد السنة كفر بالله تبارك وتعالى لأنه رد للقرآن الذي يقول:

«وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ – مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى – وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ – نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى – وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ – وَسَاءَتْ مَصِيرًا»

المؤمنون كلهم يحتجون بـ «السُنّة»، والذي يسقط «السُنّة» يخرج عن سبيل المؤمنين، والخارج عن سبيل المؤمنين كفره معروف».

٣– ثم قال:

«الشيخ عبد اللطيف مشتهري رحمه الله، ابنه محمد المشتهري، أسأل الله عز وجل أن يهديه، أو أن يأخذه أخذ عزيز مقتدر، يؤتى به في التلفاز ليبين للناس أن السُنّة لا حجة فيها، ولقد جالست مع هذا الأحمق:

وقلت له: إذن سقط القرآن كله.

قال: لا لم يسقط القرآن.

قلت: كيف، لغة العرب التي نزل بها القرآن من أين عرفناها، نُقلت إلينا.

قال: نُقلت نقلا متواترا.

قلت: وكذلك الاحتجاج بـ «السُنّة» كلها نقل إلينا نقل «التواتر»، فكيف نأخذ بـ «التواتر» في موضع، ونترك «التواتر» في موضع آخر»؟!

تعالوا إلى ما قاله الشيخ عني:

«يؤتى به في التلفاز ليبين للناس أن السنة لا حجة فيها»

٤– أقول:

فها هو أحد كبار شيوخ السلفية الوهابية، الذين يؤمنون بوجوب العمل بـ «خبر الآحاد» في العقائد والأحكام، ينقل لنا «خبرًا» مفترى من أساسه، يهدم مذهبه في حجية «خبر الآحاد»، لأني لم أظهر مطلقًا في «التلفاز» في يوم من الأيام لأتحدث عن شيء له علاقة بـ «دين الإسلام»:

(أ): فمن أين جاء الشيخ بهذا «الخبر المفترى» الذي أعلنه على الآلاف ليصبح بنقلهم له خبرًا «متواترًا» فهل شاهد بنفسه هذا البرنامج، مستحيل لأنه لم يحدث أصلًا، إذًا إما أنه افتراه أو أخبره أحد «الثقات العدول»، وفي الحالين يكون الشيخ قد حكم بكفري على أساس خبر آحاد مفترى.

(ب): ثم انظروا: إن الشيخ الذي حكم بكفري على أساس خبر آحاد مفترى، كان يعيش معي في عصر واحد، وفي بلد واحد، والمسجد الذي قال فيه هذا الكلام المفترى لا يبعد عن مكتبي كيلو متر واحد، فكيف بحال «المرويات» التي نُسبت إلى رسول الله ودوّنت بعد وفاته بقرن من الزمن، بعد أن توفي الصحابة والتابعون أصحاب الحلقة الأولى من «السند الروائي»؟!

ثم انظروا إلى قول الشيخ في سياق اتهامه لي بالكفر:

«والخارج عن سبيل المؤمنين كفره معروف»

يعني لو أنني كنت موجودًا بين الحضور وأشار الشيخ إليّ وقال لأتباعه هذا هو «محمد مشتهري» لاستحلوا جميعًا دمي.

(ج): لذلك سيبقى السؤال قائما:

أي «خطاب ديني» هو المطلوب تجديده؟!

ثم ما المقصود بكلمة «ديني» وأي طائفة دينية هي التي ستقوم بتجديده؟!

٥- إن المسلمين، الذين تدفعهم العاطفة الدينية إلى ارتكاب أعمال عنف، ولو أدت إلى سفك الدماء بغير حق، أقول لهم:

(أ): إن العاطفة الدينية التي لا تنطلق من قلب سليم، دخل صاحبه في «دين الإسلام» من بابه الصحيح، عاطفة تهدم ولا تبني، تفسد ولا تصلح، سواء كانت دفاعًا عن الرسول، أو لإقامة الخلافة الإسلامية، فأي عاطفة دينية هذه التي لم يدخل صاحبها في «دين الإسلام»؟!

(ب): إن القضاء على المنظمات والجماعات الإرهابية من جذورها يستحيل أن يتحقق بأسلحة الدمار الشامل، فهناك صفوف ثانية وثالثة ... تحل دائما محل الصف الأول في الجهاد، وإنما يتم عندما يعلم المسلمون جميعًا أن التفرق في الدين «شرك بالله» وأنهم سيدخلون جهنم لا ريب في ذلك إذا ماتوا وقد أعطوا ظهورهم لآيات سورة آل عمران «١٠٢-١٠٨» والتي يقول الله تعالى في سياقها «آل عمران / ١٠٥»:

«وَلاَ تَكُونُواْ - كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ - وَاخْتَلَفُواْ - مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ - وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»

(ج): إن الإرهابيين ليسوا هم الذين يقومون بالتفجيرات بأنواعها المختلفة، وإنما هم الذين يدافعون عن حجية مصدر تشريعي يحمل «مرويات» تبيح سفك الدماء بغير حق باسم «السُنّة النبوية»، ويُفتون بانتظار «الحور العين» للذين يُفجّرون أنفسهم وسط المخالفين لهم في الملة أو المذهب.

(د): إن الإرهاب يقوم على «علم روائي» قبل أن يتحول إلى «عمل إجرامي»، ولذلك يجب أن يُقتلع هذا «العلم الروائي» من جذوره حتى لا تنبت شجرته مرة أخرى، لا أن نطالب بتجديده أو بتنقيته، كما يطالب الذين لم يدخلوا في «دين الإسلام» من بابه الصحيح.

من قال إن في «دين الإسلام» مذاهب فقهية متخاصمة؟!

إن كثيرًا من أئمة وفقهاء الفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة، يتعاملون مع القرآن باعتباره مصدرًا معرفيًا لإعداد الدراسات القرآنية، والخطب المنبرية، واستنباط الأحكام الشرعية، وليس باعتباره «الآية العقلية» التي أنزلها الله تعالى لإخراج الناس من الظلمات إلى النور عن طريق تفعيل آليات عمل قلوبهم، آليات التفكر والتعقل والتدبر والتفقه والنظر ... فإذا سألنا المسلمين: لماذا لم تُخرجوا الناس من الظلمات إلى النور كما أمركم الله تعالى؟!

«رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ – تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ – كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ»

أولًا:

لقد مات أئمة السلف ومعهم تدينهم وتفاعلهم الفقهي كلٌ في عصره، أما «دين الإسلام» فنظام متحرك مع حركة الحياة وتطورها، يتفاعل مع واقع الناس بـ «فقه معاصر» على يد علماء من كافة التخصصات، يعملون معًا في مؤسسة علمية، بعيدًا عن المؤسسات الدينية المذهبية «الرسمية وغير الرسمية»، يدير الأزمات والتحديات التي يواجهها العالم اليوم بحكمة واقتدار.

١- فأين هذه المؤسسة العلمية، التي لا علاقة لها بالمؤسسات الدينية الرسمية وغير الرسمية، تقدم للناس «فقهًا قرآنيًا معاصرًا» يُخرج الناس من الظلمات إلى النور بصورة علمية عملية تتفاعل مع واقعهم المعاصر؟!

٢- ما قيمة منابر الدعوة الإسلامية، بوسائل إعلامها المختلفة، إذا لم تستطع أن تحول الكلام إلى عمل خارج أبواب المساجد، وخارج القنوات المحلية والفضائية؟!

٣- وما قيمة الدراسات الدينية الأكاديمية إذا لم تتحول إلى واقع علمي وتقدم حضاري؟!

٤- وما قيمة المؤتمرات والندوات وبيانات الشجب والإدانة التي تصدرها المؤسسات الدينية الرسمية وغير الرسمية، إذا لم تتحول إلى واقع عملي يراه الناس؟!

ثانيًا:

لقد تحول «دين الإسلام» من دين إلهي، مرجعيته نصوص «الآية القرآنية العقلية»، ومنهج ونظام حياة يتحرك مع التقدم والتطور الحضاري:

إلى دين بشري مرجعيته «الرواية العشوائية» والمنهج النظري الذي يتحرك داخل المؤسسات الدينية ولا فعالية له في حياة الناس.

١- لقد بيّن الله تعالى للناس، أن نصوص «الآية القرآنية العقلية» التي ارتضاها لهم دينًا، لا فاعلية لها في عالم الأموات، فقال تعالى «يس / ٦٩-٧٠»:

«وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ - وَمَا يَنبَغِي لَهُ - إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ - وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ - لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً - وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ»

تدبر قول الله تعالى: «لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا»:

لبيان أن القرآن الذي بين أيدي الناس اليوم، يجب تفعيل آياته سلوكًا عمليًا، وبفقه معاصر يكون لهم «نورًا» يهديهم إلى صراط ربهم المستقيم:

يقول الله تعالى «النساء / ١٧٤-١٧٥»:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ - قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ - وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا»

«فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ - وَاعْتَصَمُواْ بِهِ - فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ - وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً»

٢- ولقد بيّن الله أن هذا النور يجب أن يصل إلى قلوب الناس فقال تعالى:

«أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ - وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ - فِي النَّاسِ - كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ - لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا - كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»

فلماذا قال الله تعالى «يَمْشِي بِهِ (فِي) النَّاسِ» ولم يقل «يَمْشِي بِهِ (بين) النَّاسِ»؟!

ذلك لبيان أن «نور القرآن» يجب أن يصل إلى قلوب الناس وكأنه يتحرك فيها، الأمر الذي لا يتحقق إلا بتفاعل كلماته مع الواقع المعاصر سلوكًا عمليًا، فأين المسلمون من هذا النور، وما الدور الذي قامت به مؤسساتهم الدينية لإخراج الناس من الظلمات إلى النور؟!

٣- وإذا كان المسلمون قد خرجوا من النور إلى الظلمات، بتفرقهم وتخاصمهم وتخلفهم، فكيف يُخرجون الناس من الظلمات إلى النور؟!

إن الإشكالية الكبرى التي تقف عقبة أمام تغيير المؤسسات الدينية «ما هو كائن» في حياة الناس إلى «ما يجب أن يكون» وفق أحكام القرآن، أن القائمين على إدارة شؤونها الدينية يعتبرون أن المرجعية الأساس لـ «دين الإسلام» هي «الكتاب والسُنّة»، فإذا ذهبنا إلى مرجعية «السُنّة» وجدناها «مرجعيات مذهبية» وليست مرجعية واحدة كـ «مرجعية كتاب الله».

ثالثًا:

ولكن الإشكال الأكبر، أنك إذا سألتهم: هل في «دين الإسلام» مرجعيات مذهبية يُرجع إليها لفهم أحكام القرآن، تراهم على الفور يتلون عليك قول الله تعالى «التوبة/١٢٢»:

«وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً – فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ – وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ – لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ»

فتعالوا نفهم هذه الآية في سياقها القرآني لنقف على معنى التفقه في الدين:

١– لقد استخدم القرآن كلمة «الفقه» في سياق الحديث عما يخفى علمُه أو يحتاج إلى جهد علمي أو تقني للوقوف عليه:

يقول الله تعالى «النساء / ٧٨»:

«فَمَا لِهَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً»

ويقول الله تعالى «الأنعام / ٩٨»:

«وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ»

ويقول الله تعالى «الإسراء / ٤٤»:

«وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ – إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ – وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ»

٢– ولم يستخدم القرآن كلمة «فقه» للتعبير عن علم من «العلوم الشرعية» يتخصص فيه علماء الفرق والمذاهب المختلفة، كلٌ حسب توجهه العقدي والفقهي.

إن جملة «لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ»» في قول الله تعالى:

«فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ – لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ»

لا علاقة لها بـ «علم الفقه» الذي عرفته المذاهب العقدية والفقهية بعد قرون من نزول القرآن، وبعد أن تفرق المسلمون وهجروا «أحكام القرآن».

٣– لقد جاءت كلمة «الدين» في السياق القرآني بأكثر من معنى، والمعنى الذي استخدم في سياق هذه الآية هو «النظام» الذي يلتزم به الناس في «إدارة» حياتهم، سواء كان هذا النظام حقًا أم باطلا، صالحا أو فاسدا، فقد سمى الله ما عليه مشركو العرب من وثنية «دينًا»:

يقول الله تعالى «الكافرون / ٦»:

«لَكُمْ دِينُكُمْ – وَلِيَ دِينِ»

ويقول الله تعالى في سياق بيان قصة يوسف عليه السلام «يوسف / ٧٦»:

«مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ – فِي دِينِ الْمَلِكِ»

أي في نظام وشريعة الملك، ويقول الله تعالى «آل عمران / ١٩»:

«إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ»

أي إن النظام والمنهج والشريعة التي ارتضاها الله لحياة الناس هي الإسلام:

يقول الله تعالى «المائدة / ٣»:

«وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا»

ويقول الله تعالى «آل عمران / ٨٥»:

«وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً – فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ – وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ»

٤– إذن فكلمة «الدين» وحدها لا تعني «الإسلام» إلّا إذا أضفنا صفة الإسلام إليه فقلنا: «الدين الإسلامي»، كما نقول «الدين المسيحي»، «الدين اليهودي».

أو إلا إذا دل السياق عليه، كقول الله تعالى «المائدة / ٥٤»:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا – مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ»

نفهم من السياق أنه يقصد «دين الإسلام» بقرينة أن الخطاب لـ «الَّذِينَ آمَنُوا».

رابعًا:

إذًا فكلمة «لِّيَتَفَقَّهُوا» لا علاقة لها بـ «فقه المذاهب»، وكلمة «الدِّينِ» لا علاقة لها بـ «علوم الشريعة» لعدم وجود إشارة إليها في سياق الآيات التي وردت فيها:

إذًا فما هو «الدين» المطلوب التفقه فيه حسب ما يُفهم من سياق الآيات؟!

١– إن آيات سورة التوبة جاءت تحدد، بوجه عام، العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين من المشركين والمنافقين، وتكشف عن مدى العداء الذي يحملونه للمسلمين ومن ذلك نقض المعاهدات والخيانة والغدر بـ المسلمين وقتالهم في الأشهر الحرم ...، فنزلت الآيات تحذر المسلمين وتأمرهم بالاستعداد لمواجهة هذه الانتهاكات العدائية غير الأخلاقية.

٢– فإذا تدبرنا آيات سورة التوبة من أولها سنقف على معنى «الدين» المطلوب «التفقه» فيه وأنه النظام والقانون العسكري الواجب على القيادة العسكرية أن تعلمه قبل إعلان «النفير» والخروج لقتال العدو، والآيات التالية تشير إلى الاستعداد للقتال:

(أ): «الآية ٣٨»:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا – مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ – انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ – اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ»

(ب): «الآية ١٢٢»:

«وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ – لِيَنفِرُوا كَافَّةً – فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ – لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ»

(ج): «الآية ١٢٣»:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا – قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنْ الْكُفَّارِ – وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً»

إذًا فالسياق الذي وردت فيه «الآية ١٢٢» يتحدث عن موضوع يتعلق بـ «فقه الحروب» والاستعداد لها، ولا علاقة له بـ «فقه علوم الشريعة» الذي ظهر بعد وفاة رسول الله محمد بقرون من الزمن.

٣– فـ «الآية ١٢٢» جاءت تحذر المسلمين من قتال العدو قبل إرسال «مجموعات استطلاع» لمراقبة أحواله العدو وتحركاته، وترسل نتيجة هذا الاستطلاع إلى القيادة العسكرية وهو ما يُعرف في الجيوش اليوم بـ «قوات الاستطلاع» التي تمد القيادة بـ «المعلومات الاستخبارية» لاختيار أنسب الطرق للهجوم، وهذا ما أشارت إليه الآية «النساء / ٧١»:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا – خُذُوا حِذْرَكُمْ – فَانفِرُوا ثُبَاتٍ – أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا»

(أ): تدبر قول الله تعالى «خُذُوا حِذْرَكُمْ» ثم «فَانفِرُوا»، وعلاقته بالنفير في الآية «التوبة / ١٢٢» ثم قول الله بعدها:

«فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا»

أي أنه بناء على المعلومات الواردة للقيادة العسكرية يكون اختيار الأسلوب المناسب للقتال، فإما أن يكون التحرك عن طريق جيوش متفرقة «فَانفِرُوا ثُبَاتٍ»، أو تحرك جماعي «أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا».

(ب): ونلاحظ أن التحذير الذي ورد في «النساء / ٧١»:

«خُذُوا حِذْرَكُمْ»

هو التحذير الذي ورد في الآية «التوبة / ١٢٢»:

«وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ – إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ – لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ»

فبعد «عملية الاستطلاع»، تذهب كل مجموعة من مجموعات «الاستطلاع» الموزعة على المناطق المختلفة، إلى قيادتها تخبرها بنتيجة الاستطلاع ليكونوا على حذر واستعداد.

٤– إن قول الله تعالى:

«فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ»

يُبيّن أن هناك طائفة، نفرت من كل فرقة للتفقه في الدين، وليس للقعود في المساجد تدرس فقه المذاهب الإسلامية على يد رسول الله، ولم تولد هذه المذاهب الفقهية إلا بعد وفاته، عليه السلام، بقرنين من الزمن على أقل تقدير، وإلا لجاء سياق الآية:

«فلولا نفرت طائفة وقعدت أخرى تتفقه مع الرسول في الدين»

(أ): يستحيل أن نفصل الآية «التوبة / ١٢٢» عن سياقها المحدد معنى «النفير»، والذي يبين أنه الخروج للقتال، ومعلوم أن الرسول كان على رأس الجيوش الخارجة للقتال بقرينة قول الله تعالى في نفس السياق «التوبة / ١٢٠»:

«مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ – وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ – أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ – وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ»

ولا توجد أي إشارة في سياق الآية «التوبة / ١٢٢» تفيد أن الرسول كان قاعدًا في المدينة تأتيه الطوائف ليتفقهوا في الدين وقت المعارك الحربية.

(ب): وعلى فرض أن المقصود بـ «التفقه في الدين» التفقه في «مسائل الدين» وليس التفقه في «فقه الحروب»، فأين «التفقه في الدين» الذي تعلمه الصحابة من رسول الله مباشرة، وبين وفاة الرسول وعصر تدوين أمهات كتب فقه الفرق والمذاهب العقدية المختلفة ما لا يقل عن قرن من الزمن؟!

٥- إن الفهم الواعي للآية «التوبة / ١٢٢» يقوم على أساس:

(أ): «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً»:

ليخرجوا جميعا إلى القتال.

(ب): «فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ»:

فلتخرج أولا طائفة من كل فرقة من الفرق المحاربة.

(ج): «لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ»:

لاستطلاع أحوال وتحركات العدو وجمع المعلومات.

(د): «وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ»:

وإبلاغ قادتهم بهذه المعلومات، إذا نجحوا في مهمتهم ورجعوا إليهم.

(هـ): «لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ»:

فيضعون الخطط، ويوفّرون الإمكانات الحربية المناسبة لمواجهة العدو.

والسؤال:

ما علاقة ما سبق بيانه، والفهم الواعي للجمل القرآنية:

«لِيَنفِرُوا كَافَّةً – وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ – لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ»

بـ «منظومة فقه السلف» التي دوّنت مذهبيًا» في أمهات الكتب، بعد وفاة رسول الله بقرن من الزمن على أقل تقدير، وقد نزلت نصوص «الآية القرآنية العقلية» لتَحكُم بـ «ذاتها» لا لتُحكَم بـ «فقه السلف» الذي لا علاقة له مطلقًا بفعالية «الآية القرآنية العقلية» التي تستلزم وجود «مؤسسة علمية» تجمع التخصصات العلمية المختلفة، التي تبيّن للناس «نور القرآن» بـ فقه قرآني معاصر؟!

عندما يتحول «المعلوم من الدين بالضرورة» إلى مذهب ديني

عندما تفرق المسلمون إلى فرق ومذاهب عقدية وتشريعية، أصبح مفهوم «الدين» محكومًا بمذاهب ومرجعيات أئمة هذه الفرق، وأصبح المعلوم منه بالضرورة يخضع لاجتهاداتهم، لذلك اضطرب هذا المفهوم بينهم اضطرابًا كبيرًا يسقط حجيته.

ولا يقول قائل: إن هذه الفرق، وهذه المذاهب الفقهية المتخاصمة، قد أجمعت على أصول الدين، وفي مقدمتها شهادة «أن لا إله إلا الله – وأن محمدًا رسول الله»، وأن هذا الإجماع يعطيها صفة «الأمة الواحدة».

أولًا:

إن الإيمان والإقرار بـ الشهادتين «أن لا إله إلا الله – وأن محمدًا رسول الله» لا وزن له عند الله تعالى إلا إذا عمل المسلمون بـ «مقتضياتهما»:

١– الطوائف الكلامية:

وهي مذاهب قامت على استخدام البراهين العقلية في محاججة خصومها، خاصة فيما يتعلق بذات الله وأسمائه الحسنى، ومناقشة أفعال العباد وهل تجرى بإرادتهم أم بإرادة الله، ومن أشهر هذه الطوائف الخوارج والمعتزلة والماتريدية والأشاعرة، والمرجئة.

والسؤال:

ألم يُجمع أئمة الفرق والمذاهب العقدية والفقهية على شهادة أن «لا إله إلا الله»، ومع ذلك اختلفوا حول «أسماء الله وصفاته»، وما تفرع عنها من إشكاليات عقدية، وما عُرف بمحنة

«خلق القرآن» وهل كلام الله مخلوق أم غير مخلوق ... وقد كانت هذه الخلافات سببًا في سفك دماء المسلمين بغير حق، وتكفير بعضهم بعضًا، كما هو مفصل في أمهات كتب الملل والنحل؟!

٢- ألم يُجمع أئمة الفرق والمذاهب العقدية والفقهية المختلفة على أن «محمدًا رسول الله»، ثم إذا هم يصنعون من أقوال الرواة مصدرًا تشريعيًا قوليًا يُحل ويُحرم، ويسفك الدماء بغير حق، يدّعون أنه وحي من الله، فهل «وحي الله» يمكن أن يأتيه الباطل والله تعالى يقول «فصلت / ٤١-٤٢»:

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ - وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ - لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ - تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»؟!

٣- لماذا لم يرث المسلمون، منذ عصر التنزيل، كتابًا واحدًا باسم «الأحاديث النبوية»؟!

(أ): ألم يخترق الباطل «الأحاديث» التي نسبها رواة الفرق والمذاهب المختلفة إلى رسول الله، ودوّنها المحدثون في أمهات «كتب الحديث»، الأمر الذي فرض على المحدثين إنشاء علم «الجرح والتعديل» و«التصحيح والتضعيف» لتنقية وغربلة هذه «الأحاديث» من الباطل الذي أصابها، وفصل الصحيح منها عن الضعيف والموضوع؟!

(ب): ألم يصحح «الألباني» في موسوعته الحديثية ما ضعّفه المحدثون، وضعف ما صححوه، ثم جاء «السقاف» وهدم منهج الألباني في التصحيح والتضعيف، وكتب كتبًا في «تناقضات الألباني» ولم ينته الصراع بين علماء الحديث، على مستوى الفرق الإسلامية كلها، إلى اليوم؟!

(ج): فهل يقبل مسلم عاقل، أن يكون علم «الجرح والتعديل»، الذي قامت عليه «المنظومة الحديثية المذهبية»، هو الميزان الذي يُعرف به «الوحي الإلهي» الصحيح من الضعيف؟!

(د): ألا يعتبر الادعاء بأن «الأحاديث» التي نسبها الرواة إلى رسول الله «وحي يوحى» إساءةً إلى الله وإلى الرسول وازدراءً للدين الإسلامي وإنكارًا لما هو معلوم من الدين بالضرورة؟!

(هـ): فمن أين جاء المحدثون بأن هناك وحيًا إلهيًا «قطعي الثبوت» عن الله وهو «كتاب الله»، ووحيًا إلهيًا «ظني الثبوت» عن رسول الله وهو «أحاديث» نسبها الرواة إلى رسول الله؟!

ثانيًا:

لقد أصبح التدين المذهبي «دينًا إلهيًا مقدسًا» لا يقبل التغيير أو الطعن فيه، وأصبحت ساحة «الفكري الإسلامي» ساحة صراع مذهبي بسبب الخلافات العقدية والفقهية، وأصبحت المؤسسات الدينية الرسمية وغير الرسمية في بلاد المسلمين جيشًا يدافع عن «تدينها المذهبي»، وأصبح «ازدراء الدين» يعني «ازدراء المذهب»، وإنكار «المعلوم من الدين بالضرورة» إنكار المعلوم من «المذهب الديني».

لقد أفرز «التدين المذهبي» إشكاليات عقدية وفقهية يصعب حصرها في مقال، ولا حتى في كتاب، لذلك سأكتفي في هذا المقال بإلقاء الضوء على بعض المسائل التي يمكن أن تنير الطريق لولاة الأمور لوضع حد لقضية «تكفير» المخالف في المذهب داخل الفرقة الواحدة، في الوقت الذي لم يدخل فيه أتباع الفرق الإسلامية جميعًا في «دين الإسلام» من بابه الصحيح.

١- من «المعلوم من الدين بالضرورة» أن القرآن كلام الله وآيته الدالة على صدق نبوة رسوله محمد، عليه السلام، فهل نص القرآن على عقوبة من كفر بكلام الله واستهزأ بآياته؟!

والجواب: لا، يقول الله تعالى:

«وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ - أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ - يُكْفَرُ بِهَا - وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا - فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ - حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ - إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ - إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ - وَالْكَافِرِينَ - فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا»

فإذا رأينا من يكفر بآيات الله ويستهزأ بها، بأي صورة من الصور، علينا أن ننسحب فورا من المجلس وإلا كنا مثله، حتى يزول السبب الموجب للانسحاب وهو الإقلاع عن الكفر والاستهزاء بآيات الله:

«حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ»

فيمكن العودة إلى الجلوس معه إذا توقف عن الكفر والاستهزاء بآيات الله.

٢- إذًا فـ الإشكال ليس في مفهوم «الكفر» في لغة القرآن وعلم السياق، وإنما في فهم «المنظومة الفقهية السلفية» له، وتصنيفه حسب المذهب العقدي والفقهي لكل فرقة، ولكن اللافت للنظر أن يتفقوا جميعًا على عقوبات ما أنزل الله بها من سلطان تسفك الدماء بغير حق كـ رجم الزانية والزاني وقتل المرتد والله تعالى يقول «النور / ٢»:

«الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي - فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا - مِئَةَ جَلْدَةٍ - وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ - إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ - وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ»

ويقول الله تعالى «البقرة / ٢»:

«وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ - فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ - فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ - وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ - هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»

(أ): إن قول الله تعالى «فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ» خير برهان على أن «المرتد» يعيش حياته، ويَحْرُم أن يمسه أحد بسوء، فإن لم يتب، وعاش بكفره، ومات عليه، فعقابه في الآخرة.

(ب): ألا نستطيع أن نتهم أئمة السلف، الذين قالوا بـ «الرجم» وبـ «قتل المرتد» بـ «إنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة»؟!

(ج): ألا نستطيع أن نتهم أئمة السلف بـ «ازدراء الدين الإسلامي» لأنهم أساؤوا إليه وافتروا على الله الكذب؟!

(د): إن المتدبر لآيات الذكر الحكيم، يعلم أن الكافرين ازدروا الدين الذي بعث الله رسوله ليبلغه للناس، وأساؤوا إلى شخص الرسول ...، ولم ينص القرآن على عقوبة لهم في الدنيا، إلا إذا أضافوا إلى كفرهم وإساءتهم الاعتداء على المسلمين.

ثالثًا:

من «المعلوم من الدين بالضرورة»، حسب ما ورد في كتاب الله، أن أصول الإيمان «خمسة» أشارت إليه الآية «النساء / ١٣٦»:

«وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ – وَمَلَائِكَتِهِ – وَكُتُبِهِ – وَرُسُلِهِ – وَالْيَوْمِ الْآخِرِ – فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا»

١– نلاحظ عدم وجود أصل من أصول الإيمان اسمه «القضاء والقدر»، كما يدعي أئمة السلف والخلف الذين يقولون إن أصول الإيمان «ستة»، وأن الأصل السادس هو «القدر خيره وشره»، ويعتبرون منكر هذا الأصل مرتدًا «يستتاب» فإن لم يتب وأصر على قوله «قُتل»، فمن أين جاؤوا بهذا الأصل السادس؟!

٢– لقد ظهرت المذاهب «القدرية» بوضوح بعد أحداث الفتن الكبرى وانقسمت إلى قدرية ينفون «القدر» ويقولون إن أفعال العباد تحدث بإرادتهم دون أن يجبرهم الله على فعلها، وهم «المعتزلة»، وذهب آخرون إلى غير ذلك.

والذي يهمنا في هذا السياق هو أن المذاهب الأخرى تعتبر «المعتزلة» منكرة لـ «المعلوم من الدين بالضرورة»، و«المعتزلة» فرقة من الفرق الإسلامية، وهم جميعًا، أي الفرق الإسلامية، لم يدخلوا في «دين الإسلام» من بابه الصحيح.

٣– إن المطلع على أمهات كتب «الملل والنحل والأهواء» يعلم أن أئمة السلف هم الذين صنعوا مسألة «القضاء والقدر» بأيديهم، وراحوا يوظفون الآيات المتعلقة بفاعلية أسماء الله الحسنى لخدمتها، ثم جعلوا «القضاء والقدر» أصلًا من أصول الإيمان يكفر منكره، ومن «المعلوم من الدين بالضرورة» الذي يرتد منكره.

وبسبب هذا «المعلوم من الدين بالضرورة» المذهبي سفك خلفاء الدولة الأموية الدماء بغير حق، فسفكوا دم «غيلان الدمشقي» وهو من أوائل الذين نفوا «القضاء والقدر» ومات مصلوبا على إحدى أبواب دمشق، بأمر من خليفة المسلمين «هشام بن عبد الملك – ت١٢٥هـ».

٤– وفي عصرنا، أنكر «محمد أبو زهرة» أن يكون «الرجم» عقوبة الزانية والزاني، وأعلن ذلك على الملأ عام «١٩٧٢» في مؤتمر ندوة التشريع الإسلامي – مدينة البيضاء – ليبيا، وقال:

«إني كتمت رأيًا فقهيًّا في نفسي من عشرين سنة، وكنت قد بُحت به للدكتور عبد العزيز عامر..، واستشهد به في المؤتمر قائلا: أليس كذلك يا دكتور عبد العزيز، قال: بلى..، وآن لي أن أبوح بما كتمته، قبل أن ألقى الله تعالى، ويسألني:

«لماذا كتمت ما لديك من علم ولم تبينه للناس»

هذا الرأي يتعلق بقضية «الرجم» للمحصن في حد الزنى، فرأيي أن «الرجم» كان شريعة يهودية، أقرها الرسول في أول الأمر، ثم نُسخت بحد الجلد في سورة النور ...» انتهى.

والسؤال:

(أ): ألم ينكر «محمد أبو زهرة» معلوما من الدين بالضرورة أجمع عليه أئمة السلف والخلف، وهو عقوبة «الرجم» التي تنفذها «داعش» اليوم، ومن قبلها طالبان، استنادا إلى المصدر الثاني للتشريع، الذي تدّعي المؤسسات الدينية الرسمية وغير الرسمية في بلاد المسلمين أنه حمل نصوص الوحي الإلهي الثاني الذي هو «السُنّة النبوية»؟!

(ب): هل أصدرت أي مؤسسة دينية رسمية في بلاد المسلمين فتوى بردة «محمد أبو زهرة» بسبب إنكاره «معلومًا من الدين بالضرورة»؟! لم يحدث، وهذا يؤكد أن ما يُسمى بـ «المعلوم من الدين بالضرورة»، وما يسمى بـ «ازدراء الأديان» ...، كلها أسلحة لقطع رقاب المخالفين للمذهب، ولا أصل لها في القرآن، وإنما هي من صنع «منظومة الفقه السلفي».

رابعًا:

عندما صدر كتاب «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث – محمد الغزالي» قوبل بسيل من الاتهامات، وحكم عليه السلفيون بالردة والكفر بدعوى أنه أنكر «معلومًا من الدين بالضرورة» عندما انتقد أحاديث البخاري ومسلم ...، فقمت بزيارة «رئيس لجنة الفتوى بالأزهر – الدكتور عبد الله المشد» وأعطيته نتائج الدراسة العلمية التي قمت بها للوقوف على حقيقة وشرعية وحجية ما اصطلح أئمة السلف والخلف على تسميته باسم «السُنّة النبوية».

١– لقد كان الهدف من هذه الزيارة أن تطلع «لجنة الفتوى» على نتائج هذه الدراسة وتصدر فتوى بعدم تكفير من ينكر «استقلال السُنّة» بإثبات الإيجاب والتحريم، لوضع حد للفتاوى التكفيرية التي يرفعها كل من هب ودب سلاحًا في وجه كل من يريد أن يرد المسلمين إلى «الدين الحق» الذي ارتضاه الله للناس جميعا لا الدين الذي ارتضته مذاهبهم لهم.

٢– وفي «١–٢–١٩٩٠» جاء رد لجنة الفتوى على الدراسة التي قدمتها لهم على النحو التالي:

«وعلى هذا، فمن أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجاب والتحريم، فهو منكر لشيء اختلف فيه الأئمة، ولا يعد مما علم بالضرورة، فلا يعد كافراً»

فقمت بإعطاء هذه الفتوى لـ «الغزالي» فقام بنشرها في أول كتاب صدر له بعد تكفيره وهو:

«تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل – الفصل التاسع – على هامش السنة»

ثم توالى نشر هذه الفتوى في كثير من المؤلفات والصحف، بعد الحملة الإعلامية التكفيرية الشرسة التي قادها أنصار ودعاة الفُرقة والمذهبية، والتي لا يزالون يقودونها إلى اليوم، رافعين «سلاح الردة» في وجه كل من تسول له نفسه مخالفة مذاهبهم.

٣- والسؤال: أيهما أحكم وأضبط لدين الله تعالى:

(أ): أن ترث الأمة كتابًا إلهيًا تشريعيًا واحدًا محفوظا بحفظ الله له.

(ب): أم ترث كتابًا إلهيًا واحدًا ومعه مئات الكتب يدعي أصحابها أنها التي حملت «السُنّة النبوية» التي يكفر منكرها؟!

(ج): وإذا كان «الكتاب والسُنّة» وحيًا إلهيًا فهل يختلف «المعلوم من الدين بالضرورة» بالنسبة لـ «الكتاب» القطعي الثبوت عن الله، عن «المعلوم من الدين بالضرورة» بالنسبة لـ «السُنّة» الظنية الثبوت عن رسول الله؟!

٤- كيف تكون مرجعية «المعلوم من الدين بالضرورة» هي «التراث الديني المذهبي» للفرق الإسلامية المتخاصمة المتصارعة المتقاتلة، ويُحكم على منكره بـ «الكفر»، ولا يُحكم بـ «الكفر» على الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، الذين قال الله تعالى لهم «آل عمران / ١٠٢-١٠٥»:

(أ): «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ – اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ – وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ»

(ب): «وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ ... كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»

(ج): «وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ – وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ – وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ – وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»

(د): «وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ – مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ – وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»

ألا يُعتبر عدم التزام ٩٩٪ من المسلمين بما أمرهم الله به، ونهاهم عنه، في الآيات السابقة، إنكارًا لما هو «معلوم من الدين بالضرورة»، وازدراءً لـ «دين الإسلام»، وعليهم إعادة الدخول في «دين الإسلام» من بابه الصحيح؟!

مفهوم الكفر بين الدين الإلهي والدين السلفي

تأتي كلمة «الكُفر» ومشتقاتها، في اللسان العربي والسياق القرآني بمعنى الستر والتغطية والمحو:

«كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ – لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ»

قال «الفراهيدي – ت ١٧٤هـ» في «كتاب العين»:

«وكل شيء غطى شيئًا فقد كفره»

قال «ابن فارس – ت ٣٩٥هـ» في «مقاييس اللغة»:

«هو الستر والتغطية»

وقال «ابن منظور – ت ٧١١هـ» في «اللسان»:

«والكفارة هي الفعلة والخصلة التي من شأنها أن تُكفر الخطيئة أي تمحوها وتسترها»

أولًا:

لماذا يخاف الناس من «الكفر» وهم يعيشون في بيئته ويقومون بـ تفعيله في حياتهم، وكل «فرقة» تُكفّر الأخرى، وكل مذهب من مذاهب الفرقة الواحدة يرفع سلاح «التكفير» في وجه المذاهب الأخرى؟!

١– إن الناس يختلفون في الملل والأفكار والقرارات، وعندما يتعلق الخلاف بـ «الملل الدينية» فإنه ينطلق من «منظومة تكفيرية» يرى فيها كل صاحب مذهب أنه على الحق، ويستر أو يمحو آراء واجتهادات المذاهب الأخرى.

٢– لذلك فإن الناس لا تخاف «التكفير» في حد ذاته، لأنه واقع بينهم بصوره المختلفة، وإنما يخافون من «العقوبات» التي فرضها «الفقه السلفي» على الناس كـ «القتل على الهوية»، ونقلها علماء الخلف عن السلف بـ «غير علم»، حتى أصبح العالم ينظر إلى «دين الإسلام» نظرة تخوف وحذر.

٣– إن المتدبر للقرآن، الباحث عن مفهوم كلمة «الكُفر» في سياق آياته، لن يجد أي عقوبة ينفذها البشر على «الكافر» سواء كان كفره يتعلق بـ «أصول الإيمان» أو بـ «أحكام القرآن»، وإنما يجد عقوبة في الدنيا ينزلها «الله تعالى وحده» على الكافرين:

يقول الله تعالى «آل عمران / ٥٦»:

«فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا – فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا – فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ – وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ»

يقول الله تعالى «الأنعام / ٦٥»:

«قُلْ هُوَ الْقَادِرُ – عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا – مِّن فَوْقِكُمْ – أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ – أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا – وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ – انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ – لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ»

يقول الله تعالى «التوبة / ٥٥»:

«وَلَا تُعْجِبْكَ – أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ – إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا – فِي الدُّنْيَا – وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ – وَهُمْ كَافِرُونَ»

ثانيًا:

إن المتدبر للسياق القرآني يعلم أن «الكفر» موقفُ إيماني يتخذه المرء عن قناعة ذاتية بما يؤمن به ويخالف فيه غيره، وقد يحدث هذا الموقف بصفة مؤقتة أو دائمة، فالذي يخالف الآخرين في آرائهم «كافر» بآرائهم وهم أيضا «كافرون» بآرائه، فإذا تغيرت الآراء واقتنع أحدهم برأي الآخر خرج من «الكفر» إلى «الإيمان».

١- إن الذي يُصر على معصية ربه، ولا يعمل بأحكام القرآن، «كافر» بربه وبأحكام القرآن، فإن تاب وأناب خرج من الكفر إلى الإيمان، ويغفر الله سيئاته «يُكَفِّر عنه سيئاته»:

يقول الله تعالى عمن آمن ودخل في دين الإسلام «التغابن / ٩»:

«وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ – وَيَعْمَلْ صَالِحًا – يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ – وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ»

ف مفهوم «الكفر» يتوقف على طبيعة الشيء الذي يستره ويُخفيه، وهل هي حالة مؤقتة ثم خرج المرء منها وتاب وأناب إلى ربه، أم هو موقف دائم من أحكام القرآن يُصر المرء عليه؟!

٢- إن الذي يُخفي دلائل «الوحدانية» ولا يعمل بـ «مقتضياتها» كافرٌ بـ الله وبـ الوحدانية، والذي يخفي «أحكام القرآن» ولا يعمل بها كافر بالله وبـ أحكام القرآن، ذلك أن الإقرار بـ «أصول الإيمان» لا ينفصل عن العمل بـ «مقتضياتها»، والعقوبة تكون في الآخرة.

٣- والذي لم يلتزم بـ «أحكام القرآن» لفترة ثم تاب وأناب إلى ربه ولم يصر على كفره، فمثل هذه الحالات قد خرج من حالة الكفر إلى حالة الإيمان، ويُكفِر الله عنه سيئاته، ويعيش ويموت مسلما، يقول الله تعالى «آل عمران / ١٣٥-١٣٦»:

«وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً – أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ – ذَكَرُواْ اللّهَ – فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ – وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ – وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ – وَهُمْ يَعْلَمُونَ – أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم – مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ – وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا – وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ»

٤- وقد يتقلب المرء بين الإيمان والكفر، ثم يقذف به الشيطان في دوّامة الإصرار على الكفر، فيموت كافرًا ويكون عقابه في الاخرة:

يقول الله تعالى «البقرة / ١٦١»:

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا - وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ - أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ - وَالْمَلَائِكَةِ - وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»

تدبر قوله تعالى: «وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ»

ويقول الله تعالى «النساء / ١٣٧»:

«إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ - ثُمَّ كَفَرُواْ - ثُمَّ آمَنُواْ - ثُمَّ كَفَرُواْ - ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً - لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ - وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً»

ثالثًا:

من حق الإنسان أن يكفر بملة الآخر ويموت على ذلك، والآيات السابقة من البراهين قطعية الدلالة على أن قتل الكافر بسبب كفره بملة الآخر مُحرم شرعًا، إلا إذا صاحب هذا الكفر الاعتداء على «الذين آمنوا» فهنا تكون العقوبة حسب طبيعة الاعتداء:

يقول الله تعالى «البقرة / ١٩٤»:

«... فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ - فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ - بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ - وَاتَّقُواْ اللّهَ - وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ»

١- فلماذا ينزعج الناس من مسألة «التكفير» عندما لا يصاحبه اعتداء، خاصة وأن «منظومة التكفير» تشمل الناس جميعًا في مواقفهم العقدية المختلفة، ويوم القيامة سيتبرأ المتبوعون من التابعين ويكفرون بعقائدهم:

يقول الله تعالى «العنكبوت / ٢٥»:

«ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ - وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا»

ويقول الله تعالى عن تبرؤ الشيطان «إبراهيم / ٢٢»:

«وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ - إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ»

«وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي»

«فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ»

«إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ - إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»

٢- إن جميع الآيات التي ورد في سياقها قتل الكافرين لم يكن القتل بسبب «الكفر» وإنما بسبب الاعتداء على المسلمين:

يقول الله تعالى «التوبة / ١٣»:

«أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا - نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ - وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ - وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ»

تدبر قوله تعالى: «وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ»

ويقول الله تعالى «البقرة / ١٩١»:

«وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ»

تدبر هذه الجمل:

«مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ - وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ ... حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ - فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ».

ويقول الله تعالى «النساء / ٨٩-٩٠»:

«وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً - فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ - فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ - وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا»

٣- وهنا يجب أن نتوقف عند الآية «النساء / ٨٩» لأن أئمة السلف والخلف أخرجوها من سياقها، واعتبروها دليلا على قتل الكافر بسبب كفره، والحقيقة أن الآية التالية لها «النساء / ٨٩» تُبيّن أن الكافرين هم الذين اعتدوا أولًا على المسلمين، فيقول الله تعالى:

«إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ - أَوْ جَاؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ - أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ - وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ - فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ - وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ - فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً»

إن المتدبر للسياق يعلم أن الآيات تتحدث عن الأعمال الإجرامية التي يرتكبها المنافقون ووقوفهم مع المعتدين في محاربة المسلمين، وهذا ما بينته الآية «النساء / ٨٨» حيث يقول الله تعالى:

«فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا»

وقد فصّل الله هذا الكسب «بِمَا كَسَبُوا» في قوله تعالى بعد ذلك «الآية ٩٠»:

«فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ - فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ - وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ - فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا»

تدبر قول الله تعالى: «فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ».

ثم يقول الله تعالى بعد ذلك «الآية ٩١»:

«فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ – وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ – وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ – فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ»
تدبر قول الله تعالى: «فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ – وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ».

رابعًا:

إن أحكام القتال تدور جميعها حول محور واحد هو «الحرب الدفاعية» لا أن يقاتل المسلمون الناس للدخول في «دين الإسلام».

١– إن المتدبر لآيات سورة التوبة يعلم أن السياق من بدايتها يتحدث عن نقض المشركين «العهود» وقتالهم المسلمين، فأعطاهم الله مهلة «أربعة أشهر» يلتزمون خلالها بـ «العهود»، وإلا فليستعدوا للقتال، والسبب ذكره الله تعالى في الآية «التوبة / ٨»:

«كَيْفَ – وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ – لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً – يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ – وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ»

وقال الله تعالى «التوبة / ١٠»:

«لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً – وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ»

«وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ»: هذا هو مفتاح فهم الآيات.

٢– ويستمر الحديث عن المشركين حتى قول الله تعالى «التوبة / ٢٨»:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا – إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ»

ثم يتحول الخطاب إلى الأمر بقتال فريق من «الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ»، حتى «يُعْطُوا الْجِزْيَةَ»، فقال الله تعالى «التوبة / ٢٩»:

«قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ – وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ – وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ – مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ – حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ»

والسؤال:

لماذا ذُكر قتال «الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» في سياق الحديث عن المشركين؟!

الجواب:

يقول الله تعالى «التوبة / ٤»:

«إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ – ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا – وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا – فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ – إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ»

فمن شروط الوفاء بالعهود، ألا يتحالف المشركون مع أحد ضد المسلمين، لقول الله تعالي:

«وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا»

فذكر «الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» في هذا السياق يعني أنهم تحالفوا مع المشركين للاعتداء على المسلمين وأصبحوا في خندق واحد هو خندق:

«الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ»

٣- وكيف يتحالف «المشركون»، الذين لا ملة لهم ولا دين، مع الذين «أوتوا الكتاب» مما جعلهم يخضعون لحكم الجزية:

«حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ - عَن يَدٍ - وَهُمْ صَاغِرُونَ»؟!

إن مسألة «الجزية» لا يمكن فصلها عن سياق الآيات «التوبة / ١-٢٨» التي تحدثت عن نقض المشركين العهود والمواثيق، كما لا يمكن فصلها عن «الجزية» التي كانت معروفة عن العرب من قبل بعثة رسول الله محمد، ولذلك جاءت معرفة بأل التعريف «حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ» أي الجزية التي تعرفونها.

٤- لقد كانت العرب تعلم أن «الجزية» عقوبةٌ ماليةٌ تُدفع في حالة مخالفة شرط من الشروط المنصوص عليها في المواثيق والعهود المبرمة بين طرفين، فهي فعلة من «الجزاء» كما ذكر ذلك «ابن منظور» في «لسان العرب».

(أ): إن تحالف فريق «مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» مع المشركين للاعتداء على المسلمين يُخالف شرط: «وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا»

فكان عليهم دفع «الجزية» المنصوص عليها في المعاهدات عقوبة لهم على هذا التحالف.

(ب): ولم يكن الأمر بقتالهم لأنهم رفضوا الدخول في الإسلام، كما يدعي أئمة السلف، وإنما لأنهم اعتدوا على المسلمين.

(ج): إن أحكام القرآن يستحيل أن تُغير موقفها من مبدأ «السلام» مع أهل الملل الأخرى، ولا تُجبرهم على الدخول في «دين الإسلام» بأي صورة من الصور، لأن القاعدة التي قامت عليها هذه الأحكام هي: «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ».

(د): ونلاحظ أن الله تعالى لم يقل «قاتلوهم حتى يسلموا» وإنما قال: «حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ» أي أن عليهم أن يختاروا بين «القتال» أو دفع «الجزية»، وليس بين «القتال» أو «الدخول في الإسلام».

(هـ): ولذلك أحاط الله حكم إعطاء «الجزية» بقيدين:

الأول: «عَن يَدٍ»:

لبيان قوة وقدرة الجيش المسلم على القتال وعلى إبادة المعتدين، وسيقبل «الجزية» إن أراد المعتدي إعطاءها احتراما للعهود المتفق عليها.

الثاني: «وَهُمْ صَاغِرُونَ»:

والصغار والصغر ضد الكبر، والمراد هنا شعور المعتدي بانكسار شوكته، واضطراره أمام قوة الجيش المسلم إلى دفع «الجزية» وهو خاضع لـ «أحكام القرآن».

وليس المراد، كما يدعي أئمة السلف والخلف، تحريض المسلمين على امتهان كرامة «الذين أوتوا الكتاب» وإذلالهم أثناء إعطائهم «الجزية».

لقد مُلئت أمهات كتب الفرق والمذاهب المختلفة بأحكام وفتاوى التكفير التي شملت أصول الدين وفروعه، وسفكت ومازالت تسفك الدماء بغير حق بسبب هذه المنظومة التراثية التكفيرية، التي حملها المصدر الثاني للتشريع الذي يستحيل أن يكون هو «السُنّة النبوية» التي أمر الله تعالى الذين آمنوا باتباعها.

وهل يمكن أن يتحول «الذكر الحكيم» إلى مرويات؟!

لقد نزل القرآن الكريم، بمنهجه القويم، يحمل حجيته في ذاته، وفق دواعي الحق التي اقتضت نزوله، فكان حقا في نزوله، وحقا في موضوعه، وحقا في منهجه الهادي إلى صراط الله المستقيم، وشفاءً من أمراض القلوب وعلل الأبدان، ورحمةً للمؤمنين، يقول الله تعالى «الإسراء / ٨٢»:

«وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ – مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ – وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً»

ويقول الله تعالى «الإسراء / ١٠٥»:

«وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ – وَبِالْحَقِّ نَزَلَ – وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً»

فهل يمكن أن يترك الله الحق المنزل يأتيه الباطل وهو عز وجل القائل:

«وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ»؟!

هل يمكن أن يُنزل الله على رسوله نصًا تشريعيًا غير الحق المنزّل، ويتركه يأتيه الباطل على أيدي رواة الفرق والمذاهب المختلفة، وقد بيّن عز وجل بعد ذلك مباشرة أن هذا الحق هو «القرآن»:

«وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ – لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ – وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً»؟!

وقال الله تعالى في موضع آخر «الزمر / ٢»:

«إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ – فَاعْبُدْ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ»؟!

فـ «الكتاب» الذي حمل الآيات المكتوبة نزل بـ «الحق»، و«القرآن» الذي حمل الآيات المقروءة نزل بـ «الحق»، وهذا «الكتاب» الذي هو نفسه «القرآن» قد حمل «الآية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد:

فأين مكان «مرويات» رواة الفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة في هذا السياق المحكم الذي يستحيل أن «يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ» لأنه «تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»؟!

كيف يمكن أن تحمل «مرويات الرواة» أحكام الشريعة الإلهية وقد آتاها الباطل من بين يديها ومن خلفها، والله تعالى يقول «النساء / ١٠٥»:

«إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ – لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ – بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ – وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً»؟!

إن الذي أراه الله لرسوله، ليحكم به بين الناس، يستحيل أن يخرج عن «آيات الكتاب» الذي نزل بالحق «أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ»، وهذا معنى قول الله تعالى «الرعد / ٣٧»:

«وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً – وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ – بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ – مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ»

إن قول الله تعالى «حُكْماً عَرَبِيّا» وصفٌ لـ «الكتاب المنزل» وليس لـ «أحكام الكتاب» فقط، بقرينة كلمة «العلم» في قوله تعالى بعد ذلك «بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ» والذي يشمل «الكتاب كله»، ويستحيل أن تكون «مرويات الرواة» من «العلم» الذي أنزله الله على رسوله؟!

أولًا:

إن حجية نصوص الشريعة الإلهية لا تخضع لاجتهادات البشر ومدارسهم المذهبية في الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف لأنها تقوم على تدوين «كلام الله» فور تنزيله، فكيف يصف الله تعالى المنزل بـ «الكتاب» وهو لم يدوّن في حياة الأنبياء:

يقول الله تعالى «البقرة / ٢١٣»:

«كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً – فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ – وَأَنزَلَ مَعَهُمْ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ – لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ»

١– لقد حذر الله تعالى أتباع الرسل من نسبة أي قول إلى الله لم يقم البرهان قطعي الثبوت على أنه من عند الله، يقول الله تعالى «البقرة / ٧٩»:

«فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ – ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ – لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً – فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ – وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ»

لذلك أمر الله رسوله محمدا، عليه السلام، أن يدون نصوص آيته القرآنية في كتاب، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وجعله حجة على الناس إلى يوم الدين، ولم يجعل ذلك لغيره من الكتب التي نسبها الرواة والقصاصون إلى الأنبياء والرسل، ثم ادعوا أنها الوحي المكمل والمبين لأحكام الكتاب.

إن الذي يرثه المسلمون جيلا بعد جيل هو «كتاب الله»، فهل بيّن الله أن أتباع النبي الخاتم، يرثون كتابا مع «كتاب الله»، يحمل أحاديث النبي، باعتبارها «السنة النبوية» التي يكفر منكرها؟!

الجواب:

إن الدليل الذي نملكه، والذي نص عليه الله تعالى في كتابه، بالدلالة القطعية، أن الذي يرثه المسلمون إلى يوم الدين، هو الكتاب الذي أنزله على رسوله محمد، عليه السلام:

يقول الله تعالى «فاطر / ٣٢»:

«ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ – الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا – فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ – وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ – وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ – ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ»

٢– إن «كتاب الله» هو المرجعية الإلهية التي أمر الله رسوله محمدًا والناس جميعًا التمسك به دون غيره من المرجعيات التي تحمل أسماء أصحابها:

يقول الله تعالى «الزخرف / ٤٣–٤٤»:

«فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ»

«وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ»

٣– ولم يأمر رسول الله محمد، عليه السلام، المسلمين التمسك بغير «كتاب الله»:

يقول الله تعالى «الأنعام / ١١٤»:

«أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً – وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمْ – الْكِتَابَ مُفَصَّلاً»

ثانيًا:

ولقد نزل القرآن يكشف التحريف الذي أصاب الكتب التي نسبها أصحابها إلى الله تعالى وإلى أنبيائه، ولذلك يستحيل أن يكون القرآن هو رسالة الله للناس جميعًا إلى يوم الدين ويتركه الله للناس يُبدّلون آياته ويُحرّفون أحكامه، كما فعل أتباع الكتب السابقة، فكانت أول خطوة في حفظ الله تعالى لـ «الذكر» هي تدوين آياته في كتاب.

١- إن «كتاب الله» هو الكتاب الوحيد الذي يرثه المسلمون جيلا عن جيل محفوظًا بحفظ الله له، والذي لا يحمل أي دليل يثبت أن الله تعالى أوحي إلى رسوله محمد كتابًا ثانيًا باسم «الأحاديث النبوية» يكفر منكرها.

٢- إن «كتاب الله» هو الكتاب الوحيد الذي حمل «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، عليه السلام، والذي يكفر منكره.

٣- إن «كتاب الله» هو الكتاب الوحيد الذي يحرم الكفر أو الاستهزاء بآياته:

يقول الله تعالى «النساء / ١٤٠»:

«وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ - أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ - يُكْفَرُ بِهَا - وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا - فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ - إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ - إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ - الْمُنَافِقِينَ - وَالْكَافِرِينَ - فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً»

٤- إن «كتاب الله» هو الكتاب الوحيد الذي أحكمت آياته:

يقول الله تعالى «هود / ١»:

«الر - كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ - ثُمَّ فُصِّلَتْ - مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ»

٥- إن «كتاب الله» هو الكتاب الوحيد القادر على إخراج الناس من الظلمات إلى النور:

يقول الله تعالى «إبراهيم / ١»:

«الر - كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ - لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ - إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ»

٦- إن «كتاب الله» هو الكتاب الوحيد الذي سيكون موضوع «شهادة الرسل» يوم القيامة:

يقول الله تعالى «النحل / ٨٩»:

«وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ - شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ - وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاء - وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ - وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ»

ثالثًا:

إن موضوع شهادة الرسل يوم القيامة على نصٍ كان حاضراً أمام أقوامهم يعلمون حدوده وعدد كلماته، على «كتاب إلهي» حمل آيات الذكر الحكيم، وليس على «كتاب بشري» لم يكن موجودًا في حياة الرسل ودوّنه المحدثون بعد وفاتهم بقرون من الزمن.

١- ولقد بيّن الله تعالى خصائص هذا «الكتاب الإلهي» في كثير من الآيات القرآنية:

يقول الله تعالى «آل عمران / ٧»:

«هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ – مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ – هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ – وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ»

يقول الله تعالى «النحل / ١٠٢»:

«قُلْ نَزَّلَهُ – رُوحُ الْقُدُسِ – مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ – لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا – وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ»

يقول الله تعالى «الزمر / ٢٣»:

«اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ – كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ – تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ – ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ»

يقول الله تعالى «الجاثية / ٦»:

«تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ – فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ»

٢– فكيف يكون «كتاب الله» هو الهادي إلى صراط الله المستقيم ثم يأتيه العوج؟!

يقول الله تعالى «الكهف / ١»:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ – وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا»

وكيف يشتكي رسول الله هجر قومه للقرآن، وأن الشيطان كان له دور في ذلك، ثم يترك الله تعالى القرآن لشياطين الإنس والجن يحرفون آياته:

يقول الله تعالى «الفرقان / ٢٧–٣٠»:

«وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ – يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً»

«يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً– لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي»

«وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً»

«وَقَالَ الرَّسُولُ – يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي – اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً»

٣– ولذلك لا يصح إسلام المرء إلا إذا كان على علم بطبيعة «الوحي الإلهي» وخصائصه، وأنه يستحيل أن يُنزل الله على رسوله نصوص شريعة على غير صفة الحق الذي نزل به القرآن:

يقول الله تعالى «آل عمران / ١٨–١٩»:

شَهِدَ اللّهُ – أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ – وَالْمَلاَئِكَةُ – (وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ) – قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ – لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»

ثم تدبر ماذا قال الله تعالى بعد ذلك:

«إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ – وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ – إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ (الْعِلْمُ) بَغْياً بَيْنَهُمْ – وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ – فَإِنَّ اللهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ»

ويقول الله تعالى «الرعد / ١٩»:

«أَفَمَنْ يَعْلَمُ – أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ – كَمَنْ هُوَ أَعْمَى – إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ»

رابعًا:

لقد حدد الله تعالى طبيعة الوحي المنزل على رسوله كمًا وكيفًا بحيث يستطيع أي إنسان أن يتعرف بعضه من كله، فقال تعالى «هود / ١٢»:

«فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ – وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ – أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ – أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ – إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ – وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ»

تدبر قول الله تعالى:

«تَارِكٌ (بَعْضَ) مَا يُوحَى إِلَيْكَ»

إذًا يستحيل تحريف أو تبديل أو تغيير أي جزء من «الكل».

١– قالوا: إن قول الله تعالى «الزخرف / ٤٣»:

«فَاسْتَمْسِكْ – بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ – إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ»

يتحدث عن «الوحي» بوجه عام، ومنه وحي «السُنّة النبوية» القولية والفعلية والتقريرية.

أقول:

لقد أعطوا ظهورهم لقول الله بعد ذلك، محددًا ومبينًا ما هو هذا الوحي، فقال تعالى:

«وَإِنَّهُ – لَذِكْرٌ لَّكَ – وَلِقَوْمِكَ – وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ»

فكيف يخفى على أئمة السلف والخلف وصف «الوحي» بـ «الذكر» الذي تعهد الله بحفظه فقال تعالى «الحجر / ٩»:

«إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»؟!

٢– إن الحديث عن وجود «نص تشريعي» مدون في كتاب غير القرآن يدعى أئمة السلف والخلف أنه «السُنّة النبوية» لا أساس له من الصحة لاستحالة أن ينقسم الوحي المدون في «كتاب» إلى وحيين، وحي يحفظه الله تعالى، ووحي يحفظه المحدثون كلٌ حسب مذهبه في الجرح

والتعديل والتصحيح والتضعيف، ولقد حصر الله «النص» التشريعي «الإلهي» في وحي «الكتاب» فقط، قال تعالى «الأعراف / ١٧٠»:

«وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ - بِالْكِتَابِ - وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ - إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ»

وعند بيان الله تعالى لطرق «كلام الله» مع البشر، لم يكن من بين هذه الطرق وحي «السُنّة النبوية» التي دوّنت «مروياتها» بعد وفاة النبي بقرن من الزمن على أقل تقدير:

يقول الله تعالى «الشورى / ٥١-٥٢»:

«وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ - أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ - إِلاَّ وَحْياً - أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ - أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً - فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ - إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ»

فـ «كلام الله» مع البشر، إما أن يكون وحيًا، أو من وراء حجاب، أو بإرسال ملك، ولقد بيّن الله أن الكلام مع رسوله محمد كان وحيًا عن طريق «جبريل» فقال تعالى:

«وَكَذَلِكَ - أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ - رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا»

ثم حدد الله طبيعة هذا «الوحي» بقوله تعالى:

«مَا كُنْتَ تَدْرِي - مَا الْكِتَابُ - وَلا الإِيمَانُ - وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ - نُوراً نَهْدِي بِهِ - مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا - وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»

٣- وخير برهان على أن هذا «الوحي» كان عن طريق «جبريل» هو قول الله تعالى «الشعراء / ١٩٢-١٩٥»:

«وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ - نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ - عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ - بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ»

«الرُّوحُ الأَمِينُ»: هو «جبريل» لقول الله تعالى «البقرة / ٩٧»:

«قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ - فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ - بِإِذْنِ اللَّهِ - مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ - وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ»

٤- ولا شك أن هناك طرقًا أخرى لـ «كلام الله» مع رسوله محمد غير «الوحي القرآني» ولكنها تتعلق فقط بمواقف وأحداث عصر التنزيل، فقد يسبق نزول «القرآن» إعلام النبي بشيء يتعلق بهذه المواقف، وما شاء الله أن يتضمنه «القرآن» من هذه المواقف ينزل به «الوحي القرآني».

فإذا نقل الصحابة تفصيلات مواقف وأحداث عصر التنزيل، وتداولتها الألسن على مر العصور، ونقلها عنهم آخرون، ثم جاء عصر التدوين، ودوّنها المحدثون كلٌ حسب مدرسته في الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف، فكيف تكون وحيًا تشريعيًا إلهيًا؟!

(أ): يقول الله تعالى «الأنفال / ٤٣»:

«إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً – وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً – لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ – وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ – إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ»

لقد أرى الله تعالى نبيه محمداً رؤيا منامية، ثم نزلت الآية بموضوع هذه الرؤيا والعبرة منها، ودون بيان تفصيلي لها، وقد يحكى النبي، عليه السلام، تفصيلات هذه الرؤيا لصحبه، وقد تنتشر بينهم، ثم تتناقلها الأجيال ك «روايات» لم يتعهد الله بحفظها، وليس ك «آيات» تعهد الله بحفظها.

(ب): يقول الله تعالى «الفتح / ١٥»:

«سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ – إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا – ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ – يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ – قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا – كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ – فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا – بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً»

لقد أعلم الله تعالى رسوله محمدًا بحال هؤلاء المنافقين، وأمره ألا يسمح لهم بالخروج معه، ويتضح من سياق الآية أن حوارًا حدث أولًا بينهم وبين الرسول، ثم أنزل الله بعده «وحيًا قرآنيًا» بما شاء أن يتضمنه «القرآن» من أحداث عصر التنزيل.

خامسًا:

لقد مكث رسول الله عمره بين قومه، فهو صاحبهم الذي عرفوه جيدًا، وعرفوا حديثه وعلموا أسلوبه، فلماذا لم يصدقوه واتهموه بالضلال والغواية؟!

يقول الله تعالى «النجم / ١–٥»:

«وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى – مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى – وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى – إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى – عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى»

١– لم تكن أحاديث النبي في يوم من الأيام موضع اتهام أو تكذيب أو إعراض من قومه، سواء كان ذلك قبل بعثته أو بعدها، فمتى حدث هذا التكذيب وهذا الإعراض، وإلى أي شيء يعود الضمير «هو» في قول الله تعالى:

«إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى»؟!

إن الذين جعلوا الضمير يعود إلى كل ما خرج على لسان النبي قد افتروا على الله ورسوله الكذب، وجعلوا «الرواية البشرية» حاكمة على «الآية الإلهية»، وحرّفوا كلام الله لخدمة مذاهبهم العقدية والفقهية، وسفكوا الدماء بغير حق، تحت راية:

«إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى»

إن الضمير «هو» عائد إلى المنطوق به، ورسول الله لم يتهم بالضلال والغواية إلا عندما نطق بـ «القرآن» وأعلن أنه رسول رب العالمين، فنزل «القرآن» يُبيّن أنه لم ينطق بهذا «القرآن» عن هواه:

«وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى»

وإنما عن وحي من الله تعالى:

«إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى»

٢- لقد كانت تصرفات النبي اليومية، غير «الوحي القرآني»، تخضع لـ «بشرية الرسول»، وقد أشار القرآن إلى ذلك في كثير من الآيات:

يقول الله تعالى «آل عمران / ١٦١»:

«وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ - أَن يَغُلَّ - وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»

يقول الله تعالى «الأنفال/ ٦٧»:

«مَا كَانَ لِنَبِيٍّ - أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى - حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ - تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا - وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ»

يقول الله تعالى «الأحزاب/ ١»:

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ - اتَّقِ اللَّهَ - وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ».

٣- ولقد أفشت إحدى أزواج النبي حديثا دار بينها وبينه، ثم انتشر هذا الحديث بين أهل البيت، ولا شك أنه قد أخذ مساحة زمنية يتداول فيها، ثم أعلم الله النبي بما حدث، وأنزل بعدها «وحيًا قرآنيًا» بما شاء الله أن يشمله «القرآن» من أخبار عصر التنزيل:

يقول الله تعالى «التحريم/ ١-٣»:

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ - لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ - تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ - وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ... وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً»

«فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ - وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ - عَرَّفَ بَعْضَهُ - وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ - فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ - قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا - قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ»

لقد «نبأ» الله تعالى رسوله بما حدث من بعض أزواجه «نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ»، وذلك بطريقة من طرق الكلام غير «الوحي القرآني».

فهل إذا تداول الصحابة تفصيل هذه القصة، نقلا عن أزواج النبي أو عن النبي، ثم تناقلتها ألسن الصحابة والرواة حتى وصلت إلى عصر التدوين، ودوّنها «المحدثون» في الكتب، هل تصبح نصًا تشريعيًا إلهيًا واجب الاتباع:

إذًا فكيف يكون كل ما نطق به النبي وحيًا إلهيًا «وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى»؟!

٤- إن اللافت للنظر، أن «الهوى المذهبي» كان حاكمًا على فهم أئمة السلف للنص القرآني، ذلك أن الله تعالى لم يخاطب أصلاً بآيات سورة النجم «المؤمنين» وإنما خاطب «المكذبين» الذين لم تكن قضيتهم مع رسول الله «أحاديثه» وإنما كانت ما «نطق» به من «قرآن» وقال إنه من عند الله تعالي.

وعلى أساس هذا «الهوى المذهبي» تحول «حديث النبي»، الذي خرج علي لسانه في عصر التنزيل، إلى «روايات» خضعت للتصحيح والتضعيف عن طريق مذاهب علماء الجرح والتعديل المختلفة، فهل يمكن أن تكون هذه «الروايات» من «الوحي الإلهي» واجب الاتباع والذي يكفر منكره؟!

سادسًا:

١- كيف يُؤتي الله تعالى النبي مثل القرآن، كما يدّعون، وينسبون إليه أنه قال:

«ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»

وهم يقصدون بالمثل، «مرويات» الفرق والمذاهب المختلفة، والله تعالى يقول «الإسراء / ٨٨»:

«قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ - عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ - لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ - وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً»؟!

٢- ثم كيف يأمر الله تعالى الناس باتباع أحسن ما أُنزل إليهم وهو القرآن الكريم:

يقول الله تعالى «الزمر / ٥٥-٥٩»:

«وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ - مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ العَذَابُ بَغْتَةً - وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ - أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ - وَإِنْ كُنْتُ لَمِنْ السَّاخِرِينَ»

«أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى علَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ... بَلَى قَدْ جَاءتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ»

ثم يتهم أئمة السلف والخلف الله تعالى بأنه أنزل على رسوله أسوأ ما أنزل، وهو كتب المحدثين التي حملت «مرويات» رواة الفرق والمذاهب العقدية والفقهية المختلفة؟!

٣- وهل عندما طلب الكافرون من رسول الله، عليه السلام، أن يأتيهم بآيات حسية:

«وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ - قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ - وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ»

هل أجاب الله تعالى طلبهم؟! لا لم يجبهم، لماذا؟!

لأن عصر «الآيات الحسية» انتهى، وجاء عصر «الآية القرآنية العقلية»:

فقال الله تعالى:

«أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ - أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ - يُتْلَى عَلَيْهِمْ»

«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً - وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»

إن قول الله تعالى «أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ» بيان واضح بأن عصر التنزيل لم يشهد نصًا تشريعيًا إلهيًا غير الكتاب:

«أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ»

فهل يُعقل، بعد هذا البيان القرآني، أن يُنزّل الله تعالى نصًا تشريعيًا ثانيًا، يُفسر آيات الكتاب ويستكمل ما نقص من أحكامه؟!

٤- ثم على فرض أن مشيئة الله تعالى اقتضت إنزال نص تشريعي غير كتاب الله باسم «السُنّة النبوية»، فهل يُعقل أن يحفظ الله النص الأول «كتاب الله» ويسند حفظ النص الثاني «السُنّة النبوية» لـ «المحدثين» كلٌ حسب مدرسته في الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف؟!

ألم يأت «مرويات السُنّة النبوية» الباطل من بين يديها ومن خلفها؟!

ومع ذلك يُصر أئمة السلف وعلماء الخلف، على أن كل من «آمن» برسول الله محمد، وأنه مرسل إلى الناس كافة، أن يعلم أن من لوازم هذا «الإيمان» الإقرار بحفظ الله لـ «السُنّة النبوية» على أيدي جهابذة «علم الحديث» استنادًا إلى قول الله تعالى «الحجر / ٩»:

«إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ - وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»

والسؤال:

(أ): إذا كان «الذكر» المقصود في الآية هو «الكتاب والسُنّة»، فلماذا تكفل الله تعالى بحفظ «الكتاب» ولم يتكفل بحفظ «السُنّة»، والمصدران كما يدّعون «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى»؟!

(ب): قالوا: لو كان المراد بـ «الذكر» القرآن وحده لاستخدم السياق كلمة «القرآن» كما استخدمها في مواضع كثيرة كقول الله تعالى: «إن هذا القرآن» - «بل هو قرآن مجيد»، ويعتبرون ذلك دليلًا على حجية السُنّة بدعوى أن حفظ «الذكر» يقتضي حفظ «المبيّن له».

سابعًا:

إن «الذكر» ليس كلمة تُقرأ «قرآنًا» أو تُكتب في «كتاب» وإنما هو معنى «يُفهم»، وهذا المعنى لا يُفهم ولا يتذكره الإنسان إلا إذا عُرف «مُسَمَّى» الكلمة القرآنية الموجود خارج القرآن وحملته «منظومة التواصل المعرفي» لشعوب العالم.

١- ولقد حفظ الله القرآن ويسره للتذكر والمذاكرة عن طريق ما أسميه بـ «المقابل الكوني» الذي حملته «منظومة التواصل المعرفي» لشعوب العالم.

يقول الله تعالى «القمر / ١٧»:

«وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ - لِلذِّكْرِ - فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ»

«المدَّكِر»: الذي يبحث عن الدليل ويتذكره لأخذ العبرة، يقول الله تعالى عن سفينة نوح عليه السلام:

«وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا (آيَةً) فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ»

لقد جعل الله تعالي سفينة نوح «آية» يتعلم الناس منها الدرس والعبر والعظات.

٢- والقرآن الذي يسره الله تعالى لـ «الذكر» يحمل «آية عقلية» تفوق آيات الرسل جميعًا، ولكنها ليست في كلماته فقط وإنما في تفاعلها مع «مقابلها الكوني» الموجود خارج القرآن، وهذا معنى قول الله تعالى «ص / ١»:

«ص - وَالْقُرْآنِ - ذِي الذِّكْرِ»

ثم قوله تعالى «ص / ٢»:

«بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا - فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ»

فالله تعالى يخاطب الكافرين بـ «القرآن» الذين لم يقفوا على تفاعل كلمات آياته مع «مقابلها الكوني» في الآفاق والأنفس ولذلك لم يتبين لهم أنه «الحق»:

يقول الله تعالى «فصلت / ٥٣»:

«سَنُرِيهِمْ - آيَاتِنَا - فِي الْآفَاقِ - وَفِي أَنفُسِهِمْ - حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ - أَنَّهُ الْحَقُّ»

«أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ - أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»؟!

٣- عندما يصف الله تعالى التنزيل الحكيم بـ «الذكر»، ويخاطب به أهل «اللسان العربي»، فلا شك أنهم يعلمون أن «مدلول» هذه الكلمة غير مدلول «الكتاب» غير مدلول «القرآن» وأنه الذي يربط «الدال» بـ «المدلول» أي الكلمة بـ «مُسَمَّاها» و«مقابلها الكوني».

(أ): ولذلك عندما خاطب الله تعالى المنافقين والمكذبين لـ «نبوة» رسول الله محمد، عليه السلام، قال لهم «محمد / ٢٤»:

«أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا»

(ب): ويستحيل أن يتحقق «التدبر» بمعزل عن تفعيل آليات التفكر والتعقل والتدبر والتفقه والنظر... آليات عمل القلب، للوقوف على تفاعل كلمات التنزيل الحكيم مع «مقابلها الكوني» في الآفاق والأنفس:

يقول الله تعالى «الواقعة / ٥٧-٧٤»:

«نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ - أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ - أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ...»

«أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ - أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ...»

«أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ - أَأَنْتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنْ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ...»

«أَفَرَأَيْتُمْ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ - أَأَنْتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ»

«نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً - وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ»

«فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ»

(ج): إنها آيات الآفاق والأنفس، فانظر إلى العلاقة بين كلمة «تَذْكِرَةً» وقول الله تعالى «الحجر / ٩»:

«إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»

وقول الله تعالى «يوسف / ١٠٤»:

«وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ - إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ»

والسؤال:

هل يمكن، في ضوء ما سبق بيانه، أن يعتقد «عاقل» من أي ملة، أن «الذكر» يمكن أن يكون «الكتاب والسُنّة»؟!

٤- إن من عادة الذين يعجزون عن مواجهة الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان، ولا يقومون بتفعيل نعمة آليات عمل قلوبهم، «آليات التفكر والتعقل..»، أن ينسبوا إلى خصومهم صفات ليست فيهم، فبعد أن عجز المشركون الكافرون عن معارضة «الذكر الحكيم» راحوا يتهمون رسول الله محمد بـ «الجنون»:

«وَقَالُوا - يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ - الذِّكْرُ - إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ»

(أ): لقد استخدموا كلمة «الذِّكْرُ» ولم يستخدموا كلمة «الكتاب» أو «القرآن»، وقالوا في موضع آخر «القلم / ٥١-٥٢»:

«وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا - لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ - لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ - وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ - وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ»

لأنهم يعلمون أن «الآية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، ليست هي «الكتاب»، وليست هي «القرآن»، وإنما هي تفاعل كلمات التنزيل الحكيم مع «مقابلها الكوني» الذي يُذّكر الناس بـ «معناها».

(ب): ولا شك أن أهل «اللسان العربي» يعلمون أن الضمير «هو» في قول الله تعالى:

«وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ»

يعود إلى «الذِّكْرَ» الذي بسببه اتهموا الرسول بـ «الجنون»، والسؤال:

هل كانت آيات الذكر الحكيم هي التي كان ينزعج منها الكافرون، الأمر الذي جعلهم يتهمون الرسول بالجنون، أما «أحاديثه النبوية» فقد كانت عندهم مصدر اطمئنان على أن الرسول عاقل؟!

(ج): فأين نذهب بقول الله تعالى «الطلاق / ١٠-١١»:

«أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً - فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا - قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً»

«رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ - لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ - مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ - وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً - يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً - قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً»

فعندما يقول الله تعالى:

«قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ (ذِكْراً) - (رَّسُولاً) يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ»

فهل نزل رسول الله مع الذكر؟!

(د): لقد وصف الله تعالى التنزيل الحكيم بـ «الذكر»:

«قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً»

ووصف «الرسول» أيضا بـ «الذكر»:

«رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ»

لبيان أن الرسول وهو يبلغ الذكر يبلغه بكل ثقة وأمانة محفوظًا بحفظ الله تعالى له.

٥- ويقول الله تعالى «آل عمران / ٥٨»:

«ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ - مِنْ الآيَاتِ - وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ»

نجد أن الآية جاءت بعد بيان قصص وأنباء الأمم السابقة التي كانت واقعًا مشاهدًا يجب «تذكره» وأخذ العبر منه، لذلك عُطفت كلمة «الذِّكْرَ» على «الآيات» لبيان ما بينهما من تلازم وملابسة، ووصف الآيات بـ «الذكر» من أساليب لغة القرآن البيانية:

(أ): يقول الله تعالى في وصف الكتاب بـ الفرقان «البقرة / ٥٣»:

«وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى - الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ - لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»

ويقول الله تعالى «آل عمران / ٣-٤»:

«نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ - مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ - وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ»

«مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ - وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ»

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ - لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ - وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ»

إن «الفرقان» المنزل ليس شيئا غير «الكتاب»، وليس شيئا غير «القرآن»:

يقول الله تعالى «الفرقان / ١»:

«تَبَارَكَ الَّذِي - نَزَّلَ الْفُرْقَانَ - عَلَى عَبْدِهِ - لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً»

(ب): ووصف الله الكتاب بـ «النور»، يقول الله تعالى «النساء / ١٧٤»:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ - قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ - وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً»

وهذا النور المبين هو «الآيات» التي كان رسول الله محمد يتلوها على قومه، وليس «حديثه» الذي أصبح «روايات» بعد وفاته بقرن من الزمن:

يقول الله تعالى «البقرة / ١٥١»:

«كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ - يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا - وَيُزَكِّيكُمْ - وَيُعَلِّمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ - وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ»

ثامنًا:

إن جميع الآيات التي جاء سياقها يتحدث عن «النص الإلهي» الذي أمر الله رسوله أن يتلوه على الناس، جاءت تتحدث عن «تلاوة» آيات الكتاب بمعنى «الاتباع»:

يقول الله تعالى «النمل / ٩١-٩٢»:

«إِنَّمَا أُمِرْتُ – أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا – وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ – وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ»

«وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ – فَمَنْ اهْتَدَى – فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ – وَمَنْ ضَلَّ – فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنْ الْمُنذِرِينَ»

١– فهل ذكر الله تعالى أن هناك كتاب هداية يُتلى في حياة المسلمين، وعلى منابر الدعوة، وفي المناسبات الدينية، غير القرآن؟!

يقول الله تعالى «يونس / ٦١»:

«وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ – وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ – وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ – إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ»

ويقول الله تعالى «الكهف / ٢٧»:

«وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ – مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ – لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ – وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً»

٢– وإذا كان الله تعالى قد أمر رسوله بتلاوة الكتاب، أي بقراءته واتباعه سلوكًا عمليًا، فقد بشر الذين يتلونه، ويقتدون برسولهم، بتجارة لن تبور:

ويقول الله تعالى «فاطر / ٢٩»:

«إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ – وَأَقَامُوا الصَّلاةَ – وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً – يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ»

٣– إن التزام المسلم بـ «أحكام القرآن» ينبع من ثقته في مصدرها الحق المنزل من عند الله تعالى، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

يقول الله تعالى «الأنعام / ١٥١–١٥٣»:

«قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ»

«أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً»

«وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً»

«وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ – نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ»

«وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»

«وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ»

«ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»

والسؤال:

فهل بعد ما سبق بيانه من وصايا ثم قول الله تعالى:

«ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»

يمكن أن يعتقد عاقل، من أي ملة كان، أن تكون «مرويات» رواة الفرق والمذاهب الإسلامية العقدية والفقهية من هذه الوصايا؟!

٤- ثم يقول الله تعالى بعد ذلك:

«وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ - إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ - حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ»

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ - لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا»

«وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا - وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ»

«وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا - ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»

والسؤال:

فهل بعد ما سبق بيانه من وصايا ثم قول الله تعالى:

«ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»

يمكن أن يعتقد عاقل، من أي ملة كان، أن تكون «مرويات» رواة الفرق والمذاهب الإسلامية العقدية والفقهية من هذه الوصايا؟!

٥- ثم قال الله تعالى بعد ذلك:

«وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ - وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ - ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»

والسؤال:

فهل بعد ما سبق بيانه من وصايا، جاء في سياقها قول الله تعالى:

«ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ - لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»

«ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ - لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»

«ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ - لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»

يمكن أن يعتقد عاقل، من أي ملة كان، أن تكون «مرويات» رواة الفرق والمذاهب الإسلامية العقدية والفقهية من هذه الوصايا؟!

تاسعًا:

إن النص التشريعي الإلهي واجب الاتباع، الذي أشرف رسول الله محمد على تدوينه بنفسه، هو «كتاب الله» الخاتم، الذي حمل «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوته»، ولقد نفى الله تعالى أن يكون الرسول قد تعلّم شيئًا غير «كتاب الله» وتفاعل كلماته مع «مقابلها الكوني» الذي يُذكّر الناس بمعاني كلماته:

١- يقول الله تعالى «يس / ٦٩»:

«وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ - وَمَا يَنْبَغِي لَهُ - إِنْ هُوَ - إِلاَّ - ذِكْرٌ - وَقُرْآنٌ مُبِينٌ»

فماذا تعني جملة «وَمَا يَنْبَغِي لَهُ»؟!

هل تعني «وَمَا يَنْبَغِي لَهُ» أن يتعلم الشعر، ولكن يمكن أن يتعلم «مصدرًا ثانيًا للتشريع»، يُدوّنه أئمة السلف والمحدّثون بعد قرن من وفاته؟!

٢- إن الذي تعلمه رسول الله محمد، عليه لسلام، كان بـ «وحي إلهي» وقد حصره الله تعالى في:

«إِنْ هُوَ - إِلاَّ - ذِكْرٌ - وَقُرْآنٌ مُبِينٌ»

ويستحيل أن يتعهد الله تعالى بحفظ «الذكر»، الذي هو «المقابل الكوني» لكلمات القرآن، ويترك حفظ «المصدر الثاني للتشريع» لأئمة السلف بعد تدوينه في أمهات الكتب بعد وفاة رسول الله محمد بقرن من الزمن على أقل تقدير، «أَفَلاَ تَعْقِلُونَ»؟!

٣- إن الكافرين عندما اتهموا رسول الله محمد بأنه الذي كتب القرآن:

يقول الله تعالى «الفرقان / ٥»:

«وَقَالُوا - أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ - اكْتَتَبَهَا - فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ - بُكْرَةً وَأَصِيلاً»

فإن السؤال:

هل كانوا يعلمون شيئًا عن هذا «المصدر الثاني للتشريع» الذي يدّعي أئمة السلف وعلماء الخلف أنه «وحيٌ يوحى»؟!

والجواب:

(أ): يقول الله تعالى بعد ذلك ردًا على هذه الادعاءات «الفرقان / ٦»:

«قُلْ - أَنزَلَهُ - الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ - إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً»

(ب): وعندما اشتكى رسول الله قومه الذين هجروا القرآن، وقال الله تعالى «الفرقان / ٢٧-٣١»:

«وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ – يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً»

«يَا وَيْلَتا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً»

«لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً»

هل كان هذا الظالم يعلم أن «الذِّكْرِ» الذي ضلّ عنه هو «الكتاب» و«السُنّة» التي لم تكن «مروياتها» قد دُوّنت بعد؟!

ولقد رد الله على هذه الادعاءات كلها بقوله تعالى بعد ذلك:

«وَقَالَ الرَّسُولُ – يَا رَبِّ – إِنَّ قَوْمِي – اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ – مَهْجُوراً»

(ج): ولقد بيّن الله تعالى أن مصير الذي يُعرض عن «الذكر» هو جهنم خالدا فيها:

يقول الله تعالى «طه / ٩٩-١٠١»:

«كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ – وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً – مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً – خَالِدِينَ فِيهِ – وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً»

فإذا كانت «مرويات» الرواة من «الذكر الحكيم» فكيف يُخلد في النار من يُعرض عنها وقد آتاه الباطل من بين يديها ومن خلفها قبل تدوينها في أمهات الكتب بقرن من الزمن؟!

(د): وأين نذهب بقول الله تعالى «فصلت / ٤١-٤٢»:

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ – لَمَّا جَاءَهُمْ – وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ»

«لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ – مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ – تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»

أقول:

إن الذين ابتدعوا عقوبات على «ازدراء الدين» وعلى إنكار «المعلوم من الدين بالضرورة»، هؤلاء الذين افتروا على الله تعالى الكذب، لم يبتدعوا هذه العقوبات إلا لحماية مذاهبهم العقدية والفقهية، واطلعوا على تاريخ الصراع بين الفرق والمذاهب العقدية والفقهية وأنتم تعلمون حجم المأساة التي يعيش بداخلها «٩٩٪» من المسلمين المصرّين على أن يشملهم قول الله تعالى:

«وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ – مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ»

وقول الله تعالى لرسوله محمد:

«إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ – وَكَانُوا شِيَعًا – لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ – إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ – ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ»

فهرس الجزء الأول

١- المدخل ١
٢- المشكلة ٢
٣- المنهج ٨
- منظومة التواصل المعرفي ١٥
- اللسان العربي ٢٠
- السياق القرآني ٢٦
- آليات عمل القلب ٤٢
- آيات الآفاق والأنفس ٤٦
٤- المقال نحو إسلام الرسول ٥١
٥- الآبائية السلفية ٥٣
٦- الإسلام إسلام «الآية» لا إسلام «الرواية» ٥٦
٧- حجية القرآن في المقابل الكوْني لكلماته ٦١
٨- القرآن آية إلهية عقلية رغم اختلاف مصاحفه ٦٧
٩- هل بلغ رسول الله محمد نصًا مدونًا غير القرآن؟! ٧٢
١٠- هل رواة الحديث هم الذين حفظوا القرآن؟! ٧٦
١١- «وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ» ٧٨
١٢- هل أمر الله بطاعة الرسول أم بطاعة المحدثين؟! ٨١
١٣- عندما تحكم ثقافة الرواية فقه الآية ٨٥
١٤- سنة الإيمان الوراثي وسنة الإيمان العلمي ٨٩
١٥- عندما تصبح ثوابت الدين الإلهي ثوابت مذهبية ٩٢
١٦- هل يمكن أن تكون «الحكمة» مرويات بشرية ٩٥

١٧- هل فسر النبي القرآن بـ مرويات السنة النبوية؟! ٩٩
١٨- عندما تسقط الحلقة الأولى من حلقات السند الروائي ١٠٣
١٩- هل مرويات المصدر الثاني للتشريع وحي إلهي؟! ١٠٨
٢٠- السنة النبوية حقيقة قرآنية في عصر النبوة ١١٢
٢١- عندما يدعي علماء الأزهر أنهم الأمة الإسلامية ١١٥
٢٢- البيان النبوي لا علاقة له بالذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ١٢١
٢٣- عندما تصبح طاعة المحدثين طاعة للرسول ١٢٨
٢٤- عندما تكون مخالفة مذهب من المذاهب كفرا وضلالا ١٣٥
٢٥- القواصم التي قصمت ظهر المذاهب ١٤٢
٢٦- عندما تحرف القراءات العصرية مفهوم النبوة ١٤٧
٢٧- عندما تتخلف خير أمة أخرجت للناس ١٥٥
٢٨- بيان من رسول الله إلى المسلمين اليوم ١٦٤
٢٩- فتنة علم الحديث قادتنا إلى المذهبية العشوائية ١٧٠
٣٠- عندما تحمي كل فرقة مروياتها بـ علم الجرح والتعديل ١٧٥
٣١- هل أمر الله باتخاذ السلف مرجعًا في دين الإسلام؟! ١٧٩
٣٢- عبثية أن يحكم فقه الرواية فقه الآية ١٨٣
٣٣- حجية خبر الواحد وإشكالية تجديد الخطاب الديني ١٨٨
٣٤- من قال إن في دين الإسلام مذاهب فقهية متخاصمة؟! ١٩٤
٣٥- عندما يتحول المعلوم من الدين بالضرورة إلى مذهب ديني ٢٠٠
٣٦- مفهوم الكفر بين الدين الإلهي والدين السلفي ٢٠٦
٣٧- وهل يمكن أن يتحول «الذكر الحكيم» إلى مرويات؟! ٢١٢
٣٨- الفهرس ٢٣١